النظرات

الجزء الثاني

obeikandl.com

obeikandl.com

البيــــان

قال لي أحدُ الوزراءِ ذاتَ يوم: «إني لَتأتيني أَحيانًا رقاعُ الشكوَى فأكادُ أُهمِلُها لما تشتملُ عَليه مِنَ الأساليب النفِرَةِ[1]، والكلماتِ الجارحَة، لولا أن الله تَعالى يُلهمُني نيّاتِ كاتِبيها وأينَ يَذهَبُون، ولولا ذلكَ لكنتُ مِنَ الظالمين».

ذلكَ ما يراهُ القارئُ في كثير مِنَ المخطوطاتِ التي يخطُّها اليومَ كاتِبوها في الصُّحُفِ ورُقاعِ الشكوى والكُتُبِ الخاصَّةِ والمؤلَّفَاتِ العامَّة.

هَزْلٌ في موضعِ الجدِّ، وجدٌّ في موضعِ الهزلِ، وإسهابٌ في مكانِ الإيجاز، وإيجازٌ في مكانِ الإسهاب[2]، وجَهْلٌ لا يفرِّقُ ما بينَ العتاب والتأنيب، والانتقام والتأديب، والاستِعطافِ والاستِخفاف، وقُصورٌ عن إدراكِ مَنازلِ الخطاب ومَواقفِه بين السُّوقَة[3] والأمراءِ، والعلماءِ والجهلاءِ، حتى أن الكاتبَ لَيقيمُ في الشوكةِ يشاكُها مناحَةً[4] لا يُقيمُها في الفاجعَةِ يفجعُ بها، ويكتبُ في الحوادثِ الصغار ما يعجزُ عن كتابةِ مثلِهِ في الحوادث الكبار، ويخاطبُ صديقَه بما يخاطبُ عدوَّهُ ويناجي أجيرَه بما يناجي به أميرَه.

ذهبَ الناسُ في مَعنى البيانِ مذاهبَ متشعِّبَةً، واختَلَفوا في شأنِه اختِلافًا كَثيرًا، ولا أَدري عَلامَ يختلِفُونَ وأينَ يَذهَبُونَ؟! وهذا لفظُهُ دالٌّ على مَعناهُ دلالَةً واضِحَةً لا تَشتَبِهُ وَجُوهُها ولا تَتَشَعَّبُ مَسالِكُها.

ليسَ البيانُ إلا الإبانةَ[5] عن المعنَى القائم في النفس، وتَصويرَهُ في نظر القارئ أو مَسمَع السامع تَصويرًا صَحيحًا لا يتجاوَزُهُ، ولا يُقَصِّرُ عنهُ، فإن عَلِقَتْ به آفةُ تَيْنِكَ الآفتَيْنِ فهيَ العيُّ[6] والحَصْرُ.

---

(١) النفِرَة: يعني المنفرة والمقززة.

(٢) الإسهاب: الإطالة.

(٣) السوقة: عامة الناس.

(٤) المناحة: البكاء والعويل.

(٥) الإبانة: التوضيح والتصريح بالشيء، والإفصاح.

(٦) العيّ: العجز عن البيان، وفي الأثر: "إنما شفاء العيّ السؤال".

جَهلَ البيانَ قَومٌ فظنُّوا أنه الاستكثارُ مِن غريبِ اللغةِ ونادرِ الأساليب فأغَصُّوا بها صُدورَ كِتابتهم، وحَشَوْها في حُلوقِها حَشْوًا يقبضُ أوداجَها ويحبسُ أنفاسَها. فإذا قُدِّر لكَ أن تَقرَأها، وكنتَ ممَّن وَهَبَهُمُ الله صَدرًا رَحْبًا، وفُؤادًا جَلدًا، وجَنَانًا يحتمِلُ ما حَمَلَ عليه مِن آفاتِ الدهر وأرزائه[(١)]، قرأتَ مَتنًا مُشَوَّشًا مِن مُتُونِ اللغةِ، أو كتابًا مُضطربًا من كُتُبِ المُتَرَادِفَات.

وَجَهِلَهُ آخرونَ فظنُّوا أنه الهذرُ في القولِ، والتبسُّطُ في الحديثِ واقِعًا ذلكَ محالِ الكلامِ ومُقتَضَاهُ حيثُ وَقَعَ، فلا يزالونَ يجتَرُّون بالكلمةِ اجترَارَ الناقَةِ بجرَّتها، ويَتَمَطَّقُونَ بها تَمَطُّقَ الشفاهِ بريقِها، حتى تسفَّ وتَتبذَّلَ، وحتى ما تكادُ تَسيغُها[(٢)] الحلُوقُ ولا تَطرفُ عَليها العيونُ، وهم يَحسبونَ أنَّهم يُحسِنونَ صُنعًا.

يخيَّلُ إليَّ أنَّ الكُتَّاب في هذا العصر يَكتبونَ لأنفسِهم أكثرَ مما يَكتبونَ للناس، وأنَّ كتابَتهم أشبَهُ شيءٍ بالأحاديثِ النفسيَّةِ التي تَتَلجلَجُ في صَدرِ الإنسانِ حينَما يخلُو بنفسِه، ويأنسُ بوَحدَتِهِ. فإني لا أكادُ أرَى بينَهم مَنْ يُحكِمُ وَضْعَ فَمِهِ على أُذُنِ السامعِ، وينفثُ في رُوعِهِ ما يريدُ أن ينفُثَ من خَواطِرِ قلبِهِ، وخَوالجِ نفسِه.

الكلامُ صِلَةٌ بينَ مُتَكَلِّمٍ يُفْهِمُ، وسَامعٍ يَفْهَمُ، فَبمقْدارِ تلكَ الصِّلَةِ من القوَّةِ والضعفِ تكونُ منزلَةُ الكاتبِ منَ العُلُوِّ والإسفافِ، فإنْ أردتَ أن تكونَ كاتبًا فاجْعَلْ هذهِ القاعدةَ في البيانِ قاعِدَتَكَ، واحرِص الحرصَ كلَّهَ على ألا يخدعَكَ منها خادعٌ فتسقطَ مَعَ الساقِطينَ.

ما أُصيبَ البيانُ العربيُّ بما أُصيبَ بهِ إلا مِن ناحيةِ الجَهْلِ بأساليب اللغةِ، ولا أدري كيفَ يستطيعُ الكاتبُ أن يكونَ كاتبًا عَرَبيًا قبلَ أنْ يَطَّلِعَ على أساليب العرب في أوصافِهم ونُعُوتهم، وتَصَوَّراتهم وخيالاتهم، وَمُحاوَراتهم ومُسَاجَلاتهم، وقبلَ أن يعرفَ كيفَ كانوا يُعاقبونَ ويؤنِّبون، ويَعِظُونَ ويَنصحُونَ، ويتَغزَّلُونَ ويَنسبونَ[(٣)]، ويَستعطِفُونَ ويسترْحِمُون، وبأيَّةِ لغةٍ يحاولُ أن يكتبَ ما يريدُ إن لم يَسْتَمَدَّ تلكَ الروحَ العربيةَ استمدادًا يملأُ ما بينَ جَانِحَتَيْهِ حتَّى يَتَدَفَّقَ مع المِدادِ[(٤)] من أنبُوب يَراعَتِهِ[(٥)] على صَفَحَاتِ قِرطاسِهِ.

---

(١) الأرزاء: الدواهي والكوارث.
(٢) تسيغها: تستسيغها وتقبلها.
(٣) النسيب: نوع من الغزل.
(٤) المداد: الحبر، وفي القرآن: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى﴾.
(٥) اليراع: القلم.

إنِّي لأقرأُ ما كتبهُ الجاحظُ وابنُ المقفَّع والصاحبُ والصابئُ والهمذانِيّ والخوارزميُّ وأمثالُهم من كُتَّاب العربيّةِ الأولى، ثم اقرأُ ما خَطَّهُ هؤلاءِ الكاتبونَ في هذهِ الصحف والأسفار[(١)]، فأشعرُ بما يشعرُ به المتنقِّلُ دَفْعَةً واحدةً من غرفةٍ مُحكمَةِ النوافذِ، مُسبَلَةِ الستور[(٢)]، إلى جَوٍّ يسيلُ قَرًّا وضَرًّا[(٣)]، ويترقرَقُ ثَلْجًا وبَرْدًا.

ذلكَ؛ لأني أقرأُ لغةً لا هي بالعربية فأغتبطُ بها، ولا هيَ بالعاميَّةِ فألْهُو بأحماضِهَا[(٤)] ومجونها.

رأيتُ أكثرَ الكاتبينَ في هذا العصرِ بينَ رجلَيْنِ: رجُلٍ يستمدُّ روحَ كتابَتِه من مُطالَعةِ الصُّحف وما يُشاكِلُها في أساليبِها مِنَ المؤلَّفاتِ الحديثةِ والرواياتِ المترجَمَةِ، فإذا عَلِقَتْ بنفسِهِ تلكَ المَلَكَةُ الصحفيةُ أَلْقَى بها في رُوعِ قارئِ كتابَتِهِ أَدْوَنَ[(٥)] مما أَخَذَها، فيُدلي آخِذُها كذلكَ إلى غَيرِهِ أسمَجَ[(٦)] صورةً وأكثرَ تشويهًا، وهكذا حتَّى لا يبقَى فيها من روحِ العربيةِ إلا كما يبقَى مِن أستاذَه: نحوُ اللغةِ وصرفُها، وبديعُها وبيانُها، ورسمُها وإملاؤها، ومُترادفُها ومُتوارِدُها، وغيرُ ذلك من آلاتها وأدواتها، أمَّا روحُها وجوهرُها فأكثرُ أساتذةِ البيانِ عندَه علماءُ غيرُ أدباءَ، وحاجَةُ طالب اللغةِ إلى أستاذٍ يَفيضُ عليهِ روحَ اللُّغَةِ، ويُوحي إليه بسرِّها، ويُفضي له بلُبِّها وجَوْهرها أكثرُ من حاجَتِهِ إلى أستاذِ البيانِ، فكما أنَّ طالبَ الأخلاقِ لا يَستفيدُها إلا مِن أستاذٍ كَمُلَتْ أخلاقُه وسَمَتْ آدابُه، كذلكَ طالبُ البيانِ لا يَستفيدُه إلا مِن أستاذٍ مُبينٍ.

ولا يَقذِفَنَّ في رُوعِ القارئِ أني أُحاولُ استلابَ[(٧)] فضلِ الفاضلينَ، أو أني أُريدُ أن أُنكِرَ على شُعراءِ الأُمَّةِ وكُتَّابها ما وَهَبَهُمُ اللهُ مِن نعمةِ البيانِ. فما هذا أردتُ ولا إليه ذهبتُ؛ وإنما أقولُ إن عَشَرةً مِنَ الكُتَّابِ المُجيدينَ، وخمسةً من الشعراءِ البارعينَ، قَليلٌ في بلدٍ يَقولونَ إنه مَهدُ اللغةِ العربيَّةِ اليومَ ومَرعاها الخصيبُ.

وبعدُ، فإني لا أرى لكَ، يا طالبَ البيانِ العربيِّ، سَبيلًا إليه إلا مُزاوَلَةَ المنشآتِ

(١) الأسفار: جمع سِفْر، وهي الكتب، وفي القرآن حكاية عن اليهود: ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾.
(٢) مسبلة الستور: من سَبَلَ الشيء، أرسله.
(٣) القرّ: الحرّ، والضر: الهزال، وله معان مجازية قال بها بعض علماء العربية ومنه الصقيع.
(٤) حَمْضُ الشيء: ما يتفكه به، يقال: أحمضُ القوم سمروا وتضاحكوا.
(٥) الأدونَ: الأقل.
(٦) السمج: الذي لا ملاحة فيه، ومنه قول أبي ذؤيب:

فإنْ تصرمي حَبْلي وإنْ تتندمي ... خليلًا فمنهمُ صالحٌ وسَميج

(٧) استلاب الشيء: التنقصُ من قدرِه، وعدم الاعتراف بفضله.

العربيةِ[١]، مَنثورها ومنظومِها، والوقوفَ بها وقوفَ المُتَثَبِّتِ المُتَفَهِّم لا وقوفَ المُتَنَزِّهِ المُتَفَرِّجِ. فإن رأيتَ أنك قد شُغفْتَ بها وكَلِفْتَ بمعاوَدَتها والاختلاف إليها، وأن قد لَذَّ لكَ منها ما يلذُّ للمعاشِق من زَوْرَةِ الطيفِ في غُرَّةِ الظلام، فاعلَمْ أنكَ قد أخذْت منَ البيانِ بنصيب، فامْضِ لشأنِكَ ولا تَلْوِ على شيءٍ مما وَرَاءَكَ، تبلُغْ مِن طلبتِكَ ما تُريدُ.

ولا تحدِّثْكَ نفسُك أني أحمِلُكَ على مُطالَعَةِ المنشآتِ العربيّةِ لأُسلوب تَسْتَرِقُهُ أو تركيب تختلسُهُ، فإني لا أُحبُّ أن تكونَ سارقًا أو مُختلِسًا، فإن فعلتَ لم يكُن دَرْكُكَ[٢] دَرَكًا، ولا بيانُكَ بَيانًا، وكانَ كلُّ ما أفدتَهُ أن تُخرجَ للناس من البيانِ صورةً مُشوَّهَةً لا تحصِلَ لنفسِكَ مَلَكَةً في البيانَ راسخَةً تصدرُ عَنها آثارُها عَفْوًا بلا تكلُّفٍ ولا تَعَمُّلَ، وإلا كانَ شأْنُكَ شأنَ أولئِكَ القومَ الذين عَلِقَتْ ذَاكِراتُهُم بطائِفَةٍ من مَنثورَ العَرَب ومَنظومِها، فَقَنِعُوا بها، وظنُّوا أنهم قَدْ وَصَلُوا منَ البيانِ إلى صَميمِهِ. فإذا جدَّ الجدُّ وأرادوا أنفُسَهم على الإفصاح عَن شيءٍ مما تختلجُ به نفوسُهم، رجعوا إلى تلكَ المحفوظاتِ ونَبَشوا دَفَائِنَها، فإن وَجَدُوا بينها قالبًا لذلك المعنَى الذي يُريدونَه انتزَعُوهُ مِن مكانِهِ انتزاعًا وحَشَرُوهُ في كتابَتِهم حَشْرًا. وإلا تَبَذَّلُوا باستعمال التراكيب الساقِطَةِ المشنُوعَةِ[٣] أو هَجَرُوا تلكَ المعاني إلى معانٍ أُخرَى غيرها، لا علاقَةَ بينَها وبينَ سابقاتِها ولاحِقاتِها، فلابُدَّ لهمُ مِن إحدَى السوأَتَيْنِ: إما فسادُ المعاني واضطرابُها، أو هُجنَةُ[٤] التراكيبِ وبَشَاعَتُها.

فاحذَرْ أن تكونَ واحدًا مِنهُم، أو أَن تصدِّقَ ما يقولونَه في تلمُّس العُذر لأنفُسِهم مِن أَنَّ اللغةَ العربيَّةَ أضيَقُ مِن أن تَتَّسِعَ لجميع المعاني المستحدَثَةِ، وأنهم ما لَجئوا إلى التبذُّل في التراكيب إلا لاستِحالَةِ الترفُّع فيها؛ فاللغةُ العربيةُ أرحَبُ صَدرًا مِن أن تضيقَ بهذه المعاني العامَّةِ المطروقَةِ بعدَما احتَمَلَتْ من دقائق العلوم والمعارفِ ما لا قِبَلَ لغيرها باحتِمالِه، وقدرَتْ مِن هواجس الصدُور وخوالج النفوس على ما عَيَّتَ به اللُّغَاتُ القادِراتُ.

---

(١) يقال: زاول الشيء حتى رفعه عن مكانه، وزاوله ساعة حتى صرعه، والمزاولة هنا بمعنى المطالعة والمعرفة.

(٢) دركك: إدراكك وفهمك، يقال: درك، طلب الشيء حتى أدركه.

(٣) المشنوعة: من الشناعة، وهي الفعل القبيح، يقال: شنع شناعة بمعنى: قبح.

(٤) الهجنة: الكلام الغريب البعيد عن فصاحة العرب، يقال رجل هجين، وفرس هجين، إذا لم تكن الأم عربية؟

وليسَ الشأنُ في عَجْز اللغةِ وضيقِها، وإنما الشأنُ في عَجز المُشتغِلينَ بها عَن الاضطراب في أرجائها، والتغلغُل في أعماقِها، واقتِناعِهم من بحرِها بهذه البِلَّةِ التي لا تُثْلِج صَدرًا، ولا تَشفي أَوامًا[1].

وكلُّ ما يُعدُّ عليها مِن الذنوب أنها لا تَشتمِلُ على أعلام لبعضِ هذهِ الهناتِ المستحدَثة. وهو في مذهبي أَهوَنُ الذنوب وأضعفُها شأنًا، ما دُمنا نعرفُ وَجه الحيلةِ في علاجِهِ بالاشتِقاقِ إن وَجَدْنا السبيلَ إليه، أو التعريب إن عجَزْنا عن الاشتقاقِ. فالأمرُ أهوَنُ من أن نَحارَ فيه، وأحقَرُ مِن أن نقضِيَ أعمارَنا في العراكِ ببابه، والمناظَرَةِ في اختيار أقرَب الطُّرُقِ إليه، وأجداها[2] عَليه.

وَاعلَمْ أنه لابُدَّ لكَ مِن حُسنِ الاختيار فيما تريدُ أن تزاولَهُ من المنشآتِ العربيَّةِ، فليسَ كلُّ مُتَقدِّم يَنفعُكَ، ولا كلُّ مُتأخِّر يَضرُّكَ. ولا أحسَبُكَ إلا واقفًا بينَ يَدَيْ هذا الأمرِ مَوقِفَ الحَيْرةِ والاضطرابِ؛ لأنَّ حُسنَ الاختِيار طلبةُ تَتَعثَّرُ بين يدَيْها الآمالُ، وتَتَقَطَّعُ دونَها أعناقُ الرجالِ. فالجأْ في ذلك إلى فطاحِلِ الأُدباءِ الذين تعرفُ الناسُ منهُم ذَوقًا سَليمًا، وقريحةً صافيةً، ومَلَكَةً في الأدب كمصفاةِ الذهَب. فإن فعلتَ وكنتَ ممَّن وَهَبَهُمُ اللهُ ذكاءً وفطنَةً وقريحةً خصبةً صالحةً لنماء ما يُلقَى إليها منَ البذور الطيِّبَةِ عُدْتَ وبينَ جنبَيْكَ مَلَكَةٌ في البيانِ زاهِرَةٌ، يتناثَرُ منها منثورُ الأدبِ ومَنظُومُهُ، تَنَاثُرَ الورودِ والأنوارِ من حَديقَةِ الأزهار.

---

(١) الأوم: حرارة العطش، يقال: أوم في جوفه أوام وأدار.
(٢) الأجدى: الاصح والأنفع.

السَّرِيرَة

لَو كُشِفَ للإنسانِ عَن سريرةِ الإنسانِ لَرأَى منها ما يَرَى الأعمى من غرائِب هذا الكونِ وعَجَائِبِهِ حينَ تُدرِكُهُ رَحمَةُ اللهِ بعدَ طولِ مِحنَتِهِ فيرتَدُّ بَصيرًا.

تتراءَى لك السريرةُ في ظاهِرِها كأنها أَديمُ السماءِ أو صفحةُ الماءِ. إن بَدَا لَكَ أن تَكْتَنِه باطنَها فإنَّكَ غيرُ بالغ من ذلكَ مأرَبَكَ إلا إذا استطعتَ أن تخترقَ جلدةَ السماءِ، فتَرى ما وَرَاءَها مِن بدائعَ الكائناتِ، وتغوصَ في أعماقِ الماءِ فتشاهدَ ما في باطِنِهِ مِن عجائِبِ المخلوقات.

يَعجزُ المرءُ عن رُؤيةِ الهباءِ[1] فيتريَّثُ ريثما تَمُجُّ الشمسُ لُعابَها[2] من نافذَةِ غرفَتِهِ فإذا هو مائِجُ وَضَّاءُ يروحُ ويَغدُو رواحَ السانحاتِ وغُدُوَّ البارحاتِ[3]، ويَعجزُ عَن رؤيةِ الجراثيم فيستعينُ عليها بمنظارٍ يُجَسِّمَها له ويُدنيها منهُ حتى ليكادُ يلمُسُها بيَمينِهِ، ويعجزُ عن اكتناهِ السريرةِ فلا يجدُ إلى الوصولِ إليها سَبيلًا.

وَقَفَ آدمُ أمامَ باب السريرةِ يومَ الشجرةِ يعالِجُ فَتْحَهُ فاستَعْصَى عليهِ، ثم وَقَفَ بَنُوهُ مِن بعدِهِ مَوقِفَهُ فَعَجَزُوا عَجْزَه، فلَجَّ بهم الشوقُ إليها لجاجًا طارَ بعُقولهم وذَهَبَ بأَلْبابهم، فَترامَوا عَلى أقدام المنجِّمينَ والعرَّافين لَثْمًا وتقْبيلًا، وابتَدَرُوا النُّصُبَ والتماثيل رُكوعًا وسُجُودًا، وهامُوا بزاجراتِ الطير والضوارب بالحصَى[4] هيامَ الإبلِ العطاش بمنازلِ الماءِ، يطلبونَ ما وراءَ السريرةِ والسريرةُ كَنْزٌ مرصُودٌ لا تَنجَعُ فيه النفثاتُ، ولا تُجدي مَعَهُ العزائمُ والرُّقَى

إنك لَتَرى الرجُلَ يتلألأُ جَبينَهُ تلألُؤَ الكواكب في جنح ليل مُبرَّدٍ، ويَفتَرُّ ثغرُهُ عَنِ

---

(١) الهباء: دقيق التراب الذي يسطع في الجو كالدخان وينبث في ضوء الشمس.

(٢) تمج الشمس لعابها: من المجازات الدالة على ضوء الشمس ونورها،، يقال: مجت الشمسُ ريقها، قال النابغة:

يُثرنَ الحصَا حتى يباشِرن بَرْدَهُ ... إذا الشمسُ مجَّتُ ريقَها بالكلاكِلِ

(٣) سنح: مَرَّ به الطائر سانحًا عن يمينه، ومن المجاز: سنح له رأي، أي عرضَ له، وعكسها البارحات.

(٤) الضوارب بالحصى.: الكاهنات المدعيات الغيب.

الأنوارِ افترارَ الأكمامِ عَنِ الأزهار، فتحسدَهُ على نعمتِه وسعادَتِه، وتتمنَّى أن لو مَنَحَكَ الله ما مَنَحَهُ مِن هناءٍ ورَغدٍ، وإنَّ بين جنبيه - لو علمتَ - هَمًّا يعتلجُ، وقلبًا يدبُّ فيه اليأسُ دبيبَ الآجالِ في الأعمار، وكَبَدًا مَقروحَةً لو عَرضَها في سوقِ الهمومِ والأحزانِ ما وَجَدَ من يَبتاعُها منهُ بأبخَسِ الأثمان. وإنكَ لَترى الصديقَ فيعجبُكَ منهُ حديثُهُ الحلوُ، وثغرُهُ المبتسِمُ، ويروقُكَ مَنهُ كَلَفُهُ بكَ وإعظامُهُ لكَ وإعجابُهُ بشَمَائِلِكَ ومَحَاسِنِكَ، وتَشيُّعُهُ لآرائِكَ، ولوَ كَشَفَ لكَ مِن نفسِه ما كُشِفَ له منها لَوَدِدْتَ أن لَو تَيَسَّرَ لكَ أن تبتاعَ أقدامَ السُّلَيْكِ[1] بجميعِ ما تملِكُ يَدُكَ ففرَرْتَ مِن وجههِ فرارَكَ مِن وَجْهِ الأَسْوَدِ السالخ[2]، ووجدتَ بجدعِ الأنفِ أن لا يصافحَ وجهُهُ وجهَكَ مِن بعدِها حتَّى في جَنَّاتِ النعيم. لَولا ما أسدَلَ على السرائرِ مِنَ الحُجُبِ لبَدَّلَتِ الأرضُ غيرَ الأرضِ، والسماواتُ غيرُ هذهِ الصفحات.

لو علمَ الجندُ أنهم لا يحاربونَ إلا ليضَعُوا «نيشانًا»[3] في صَدْرِ القائِدِ، أو جوهَرَةً في تاجِ المَلِكِ، وأنهم كَثيرًا ما يكُونُونَ مخدوعينَ في مواقِفِهم بأشراكِ الوطنيَّةِ وحَبائِلِ الدِّين، لما دَالَتِ الدولُ، ولا انتقلَتِ التيجانُ، ولَضَعُفَ ظهرُ الأرضِ عَن حَمْلِ ما فوقَهُ مِن بني الإنسان. ولو علمَ جَهَلَةُ المتديِّنينَ أنَّ أكثرَ زعماءِ الأديانِ إنما يَشترونَ منهُم عقولَهم وأموالَهم بالقليلِ التافِهِ مِنَ المدهشاتِ الدينية والأحلامِ النفسيَّةِ، ويملئونَ قلوبَهُم بالمخاوفِ والمُزعِجاتِ؛ ليبيعُوهُمُ الأمنَ والسلامَ بثمنٍ غالٍ، لَضَعُفَتْ لأصواتِ النواقيس، وقَصُرَتْ قاماتُ المنائر، ولَهَلَكَ أربابُ الطَّيالسِ والقلانس جُوعًا وسَغْبًا، ولأصبحتْ حَبَّاتُ السُّبُحِ أكسَدَ في سُوقِ الأديانِ من بَعْرِ الآرامِ في سُوقِ الأنعام. ولو علمَ الابنُ أن أبَاهُ يحبُه لما يرجُوهُ مِن مَنفَعتِهِ في شَيخوخَتِهِ، وأنه إنما يعجبُ بنفسِهِ في إعجابِهِ بِهِ وثنائِهِ عليه، ويفخرُ بقوَّةِ عقلِهِ وحُسن تدبيرهِ في فخرهِ بذكائِهِ ونُبُوغِهِ، لَضَعُفَتْ صِلَةُ الوُدِّ بينَه وبينَه، ومَا كانت بين حلقاتِ الأنساب هذه الوشائجُ وتلك الأواصرُ. ولو عَلمَتِ الزوجةُ أن زوجَها يحبُّ منها جسمَها أكثرَ مما يحبُّ نفسَها، وأنه يتربَّصُ بها الدوائرَ ويُعدُّ ليومِها الساعاتِ والأيامَ ليستبدِلَ بها خَيرًا منها، لما وَثِقَتْ بوُدهِ ولا اطمأنَّتْ لعَهدِهِ ولَما كان للمنازِلِ سُقُوفٌ تُظِلُّ الأَسِرَّةَ والمِهادَ.

(١) السليك: رجل معروف بسرعة الجري في العرب.
(٢) السالخ: الحيَّة ولدغتها يقال: أرق من سلخ الحية ومِسلاخِها، ويقال عن ذكر الحيَّة: أسْود سالخ.
(٣) النيشان: الوسام التي تهبه الدول للعظماء.

زيد وعمرو

أرادَ داود باشا - أحدُ وُزراءِ تركيا في العَهدِ القَديم - أن يتعلَّم اللغةَ العربيَّةَ فأحضرَ أحدَ عُلَمَائِه، وأخذَ يتلقَّى عنهُ علومَهُ عَهْدًا طويلًا، فكانتَ نَتيجةُ عملِهِ ما سَتَراهُ.

سألَ شيخَهُ يومًا: ما الذي جناهُ عمرو منَ الذنوب حتى استَحَقَّ أن يضربَهُ زيدٌ كلَّ يوم ويُبَرِّح بِهِ هذا التبريحَ المُؤلِمَ؟! وَهَلَ بَلَغَ عمرو مِن الذلِّ والعَجز منزلَةً من يَضعفُ عَن الانتقام لنفسِه، وضَرْبَ ضاربِهِ ضربَةً تَقضي عَليه القَضاءَ الخيرَ؟

سألَ شيخَهُ هذا السؤالَ وهوَ يتحرَّقُ غيظًا وحَنقًا، ويضربُ الأرضَ بقدمَيْه؛ فأجابَهُ الشيخُ: ليسَ هناكَ ضاربٌ ولا مَضروبٌ، يا مولايَ، وإنما هيَ أمثلَةٌ يأتي بها النُّحاةُ لتقريب القَواعدِ من أذهانِ المتعلِّمينَ. فلَمَ يُعجبْهُ هذا الجوابُ، وأكْبَرَ أن يَعجزَ مثلُ هذا الشيخ عَن معرفَةِ الحقيقةِ في هَذهِ القضيةِ، فَغَضِبَ عَليه وأَمَرَ بسَجْنِه، ثم أرسَلَ إلى نَحويٍّ آخَرَ فَسَأَلَهُ كَما سَألَ الأوَّلَ، فأجابَهُ بمثلِ جوابَهِ، فَسَجَنَهُ كذلكَ، ثم ما زالَ يأتي بهم واحِدًا بعدَ واحِد، حتَّى امتلأتِ السُّجونُ وأقفرَتِ المدارسُ وأصبحَتْ هذه القضيَّةُ المَشْئومَةُ الشغلَ الشاغِلَ عَن جَميع قضايا الدولة ومَصالحِها.

ثم بَدا لَهُ أن يَسْتَوْفِدَ علماءَ بَغدادَ، فأَمَرَ بإحضارهم، فحَضَروا وقَد عَلِموا قبلَ الوُصُولِ إليهِ ماذا يُرادُ بهم. وكانَ رئيسُ هؤلاءِ العُلماءِ بمكانَةٍ مِنَ الفضل والحذقِ والبَصَرَ بمواردِ الأمور ومَصادرِها، فَلَّما اجتَمَعُوا في حَضرَةِ الوزير أعادَ عَليهم ذلك السؤالَ بعَيْنِه، فأجابَهَ رئيسُ العلماءِ: إن الجنايةَ التي جَناها عَمرو يا مولاي يستحقُّ أن ينالَ لأجلِها مِنَ العُقوبَةِ أكثرَ ممَّا نال؛ فانبسَطَتْ نفسُه قَليلًا وبَرَقَتْ أساريرُ وجهِه، وأقبَلَ على مُحَدِّثِه يسألُه: ما هيَ جنايتُه؟ فقالَ له: إنه هَجَمَ على اسم مَوْلانا الوزير واغتَصَبَ منهُ الواوَ، فسلَّطَ النحويُّونَ عَليه زَيدًا يَضربُهُ كلَّ يوم جزاءَ وقَاحَتِه وفُضُلِهِ - يُشيرُ إلى زيادةِ واو عَمرو وإسقاط الواو الثانيةِ من داود؛ فأعجبَ الوزيرُ بهذا الجواب كلَّ الإعجاب، وقالَ لرئيس العُلَماء: أنت أعلمُ مَنْ أَقلَّتْهُ الغبراءُ، وأَظَلَّتْهُ الخضراءُ، فاقترحْ عليَّ ما تشاءُ، فلم يَقترحْ عليهِ سِوى إطلاقِ سَبيل العُلماءِ المسجونين؛ فأمَرَ بإطلاقِهِم، وأنعَمَ عليهم وعلى عُلماء بغداد بالجوائزِ والصِّلاتِ.

أحسنَ داودُ باشا في الأولى وأساءَ في الأُخرى، وَلَو كنتُ مكانَه لما أطلَقْتَ سَبيلَ هؤلاءِ النُّحاةِ مِن سجنِهم حتى آخُذَ عَليهم عَهْدًا وَثيقًا أن يترُكوا هذهِ الأمثلةَ الباليَةَ إلى أمثِلَةٍ جَديدةٍ مُستَطْرَفَةٍ تُؤنِسُ نفوسَ المتعلمينَ وتَذهَبُ بوَحشتهم، وتَحُولُ بينَهم وبينَ النفورِ مِن مَنظرِ هذهِ الحوادثِ الدمويَّةِ بينَ زيدٍ وعَمرو، وخالدٍ وبَكر.

لا ينالُ المتعلِّمُ حَظَّهُ مِنَ العِلمِ إلا إذا استَطاعَ تَطبيقَهُ على العمل والانتفاعَ بهِ في مَواضِعِه ومَواطِنِه التي وُضِعَ لِأجلِها، ولن يَستطيعَ ذلكَ إلا إذا استكثَرَ لهُ معلِّمُهُ مِنَ الأمثلةِ والشَّواهِدِ الملائِمَةِ لقَواعِدِ ذلكَ العِلمِ، وافتَنَّ لهُ في إيرادِها افتِنانًا يُقَرِّبُ إلى ذهنِهِ تلكَ الصِّلَةَ مِنَ العِلمِ والعَمل، ويُسهِّلُ لهُ الوصولَ إلى القدرَةِ على تلكَ المُطابَقَة. وإنَّ أكثَرَ المتعلِّمينَ في مدرسةِ الأزهر أبعَدُ الناس عَن القدرةَ على المُطابَقَةِ، لما حالَ بينَهم وبينَ ذلكَ منَ الوُقوفِ عندَ المثل الواحِدِ لكلِّ قاعِدَةٍ مِن قواعِدِ العِلم. فلَو أنكَ أردتَ أحدَهم عَلى أن يخرجَ في المنطق عَن الحيوانيَّةِ والناطِقيَّةِ، وفي النّحْوَ عن «ضَرَبَ زيدٌ عَمرًا»، و«قَتَلَ خالدٌ بَكرًا»، وفي البيانِ عَن تشبيهِ زَيدٍ بالبَدر، واستِعارَةِ الأظافِرِ للمَنيَّةِ، وفي الصَّرْفِ عَن «فَعْلَلَ وافْعَوْعَلَ»، لوجدتَ في نفسِه مِنَ الجهدِ والمشقَّةِ، وفي لسانِهِ مِنَ العيِّ والحصْرِ ما يُحزِنُكَ على أعوامٍ طوالٍ قضَاها بينَ المحابر والدفاتِر، ثم لَم يحصُلْ مِن بعدِها عَلى طائِلٍ. عَلَام يتعلَّمُ الطالبُ النحوَ والصرفَ إن عَجزَ عَن أن يقرأَ صَحيحًا كلَّ كتابٍ وكلَّ صحيفةٍ؟! وعَلامَ يتعلَّمُ عُلومَ البلاغَةِ إن عَجزَ عَن معرفَةِ أسرار الكلام، وأوجُهِ بلاغَتِهِ وفَهْمِ المرادِ من مختَلفاتِ أساليبه، وعَنِ الإبانَةِ عَمَّا يدورُ في نفسِه إبانَةً واضِحَة لا يشوبُها قَلَقٌ ولا اضطِرابٌ؟! وعَلامَ يتعلَّمُ المنطقَ إن عَجزَ عَن التمييز بينَ فاسِدِ القَضايا وصَحيحها في كلِّ ما يعرِضُ عليه مِنها، وإن لَم يكُن الموضوعُ الإنسانَ، والمحمولُ الحيوانَ الناطق؟!

عجيبٌ جدًّا أن يفهَمَ الصانِعُ الأُمِّيُّ أن العِلمَ للعَمل، فلا يتعلَّمُ النجارةَ إلا ليصنعَ الأبوابَ والصناديقَ، ولا الحِدادَةَ إلا لصنعَ الأقفالَ والمفاتيح، وأن يجهلَ المتعلمُ هذه القضيةَ الضروريَّةَ، فلا يهمُّهُ مِن العلم إلا الاستِكثارُ من المعلوماتِ والقَواعِد، وإن عَجزَ بعدَ ذلكَ عَن التصرُّفِ فيها، والانتفاعِ بها في مَواطِنِها.

ما دامتَ مدرسةُ الأزهر على هذهِ الحالِ من أسلوب التعليم العقيم، فليسَ بمقدور لها في مُستقبلِ الأيام أن ينبغَ منها العلماءُ الذين تستطيعُ أن تنتفعَ بهم الأمةُ انتفاعَ أمثالِها بأمثالهم في مشارقِ الأرض ومغاربها. فَوَيْلٌ للعِلمِ مِنَ العُلَماء.

أبو الشمقمق[١]

إن كَثيرًا منَ الفقراءِ لم تمتدَّ يدُ الفقر إلى رُءوسِهم، كما امتدَّتْ إلى جُيوبُهم، فهُم يُدركُون كما يدركُ الأغنياءُ، ويفهَمونَ كما يَفهَمُون. وكما أنّ في أغنياءِ الجيوبِ فُقراءَ الرءوسِ، كذلك في فُقراءِ الجيوبِ أغنياءُ الرُّءوس.

ولقد جلستُ في منزلي صبيحةَ يوم مَعَ قوم منَ الماديِّينَ الذاهبينَ الذينَ ملأَ المالُ فراغَ أذهانهم حتى أنساهُم كلَّ شيءٍ وأنساهُمَ أنفسَهم قبلَ ذلكَ، فأخذُوا يتَجاذَبُونَ أسلاكَ الأحاديثِ الذهبيَّةِ ما بينَ تاجر يُعجَبُ بصَفقَتِهِ الرابحَةِ، وزارع يفخرُ بقِلَّةِ ما أعطَى وكثرةِ ما أخَذَ، وآخرَ يعلِّلُ نفسَه بكثرةِ الغلَّاتِ وارتفاع الأسعار. والكلُّ متفقونَ على أن السعادةَ التي أظلَّتهُم أجنِحَتُها في هذا العهدِ الأخير، عهدِ العدلِ والإنصافِ، عهدِ الحريَّةِ والمساواة، عهدِ الرقيِّ والعُمران، هيَ أشبَهُ شيءٍ بسعادةِ المتَّقينَ في جَنَّاتِ النَّعيم.

كلُّ هذا وأبو الشمقمق جالسٌ ناحيةً يخرز طَرْفَهُ[٢]، ويهزُّ رأسَهُ، ويصعِّدُ أنفاسَه، ويمضغُ أضراسَه، ويئنُّ من أعماقِ قلبِهِ أنينًا يكادُ يسمَعُ فيه السامعُ قولَ الشاعر:

فيا لكَ بَحرًا لم أجِدْ فِيهِ مَشرَبًا ... علَى أنَّ غَيْرِي وَاجِدٌ فيهِ مَسْبَحًا

فما هو إلا أن قَضَوا لُبانَتَهُم[٣]، منَ الكلام المملُولِ، والحديث المُعاد حتى قامُوا يُطَيِّرونَ الآمالَ وراءَ الأموال. فأشَرْتُ إلى أبي الشمقمق أن يختلفَ ففعل. فسألْته: ما لكَ لم تشتركْ معَنا فيما كُنَّا فيهِ؟! فأجاب: إني أكرهُ الفُضُول في الحديثِ، وقد فرَّقَ المقدارُ بيني وبينَكُم في المالِ، فلا أشترِكُ في المقال، فقلتُ: ألا يُعجبُكَ يا أبا الشمقمق حديثَ النهضةِ الحديثةِ التي نهضَتْها الأُمَّةُ المصريةُ في عهدِها الأخير وأمَنَ فَرْدٌ من أفرادِها، وجزءٌ من أجزاءِ جسمِها؟! فنهوضُها

(١) هو في الأصل رحل أديب من أدباء المولدين، كان شديد الفقر.
(٢) يخرز طرفه: يحركها فتحًا وغلقًا، يقال خرز من رَبَدٍ ومن رَمَدٍ قال الشاعر:
لَــنْ تـدرِكـا خـــرزاتِ أزْ ... بَــد فـأبـكـيـا حـتـى تـفُـودا
(٣) قضوا لبانتهم: انتهوا من كلامهم الممجوج، وهو من المجازات.

نهوضُك، وسقوطُها سقوطُك، والأمةُ - كما تعلَمُ - هي الفردُ المتكرِّرُ والواحِدُ الدائِرُ، فأنتَ الأمةُ والأمةُ أنتَ.

فقال: واللهِ لا أَدري أتكلِّمُني بلسانِ الصوفيةِ، ولستُ بصُوفيٍّ، أم بلُغةِ الفلاسفة، ولا أفهمُ للفَلسَفةِ مَعنىً؟ وكأنكَ تقصدُني بالفردِ المتكرِّر؛ فإن كنتَ تريدُ أنني فردُ متكرِّرُ كثيرُ الأشباهِ والأمثالِ في العوزِ والفاقةِ، وواحِدٌ لا سَنَدَ لي ولا عَضُدَ، ودائرٌ في مدارجِ الطرقِ ومعَابرِ السّبُلِ، فقد أصَبْتَ وأحْسَنْتَ. وإن كنتَ تريدُ معنًى غيرَ ذلكَ، فأنا لا أفهمُ إلا كذلكَ. فهل لكَ أن تُعفِيني منَ الجواب على هذه المُعَمَّياتِ، وتَزِنَ كلامَكَ على مقدارِ عَقلي، وتحدِّثني فيما يتناوُله سَمْعي وبَصَري؟

فقلت: أنا لَم أخرُجْ بكَ عن المألوفِ المعروفِ، ولا أريدُ إلا أنَّ الأُمَّةَ ليسَت في الخارجِ شَيئًا غيرَ أفرادِها، فإذا سعدَتْ أو شقيَتْ فالسُّعداءُ والأشقياءُ أبناؤها. وحسبُكَ أن تَرَى تقدُّمَ الأمةِ المصريةِ في ثَروتها وعُمرانها، وبَذخِها وتَرفِها، وكثرةِ ناطِقِها وصامِتِها[1]، فتسعدَ بسعادتها وتَهنأَ بهَنائِها.

فقال: إنْ لَم تُبيِّنْ لي سَهمي من هذهِ السعادة، ونَصيبي من ذلك الارتقاءِ فلا أُصدِّقُ سعادةً ولا أتصوَّرُ ارتقاءً، وما دُمْتُ أرى أنَّ لي هويةً مستقِلَّةً عَن هويةِ سواي منَ السعداءِ، ويَدًا تقصرُ عمَّا تتناوَلُه أيديهم، وبَطنًا لا يمتليءُ به بطونُهم، وما دمتُ أرَى واحِدًا بينَهم يلبسُ مَعي ردائي الممزَّقَ.. وقَميصي المخرَّقَ.. ويُقاسِمُني هَمِّي.. ويُشاطِرُني فَقري.. فهيهاتَ أن أسعَد بسعادَتهم، وأسرَّ بسُرورهم.. وهيهاتِ أن أفهَم معنَى قولِكَ: أنتَ الأُمَّةُ والأمَّةُ أنتَ.. فقلت: إن الغيثَ إذا نَزَلَ يَسقي الخصيبَ والجديبَ.. والنجدَ والوهدَ[2]، وينتظمُ منَ الأرض الميتَ والحيَّ، فقال: كلُّ سماءٍ فيها هذا الغيثُ إلا سماءُ مصرَ فإني أراه:

كبدرٍ أضاءَ الأرضَ شَرْقًا ومَغربًا ... وموضعُ رِجلي منهُ أَسـوَدُ مُظلِمُ

ما لي وللروضَ الذي لا أَستنشقُ روحَه ورَيحانَهُ.. والقصر الذي لا أدخلُه مالِكًا ولا زائِرًا.. وَهَبْ أن الطُّرُقَ مَفروشَةً بالحرير والديباج.. لا بالحصَى والمَدَر.. فهلَ أبقَى لي الدهرُ مِن حاسَّةِ اللمس شَيئًا فأستطيعَ أن أميِّزَ بينَ خَشِنِ الملمس وناعِمِه،

(١) الناطق: ما له كبد، والصامت: الذهب والفضة قال الشاعر:

فـلا الـمـال يُـخـلـدني صـامـتًـا ... هُـبـلْـتَ ولا نـاطِـقًـا أكـبـدْ

(٢) النجد: المرتفع، والوَهد: المنخفض.

ومُعْوَجِّ الأرض ومُستقيمها؟! وهَبْني إذا مشيتُ خُضتُ في بحر مائج بأنوار الكَهرباءِ، فهلَ يُغني ذلكَ عني شَيئًا؟! وهل يُكونُ نَصيبي مِنه إلا انكِشافَ سَوْأتي ورثاثَةَ حالتي لأعين الناظرينَ؟! ولقَد حُبّبَ إليّ الظلامُ حتى تمنَّيْتُ دوامَه؛ لألبسَ من ثوبه الطبيعيِّ ما يَكفيني مُؤنَةَ الرَّتْق[1] والفَتْق.. والتمزيق والترقيع.. وبعدُ، فما هُو الارتقاءُ الذي تَزعُمُهُ وتَزعَمُ أنه يَعنيني ويَشمُلُني؟ هل تَرَقَّتْ غَرائزُ الإحسانِ في نفوس المحسنين؟ وهل خفقَتْ قلوبُ الأغنياءُ رحمةً بالفقراءِ؟ فقلتُ: نعم.. أمَا تَرى الأموالَ التي يَتَبَرَّعُ بها الأغنياءُ للجمعياتِ الخيريَّة، والتي يُنفقُها المحسنونَ على بناءِ المدارس والمكاتب والمستشفيات؟! فقال: إن هذه التي تُسمِّيها مكارمَ، لا يُسمِّيها أصحابُها إلا مَغارمَ، ألجأَهُم إليها التمَلُّقُ للكُبرَاءِ، وحُبُّ التقرُّب منَ الرؤساءِ، والطمَعُ في الزخرفِ الباطلِ والجاهِ الكاذِبِ.

ما لي وللمدارس والمستشفياتِ، وأنا جَوعانُ خُبز لا جَوعانُ علم.. ولا مَرضَ عِندي إلا مَرَضُ الفاقَةِ[2]، فهلَ أجدُ في المدارسِ خُبزًا أو في المستشفياتِ دواءً كذلكَ الدواءِ الذي وَصَفَهُ أحدُ الأطباءِ الكرماءِ لرَجُل جائع دخَلَ عليهِ وشَكا إليه مَرَضًا فعَرَفَ سِرَّ مَرَضِهِ فأعطاهُ عُلبَةً وكتَبَ على غطائِها «يؤخَذُ منهُ عندَ اللزوم» فلَّما ذَهبَ بها الفقيرُ، وفتحها وَجَدَ فيها عَشرة دَنانير.

أنا رجلٌ ضعيفُ البصر، ضعيفُ القوةِ كما ترى.. فلا قدرَةَ لي عَلَى العمل.. وعندي صبيةٌ صغارٌ ليس بينَهم مَنْ يستطيع عَملًا أو يُحسِنُ صُنعًا. ولقد كانَ لي في الزمن الذي تَذُمُّونَه، والعهدِ الذي تَنقمُونَ عليه، منفسَحٌ عظيمٌ في منازلِ المحسنينَ، وموردٌ نَميرٌ من صَدَقاتهم وهِباتهم، وظِلٌّ ظَليلٌ من تَحنُّنُ الأغنياءِ ورَحمتِهم بالفُقراءِ البائسينَ. أما اليومَ فإني أبيتُ طاوِيًا، وأصبحُ شاكيًا، وأغدُو راجيًا، وأروحُ يائسًا.

وهنا أرسَلَ من جَفْنَيْهِ دَمعَةً ليسَتِ بأوّلِ دمعةٍ أرسَلَها على ردائِهِ، ولكنَّها أحَرُّ من سابقاتِها؛ لأنه لم يَبْكِ في غَيرِ خلوَتِهِ غيرَ هذهِ المرَّةِ.

ثم نَهَضَ ومدَّ يَدَهُ إليَّ مُوَدِّعًا، فمسَحْتُ بيَميني دمعَةً واحِدَةً من دُمُوعِهِ الكثيرات.

---

(١) رَتَقَ الثوب: خاطه وأصلحه.

(٢) الفاقة: الفقر الشديد.

دورة الفلك[1]

أيُّها القصرُ

أينَ الكوكبُ الزاهرُ الذي كان يتنقَّلُ في أبراجِكَ؟! أينَ النَّسرُ الطائرُ الذي كانَ يحلِّقُ في أجوائِكَ؟! أينَ الملكُ القادرُ الذي كان يطلعُ شمسًا في صباحِكَ وبَدرًا في مَسائِكَ؟!

أينَ الأعلامُ والبنودُ تخفُقُ في شُرُفَاتِكَ؟! والقُوَّادُ والجنودُ تخطُرُ في عَرصَاتِكَ[2]؟! أينَ الشفاهُ التي كانت تلثِمُ تُرابَكَ؟! والأفواهُ التي كانت تُقَبِّلُ أعتابَكَ؟! والرءوسُ التي كانت تطرُقُ لهيبَتِكَ؟! والقلبُ التي كانت تخفُقُ لرضوْعَتِكَ؟!

أينَ الصوتُ الذي كان يجلجلُ فيقرعُ أُذُنَ الجوزاءِ[3]؟! ويهدُرُ فتلتفِتُ عيونُ السماءِ؟! أينَ الفَلَكُ الذي كان يدورُ بالسَّعدِ والنَّحسِ، والنَّعيم والبُؤسِ، والرَّفعِ والخَفْضِ، والإبرام والنَّقْضِ؟!

كيفَ استطاعَ الدهرُ أن يَمُدَّ يَدَهُ إلى شَملِكَ فيبدِّدَهُ؟! وجَمْعِكَ فيفرِّقَهُ؟! وسمائِكَ فيُكَوِّرَ شموسَها؟ وأرضِكَ فيزعِجَ أنيسَها؟!

أين كانت أسوارُكَ وأبوابُكَ، وحُرَّاسُكَ وحُجَّابُكَ؟! وكيفَ عَجَزْتَ أن تمتَنِعَ عَلى القضاءِ؟! وتَصُدَّ عن نفسِكَ عاديةَ البَلاءِ؟!

ولَم أرَ مثلَ القَصْرِ إذْ رِيعَ سِربُهُ   وإذَا ذُعِــرَتْ أطْــلاؤهُ وجَــآذِرُهْ
تحمَّلُ عنهُ ســاكِـنُوهُ وهُتِّكَتْ   على عَجَلٍ أســتــارُهُ وســتــائِرُهُ

أيها السجن

حَلَ بأرجائِكَ اليومَ مَلِكٌ تَضيقُ بِهِ الدُّنيا، فكيفَ وَسِعْتَهُ؟! وتَعجزُ عن احتِمالِهِ قُلَلُ الجبالِ الرَّواسِي فكيفَ احتَمَلْتَهُ؟! رفْقًا بِهِ لا تُزْعِجْهُ، ولا تُحرجْ صدرَهُ، وَضُمَّ

(١) جاء في طبعة سنة ١٩١٠م أنها كتبت بمناسبة سقوط عبد الحميد.
(٢) العرصة والعرصات: أرض الدار وساحتها، والمراد بها هنا الساحات في المعارك أو قصر السلطان عبد الحميد.
(٣) الجوزاء: الفضاء الواسع.

جانحتَكَ عَليه كما تَضُمُّ على القلب حَنايا الضلوع، واعطِفْ عليهِ عَطْفَ المرضعات على الرضيع، وارحَمْ هَذا الجلالَ الذاهِبَ، والعِزَّ الزائِلَ، والرَّأس الذي بَيَّضَتْهُ حوادِثُ الدهور، والظهرَ الذي قوَّسَتْهُ أيدي المقدُورِ.

أيها الدهر

ألا تستطيعُ أن تنامَ عَن الإنسانِ لحظةً واحِدَةً؟ ألا تستطيعُ أن تسقيهُ كأسَ السُّرورِ خالصَةً، لا يمازِجُها كَدَرٌ، ولا يَشوبُها عَناءٌ؟

إن كنتَ تريدُ أن تَسْلُبَهُ فَلِمَ أعطيْتَهُ؟! وإن كنتَ تريدُ أن تعطِيهُ فَلِمَ سَلَبْتَهُ؟! كانَ خَيرًا لهُ أن لا تُعطِيَهُ حتَّى لا تَفْجَعَهُ في تلكَ العَطِيَّةِ، وأن لا تسقِيهُ كأسَ السرورِ حتى لا يتجرَّعَ ذلكَ السمَّ الذي أودَعْتَهُ تلكَ الكأسَ.

أيها الرجُل المودِّع

كان ارتفاعُكَ عَظيمًا، فَوَجَبَ أن يكونَ سُقوطُكَ عظيمًا.

إنكَ ذُقْتَ حلاوَةَ الحياةِ خالِصَةً، فلَّما ذُقتَ مرارَتها جَزَعْتَ وقطَّبْتَ كما يجزعُ ويُقطِّبُ كلُّ مَنْ ذَاقَ مِنَ الشراب ما لا عَهْدَ لهُ بهِ ولا قِبَلَ لهُ باحتمالِهِ.

لا تأسُ على ما فَاتَك، فإنما كانَ وديعةً مِن ودائعَ الدهر، أعارَكها برهةً مِنَ الزمانِ، ثم استرَدَّها.

إنك لا تدري، لعلَّ الله أرادَ بكَ: خَيرًا فمنحَكَ قبلَ حُلولِ أجَلِكَ فرصةً مِنَ الزمانِ تخلُو فيها بنفسكَ، وتراجعُ فيها فهرسَ أعمالِكَ، فإنْ رأيتَ خَيرًا اغتبطتَ، أو شَرًّا استغْفَرْتَ.

قَضى الله أن يقيمَ في كلِّ حين لهذا العالمَ الغافِلَ عِبرَةً مِنَ العِبَرَ تُزعِجُهُ من رَقدَتِهِ، وتُوقِظُهُ من غَفلَتِه، فكنتَ أنتَ عِبرَةَ هذا الدهر ومَوْعِظَتَهُ.

مَنْ بَاتَ بَعْدَكَ في مُلْكٍ يُسَرُّ بِهِ ... فَإنَّما بَـاتَ بِـالأحْـلَامِ مَـغْـرُورَا

obeikandl.com

تأبين فولتير

في ٣ مايو ١٨٧٨ م احتفلت فرنسا بتذكار مرور مائةِ سنةَ على وفاةِ فولتير، ودُعيَ فكتور هوجو فألقى في الحفلةِ في باريس خطبةَ التأبين(١).

في مثل هذا اليوم – منذُ مائةِ سنةِ – ماتَ الرجُلِ العظيم، ماتَ الرجُلُ الخالد، ماتَ فولتير بعدَ أن احدَوْدَبَ ظهرُه تحتَ أثقالِ السنينَ الطِوال، وأثقالِ جَلائلِ الأعمال، وأثقالِ الأمانَةِ العظيمَةِ التي عُرِضَتْ على السماوات والأرضَ فأَبَيْنَ أن يَحْمِلْنَهَا وحملها الإنسان وحدَه، وهي تهذيبُ السريرةِ الإنسانيةِ، فهذَّبها فاستنارَتْ فاستقامَ أمرُها.

ماتَ فولتير مَرذولًا محبوبًا في آنٍ واحِدٍ. يبغضُه الماضي؛ لأنه يجهلُهُ ويحبُّهُ المستقبلُ لأنه عَرَفَهُ.

أيها القومُ إن في هاتين العاطفتَيْن – البغض والحبِّ – سِرًّا عَظيمًا من أسرارِ المجدِ العظيم لذلكَ الرجُلِ العظيم.

كانَ وهو على سَرير الموتِ مُحاطًا بعاطفتَيْن مُختلفتَيْن شكلًا، مُتَّفِقَتَيْن جَوًّا وحَقيقةً؛ لأنهما جَميعًا في سبيل مجدِهِ وفَخارهِ. كانَ ينظرُ أمامَهُ فيسرُّهُ منظرُ التَبجيل والتَّعظيم من حَاضِرِهِ ومُستقبَلِه. ويلتفتُ وراءَهَ فيُطربُهُ به مثُل البغض والازدراءِ والحقدِ الَّذي يَكنُّه الماضي في صدرهِ لأولئكِ الرِّجالِ البَواسِلِ الذين قاتَلوهُ فانتَصروا عَليه.

كان فولتير رجُلًا وأكبر من رجُل، كان وحدَه أُمَّةً كاملةً، إنه عاهَدَ نفسَهَ على إنجاز عمل فأنجزَهُ ولم تخلفْ وَعدَه. وكأنَّ الإرادةَ الإلهيَّةَ المتجلِّيةَ في الشرائع تَجَلِّيها في الصنائع، بَعثَرَتْ كنانةَ هذا المجتمع الإنساني وعَجَمَتْ عيدانَهُ، فوجّدَتْ فولتير أَصلبَها عُودًا، فانتَدَبَتْهُ للقيام بالعملِ الذي قامَ به فأَتَمَّهُ.

***

(١) جاء في طبعة ١٩١٠م أنها ترجمة خطبة خطبها «فيكتور هيوجو» في باريس في حفلة تأبين «فولتير» الفيلسوف المشهور سنة ١٨٧٨م بعد مرور قرن على وفاته مع بعض التصرف.

سلخَ هذا الرجلُ أربعةً وثمانينَ حولًا كانت مِلءَ الفضاءِ الكائنِ بينَ مَغربِ الشَّمسِ ومَشرقِها، بينَ غُروبِ المَلَكيَّةِ وشُروقِ الثَّورَةِ. وُلدَ في عهدِ لويس الرابعَ عَشَرَ وماتَ بعدَ انقضاءِ مُلكِ لويس السادسَ عشرَ. أشرَقَ على مَهدِهِ الشُّعاعُ الأخيرُ من أشِعَّةِ العرشِ العظيمِ، وعلى نَعشِهِ الشعاعَ الأوَّلَ من أشعَّةِ الهاوِيَةِ العَظيمةِ.

كيفَ تكونُ للهاويَةِ أشعَّةٌ؟! أجل إن في الكونِ هُوًى طيبَةً مباركَةً وهي التي تجذبُ الشرَّ إليه وتطويه في جَوْفِها.

الآنَ أَمضي في بَياني، فقد شرحتُ الكلمةَ الغامضَةَ، وما كنتُ لأمضِيَ قبلَ أن أشرَحَها لأننا ما اجتمَعنا هُنا إلا لننطِقَ بالصَّوابِ من القولِ، والرائعِ مِنَ الحكمةِ.

إنَّا أتَيْنا هنا لفَصلِ الخطابِ في المسألَةِ الاجتماعِيَّةِ، جِئْنا؛ لنرفَعَ شأنَ المدنِيَّةِ ونُكْرِمَ الفلسفةَ إكرامًا ينفعُها ويَفيدُها، جِئنا؛ لنتلُوَ على القرنِ الثامنَ عَشَرَ رأيَ القرنِ التاسعَ عَشَرَ فيه، جئنا؛ لنُكرِمَ المجاهدينَ والعامِلينَ المخلصين، اجتَمعْنا؛ لنُمَهِّدَ الطريقَ للوَحدةِ الإنسانيةِ التي يسعَى إليها العلماءُ والعاملونَ، والصنَّاعُ المُجِدُّون. وجملةُ القولِ إنَّا ما اجتمَعْنا هُنَا إلا لِنُمَجِّدَ العاطفةَ الشريفةَ الساميةَ، عاطِفَةَ السلامِ العامَ.

إنَّا نمجِّدُ السلامَ حُبًّا في المدنيَّةِ وحِرْصًا على رَوْنَقِها ورُوائِها فإنَّ السلامَ فضيلةُ المدنِيَّةِ، والحربَ رذيلتُها.

***

نحنُ، في هذه اللَّمحةِ الكبيرةِ في هَذا الموقِفِ المُهيبِ، نَجثوا على الركبِ ونُعفِّرُ جباهَنا بين يَدي الشريعةِ الأدبيةِ، ونقُولُ للعالَمِ الذي يَنْصِتُ لسماعِ صَوتِ فرنسا «لا قوَّةَ إلا قوَّةُ الضميرِ، وَلَا مَجْدَ إلا مَجْدُ الذكاءِ». ذلكَ في سبيلِ العدلِ، وهذا في سبيلِ الحقِّ.

أيها القوم

لقدكانَ شأنُ المجتمعِ الإنسانيِّ قبلَ الثورةِ على هَذَا المثالِ: الشعبُ في المنزلةِ الدُّنيا، وفوقَ الشعبِ الدينُ والقضاءُ. هذا يمثِّلُهُ القضاء، وذاكَ يمثِّلُهُ الأكليروس.

أتدرونَ كيفَ كانَ الشعبُ، وكيف كانَ الدينُ والقضاءَ في ذلكَ العهدِ؟! كانَ الشعبَ جَهْلًا، والدينُ رِياءً، والقضاءُ ظُلمًا. إن كنتمُ في شكٍّ مما أقولُ فإنِي أقصُّ عليكُم حادثتَيْن من حوادِثِ ذلكَ التاريخِ أرى فيهما غِناءً ومَقنَعًا للحائرِ المتردِّدِ.

في ١٣ أكتوبر سنة ١٧٦١م وُجد شابٌّ مَشنوقًا في الطبقةِ الأرضيّة من بيتٍ في مدينة طولوز، فهاجَ الشعبُ ولَغَطَ الأكليروس، وبحثَ القُضاةُ، فكانتِ النتيجةُ أن كانَ الشابُّ مُنتَحِرًا فَسُمِّي قتيلًا، ووالدُه بَريئًا فَسُمِّي قَاتِلًا.

هكذا أرادَ الدينُ وأرادَتْ مصلحتُه أن يَهلكَ والدُ الفتَى؛ لأنهُ كان بروتستانتيًّا، وكان يمانعُ فتَاهُ أن يتمَذْهَبَ بالكَثلَكَة. إنها لجنايَةٌ فَظيعَةٌ جدًّا يُنكِرُها الدينُ ويُحيلها العقلُ، ولكنْ هانَ عَليها أمرُها ولمَ يحفِلوا بالشريعَتْين، فحَكَموا أنَّ الشيخَ الكبيرَ قتَلَ وَلَدَهُ الصَّغِيرَ.

هكذا قَضَى القضاءُ، وهكذا كانتِ النتيجةُ فاستَمِعُوها.

***

في شهر مارس سنة ١٧٦٢م سِيقَ إلى الميدانِ العامِّ شيخٌ أبيضُ الشعَّر، هو جان كالاس، ثم جُرِّدَ من ثيابِه، وطُرِحَ على دولابِ العذابِ، وشُدَّتْ به أطرافُهُ، وتركُوا رأسَه مُتَدَلِّيًا.

ثلاثةُ رجالٍ تلوَّثَتْ أيديهم بدَم القَتْل؛ كاهِنٌ يحمِلُ الصليبَ، وجَلَّادٌ يحمِلَ القَضيبَ، وقاضٍ اسمُه داودُ يحملُ في صَدرِه عهدَ القوم إليه بالتنكيلِ والتعذيب.

لم يكن الشيخُ المسكينُ، وقد شَقَّ الخوفُ مرارَتَهُ وتمشَّى قلبُه في صدرِهِ، لِيَنْظُرَ إلى الصليبِ في يَدِ الكاهِنِ، بل إلى القَضيبِ في يَدِ الجلَّادَ.

***

رفع الجلادُ القضيبَ وضرَبَ ذراعَ الشيخَ ضربَةً كاسِرَةً صاحَ على أثَرِها صيحَةً مُؤلِمَةً، ثم أُغْمِيَ عليه. فتقَدَّمَ القاضِي الرحيمُ وأمرَ له بالمُنَبِّهاتِ، فانتعَشَ وأفاقَ، فضرَبَهُ الجلَّادُ الضربَةَ الأخرى فوقَ الذِّراعَ الأُخرى، فعادَ إلى صرخَتِهِ وإغمائِهِ، وعادُوا إلى تَنبيهِ وإنعاشِهِ حتى تَمَّ لكلِّ ذِراعٍ من ذِراعَيْهِ ضَربتانِ وكِسْرانِ؛ فكأنما قتلُوه قبلَ مَوْتِهِ ثماني مرَّات.

في الإغماء الثامِن بعدَ مرور ساعتَيْن من العذاب، تقدَّمَ الكاهنُ ومَدَّ إليه الصليبَ ليقبِّلَهُ، فحوَّلَ وجهَه عنهُ، فأقبَلَ الجلَّادُ وسَدَّدَ إلى صَدرِه الطرَفَ الغليظَ من القضيب الحديد، وضَرَبَهُ ضربةً ألصَقَتْ صدرَه بظهرِه فكانَتِ القاضِيَةَ.

على هذه الصورة ماتَ جان كالاس.

وما هي أيامٌ قلائِلُ حتى عرفَ الناسُ أن الفتى ماتَ مُنتَحِرًا لا مَقتولًا،فحكمُوا ببراءَةِ الشيخ بعدَ أنْ نَفَذَ فيهِ سَهْمُ القضاءِ. وماذا يَعنيهِ بعَدَ الموتِ، أماتَ ظالمًا أم مَظلومًا؟!

لم يَجْنِ الشيخُ على الفتى، وجَنَى على الشيخِ القضاءُ.

أما الحادثَةُ الأُخرى فهي عِبرَةُ الشباب كما كانتِ الأولى مَوْعِظَةَ الشيَّخوخّة.

بعدَ مضي ثلاثِ سنينَ من تاريخ الحادثَةِ الأولى وَجَدُوا في «إيفل» صَليبًا عَتيقًا، أكَلَ السُّوسُ أحشاءَهُ حتى عافَ البقاءَ فيه، مُطَّرحًا فوقَ الجسرِ بعد أن عاشَ فوق السُّورَ ثلاثَةَ قُرونٍ، وكان ذلكَ في لَيلَةٍ عاصِفَةٍ.

مَنْ أَلْقَى بِهِ من أعلى السُّورِ؟! مَنْ أهانَهُ؟!مَنْ ذَا الذي دَنَّسَ هذا الأثَرَ المقدَّس؟! مَنْ ذَا الذي أجرَمَ هذا الجُرْمَ العَظيمِ؟! ربَّما عَصَفَتْ بِهِ ريحٌ، أو عَبَثَ به عابرُ طريق، أو هَوَى به ضُعفُ الشيخوخَةِ وإعياءُ الهَرَم. وعلى كلِّ حالٍ لم يُعرَفِ المجرمُ. ولكنْ أبَى الدينُ إلا أن يُوجَدَ مُجرمًا. هنالكَ أعلن مطران أميان براءَةً مِن غُفرانِ الله ورحمتِهِ لكلِّ مَن عَلِمَ أو ظنَّ أنه عَلِمَ شَيئًا عن هذه الحادثةِ فكَتَمَهُ.

***

إن الحِرمانَ في الكَثلَكةِ جريمةٌ هَائِلَةٌ فظيعةٌ قاتلةٌ متى أوحَى بِهِ التعصُّب الذميم إلى الجهلِ العَظيم.

كانَ هذا الحِرمانُ سَببًا في أنَّ القضاءَ عَرَفَ، أو ظَنَّ أنه عَرَفَ أن ضابطيْنِ؛ اسمُ إحداهما لبار والآخر ديتالون، مرَّا على جسر إيفل في تلكَ الليلةِ المشئومَةِ يترنَّحانَ سَكرًا وينشدانَ نَشيدًا عَسَكريًّا. مرَّا بالجسر وأنشدا النشيدَ فهُما المُجرمان. وكانتِ المحكمةُ تُقدِّسُ إيفل، ولم تكُن بأقَلِّ عَدْلًا وإنصافًا من مجلس الكابيتول في طولوز، فأمرَتْ بالقَبْضِ على الرجُليْنَ فاختَفَى ديتالون وقُبِضَ على لابار، وأُسلِمَ إلى القضاءِ، فاعترَفَ بالنشيدِ وأنكَرَ المرورَ على الجسرِ. فحكمَتْ عليه محكمةُ إيفل بالإعدام، وأيَّدَ حُكمَها برلمان باريس، فدَنَتِ الساعةُ المخيفةُ الهائلة. لقد تفنَّنوا في تعذيب الشيفاليه دي لابار وإرهاقِهِ؛ ليَكشِفوا عن سِرِّ فعْلَتِهِ وعَنْ شركائِهِ في جَريمَتِهِ، أي جريمةِ المرورِ على الجسرِ وإنشادِ النشيد. لقد عذَّبوه عَذَابًا أليمًا حتَّى أنَّ الكاهِنَ الذي جِيءَ بهِ؛ ليسمَعَ اعترافَهُ أُغمِيَ عليه حينَما سمعَ قرقَعَةَ عِظَامِ رُكبَتَيْهِ.

مَضَى هذا اليومُ، وجاءَ اليومِ الثاني وهو يوم من يونيو سنة ١٧٦٦م. وجيءَ بالشابِّ المظلوم إلى ساحَةِ إيفل الكُبرى حيث تَشتَمِلُ نارُ العذابَ وتَضطرمُ اضطرامًا، فأسمَعُوهَ نَصَّ الحُكم، ثم بَتروا يدَه، ثم استَلُّوا لسانَهُ بقابضَ من الحديد فَاسْتَأْصَلوه. ولكنَّهم رَحِمُوهُ بعدَ ذلكَ فقَطَعُوا رأسَه وألْقوا بها في النارِ.

***

على هذه الصورةِ مات الشيفاليه دي لابار كمَا من قبلِهِ جان لاكاس.

أحزنَكَ هذا المنظرُ يا فولتير، وَآلَمَ نفسَك، وملَكَ عليك شعورَكَ وَوجدانَكَ، فصِحْتَ صيحةَ الرُّعب والجزَع، فكانتِ تلك الصيحةُ الحَجَرَ الأولَ في بناءِ مجدِك العظيم الخالد.

هنالِكِ انبعثَتْ نفسُك إلى النزولِ في ميدانِ المجتمع الإنسانيِّ؛ لتكفَ عاديَةَ الظالمينَ، وتُقَلِّم أظفارَ الوحوش الضاريةِ، وجلستَ في مِنصَّةِ القضاءِ؛ لتُحاكِمَ الماضِيَ على جَرَائِمِهِ وتَنْتَصِفَ منهُ للمستقبَل، فانتصَفْتَ وانتصَرْتَ وكنتَ مِنَ المحسنين.

***

أيها الرجل العظيم

طبتَ حَيًّا ومَيْتًا.

حدثَت تلكَ الحوادثُ التي ذكرتُها على مشهدٍ منَ المجتمع المهذَّبِ الراقي، ومن حَياةٍ حافلَةٍ بالسعادَةِ مُغتبطَةٍ بالهناءِ، يَغدُو إليها الإنسانُ لاهيًا، ويرَوحُ سَاهِيًا، لا يرفَعُ رأسَه فيعلَمُ ما فوقَهُ، ولا يُخفضُها فيدري ما تحتَه.

حدثَ ذلكَ وأيامُ البلاطِ أعيادٌ، و"فرساي" تتلألأ حُسنًا وبَهاءً وَرَونقًا وماءَ، وظرفاءُ الشعراءِ، مثل سان أولاير، ونوفلير، وجنتيل برنار، لاهُون بالغزَلِ الرقيقِ والوَصْفِ الجميلِ.

***

حدثَ ذلك وباريس تتجاهَلُ ما يجري حولَها، فاستَطَاعَ القضاءَ الظالمُ بمساعَدَةِ القسوةِ الدينيَّةِ أن يمثِّلَ بالشيخ ذلك التمثيلَ الفَظيعَ بذلكَ القَضيبِ الحَديدِ، وأن يستَلَّ لسانَ الفَتَى؛ لأنه أنشَدَ الأناشيد.

كان المجتمعُ في ذلك التاريخ مُؤلَّفًا من قُوًى عظيمةٍ هَائِلَةٍ: قوَّة البلاطِ، وقوَّةِ الأشرافِ، وقوَّةِ المالِ، قوَّةِ الشعب المائج المندفع، وقوَّةِ الحكومة التي كانت أسَدًا على الرَّعِيَّةِ، نعامةً بين يدعي الملكِ تجثُو أمامَه خاضِعَةً صاغِرَةً إلا أن جثيَها كان على جُثَّةِ الشعب، وقوَّةِ الأكليروس المؤلَّفَ من الرِّياءِ الكاذِبِ والتعصُّب الأعمى.

تقدَّم فولتير وحدَه وأثار حَرْبًا عَوانًا[1] على هذا العالَمَ القَويِّ المخيفِ، ولم يَرَهُ أكبر مِن أن ينخَذِلَ، ولم يَرَ نفسَه أصغَرَ مِن أن ينتَصَرَ.

أتدري ما كان سلاحُه؟! ما كان له سِلاحٌ غيرُ تلكَ الأداةِ التي تُجاري العاصِفَةَ في هُبوبها وتسبقُ الصَّاعِقَة في انقضاضِها، ما كان له سلاحٌ غيرُ القَلَمِ فبالقَلَمِ حارَبَ، وبالقَلَمِ انتَصَرَ.

***

انتصَرَ فولتير. فولتير وقفَ وحده تلك المواقِفَ المشهودَةَ. فولتير أدارَ وحده رَحى تلكَ الحروبِ الهائِلَةِ: حربِ العلم والجهل، والعَدل والظُّلم، العقلِ والهَوَى، الصَّلاح والفسادِ، فتَمَّ على يدَيْهِ الغلَبَة للخَير على الشَرِّ وفازَ فوْزًا مُبينًا.

كان فولتير قَلبًا وعَقْلًا، كان له رقَّةُ الفتاةِ في غِلالَتِها[2]، وشدَّةُ البَطَل في شِكَّتِه[3].

فولتير مَحا الخرافاتِ الدينيَّةِ، والعاداتِ الفاسِدَةَ، وأرْغَمَ أنْفَ الكبرياءِ، وأذَلَّ عِزَّ الرؤساءِ، ورفَعَ السوقي إلى حيثُ لا يَصِلُ إليه ظُلمُ القاضي ولا تَنطُّعُ الكاهنِ.

وعلَّمَ ومَدَّنَ وهَذَّبَ، ولقي في سبيلِ ذلكَ منَ الشَّدائِدِ والمِحَنِ والنَّفْي والقهر ما يكسرُ سُورةَ النَّفس. فلم تَنْكسِرْ سورتُهُ، ولم تَفْتَرْ عزيمتُهُ، بل كان يَلَقى الاستبدادَ بالسُّخْرِيَةِ، والغَضَبَ بالاستخفافِ، والقوَّةَ القاهِرَةَ بالابتسامَةِ المؤثِّرَةِ.

أقفُ هنا قليلًا إجلالًا لابتسامَةِ فولتير.

***

فولتير هو الابتِسامَةُ، والابتِسامَةُ هي فولتير. أفضلُ مزايا الرجُل الحكيم أن يملِكَ نفسَه عندَ الغضَبِ، وكذلك كان فولتير، كان عقلُه ميزانَ أعمالِه، فما غَلَبَهُ حتى الغَضَبُ للحقِّ. كنتَ تراهُ عابِسًا مُقطِّبًا فما هي إلا كَرَّةُ الطَّرْفِ أن تَرَى فولتير الضاحِكَ المتبَسِّمَ

(١) حربًا شديدة لا هوانة فيها.
(٢) الغلالة: شعار يُلبَس تحت الثوب.
(٣) الشكيَّة: السلاح وقوة الشكيمة.

في مكانِ فولتير العابس المقطِّب، يكادُ يكونُ ابتسامُهُ ضَحِكًا لولا حزنُ الحكيم وهَمُّ العاقل. كان ابتسامُهُ كبارقَةِ السيفِ يَرتاعُ لها الأعداءُ ويَرتاحُ لها الأولياءُ. كان يبسمُ للقويِّ فيُخجلُهُ بتيههِ واستخفافِه، وللضعيفِ فيسرُّه بتحنُّنِه وانعطافِه. فلْنُمَجِّدْ ذلك الابتسامَ الذي كانتَ أشِعَّتُهُ كأشعَّةِ الفجر تَمحُو الظلامَ وتبعَثُ الأضواء. نِعْمَ الابتسامُ ابتسامٌ أنارَ الطريقَ للعَدْلِ والحقِّ والصَّلاح، وكَشَفَ عَن ظلماتِ التقليد.

***

إن ابتسامَةَ فولتير أنشأت هذهِ الهيئةَ الاجتماعيّةَ الجديدةَ، وزيَّنتْها بالإخاءِ والمَوَدَّةِ والحَرِّيَةِ والمَساوَاة، فنالَ العقلُ منزِلَتَهُ من الإجلالِ والإعظام، سواءٌ أسكنَ القصرَ الكبيرَ أم الكوخَ الحقير. ولَبسَ المعلِّمُ تاجَ المُلْكِ فتصرَّفَ في العقائِدِ الباطِلَةِ والعاداتِ الفاسِدَةِ والخُرافاتِ الدينيَّةِ تَصرُّفَ الحاكم القدير. ونَشَرَ السَّلامُ أجنَحَتَهُ البيضاءَ على المجتمع الإنساني فقَرَّتِ(١) السيوفُ في الأغمادِ،وهدأتِ الدماءُ في العروقِ، والأرواحُ في الأجسام.

كلُّ ذلكَ بفضْل ابتسامَةِ فولتير. ولسَوْفَ يأتي ذلكَ اليومُ العظيمُ، يومُ الرحمةِ بالضعفاءِ والعَفْوِ عن الخاطئين، فَيَبْتَسِمُ فولتير في السماءِ ابتسامَةً تتلألأُ بينَ لآلىءِ النجوم. فَلْنُمَجِّدِ ابتِسامَةَ فولتير كلَّ التمجيد، ولْنُكبِرْها كلَّ الإكبار.

***

أيها القوم

إن بينَ المصلحِ الأولِ والمُصلحِ الثاني سِرًّا خَفيًّا واتِّصالًا عَجيبًا وإن كان بينَ عصرَيْهما ثمانيةَ عَشَرَ قَرْنًا.

إن قتالَ الفرنسيين، ورَفْعَ الستار عن الدَّسَائس، وإرغامَ أَنْفِ الظُّلْم والكَذِب، وهَدْمَ الهيكل لتجديدِ بنائِهِ - أي إصلاح الفاسِدِ - والانقِضَاضَ على القضاءِ المستَبِدِّ والكهنوتِ السَّفَاح، وطَرْدَ الصرَّافِينَ من بيتِ المقدس بالسِّياطِ، وإعادةَ الميراثِ للمحرومينَ منهُ، والرِّفْقَ بالضعيفِ والعاجز، وتعَزيةَ اليائِس والمحزُونِ، ومساعَدَةَ المظلوم والمقهور، كلُّ ذلكَ كان جهادَ المسيحِ بالأمسِ وهوَ أشبَهُ شيءٍ بجهادِ فُولتير اليوم.

(١) قرَّت السيوف: استقرت ودخلت في جرابها.

إن الفلسفةَ ساعَدتِ الإنجيل. إن اللُّطف أتمَّ ما بدأَتَ به الرَّأفَةَ. وتبسَّمَ فُولتير، ومِن تلكَ الدُّموعِ وذلكَ الابتسامِ تألَّق جمالُ المدنيَّةِ الحديثة.

هل كانَ فولتير يحلمُ دائمًا فلا يستخفُّ حلمَهُ الغَضَبُ؟! كلا. بل كانَ يغضَبُ أحيانًا في سبيلِ الحقِّ.

***

أنا لا أُنكِرُ أنَّ التوسُّطَ وحفظَ الموازَنَة بين الأخلاقِ هو القانونُ العقليُّ للإنسانِ حتى لا تَهبطَ به كَفَّةٌ وتعلُوَ به أُخرى، وحتى لا يهلِكَ بين عاطِفَتَي الحبِّ والبُغض. ولا أُنكِرُ أنَّ الفلسفةَ هي الاعتِدالُ، وإظهارُ الحقائقِ واضِحَةً بينَ مؤلَّفاتِ الأعمالِ والأقوال، ولكنْ أرَى أنَّ حُبَّ الحقِّ يجبُ أن يكونَ في مَرتَبةِ الغُلُوِّ حتى تَهُبَّ عاطفتُهُ هُبوبَ العاصِفَةِ فتذهَبَ بالأَقْذاءِ والأقذار.

***

يعيشُ المرءُ بينَ سعادتَيْن من حاضِرهِ ومُستَقبَلِه. أمَّا الأُولى فيكفُلُها العدلُ، وأمَّا الثانيةُ فيحرسُها الرجاءُ والأملُ؛ لذلك يحبُّ الناسُ القاضيَ العادلَ، والكاهنَ الصالحَ؛ لأن الأولَ صورةُ العدلِ والثاني مثالُ الرجاء. فإذا انقلَبَ العَدلُ ظُلمًا، والأملُ يأسًا، عافاهُما الإنسانُ ولوَى وجهَه عنهُما وقال للقاضي: لا أحِبُّ قانونَكَ، وللكاهن: لا أعتقِدُ بدْعَتَكَ. وهناكَ يهُبُّ الفيلسوفُ الغيورُ غاضبًا فيُحاكِمُ القضاءَ أمامَ العَدلِ، والكهنوتَ أمام الله، كذلكَ فعلَ فولتير فكانَ منَ المُحسنينَ.

***

أيها القوم

صوَّرتُ لكُم فولتير كما هُو، والآنَ أصوِّرُ لكُم عصرَ فولتير.

إن الرجُلَ العظيمَ لا يظهرُ في المجتمع وَحيدًا إلا قَليلًا، وكلَّما كَثُرَ العُظماءُ حولَه ارتفَعَ شأنُه وعَلَا ذِكرُه؛ فهو كالشجرةِ تكونُ في نَظَرَ الناظر أطولَ في الغابَةِ الشجراءِ مِنها في التربَةِ الجرداء؛ لأنها تكونُ في مَنْبَتِهَا ومُستَقَرِّها، وكانَ فولتير في غابةٍ منَ العُقول الكَبيرة: روسو[1]، وديدرو أولًا، ثم بوفون وبومارشيه ومونتسكيو. أولئك

---

(١) روسو، هو «جان جاك روسو» المتوفي سنة ١٧٧٨م وهو صاحب «العقد الاجتماعي»، وقد أخرجته مكتبة ابن سينا بترجمة العلامة عادل زعيتر، وتقديمنا.

القومُ المُفكِّرونَ علَّمُوا الناسَ النظرَ في حقائِق الأشياءِ والتفكُّرَ المُوصِلَ إلى إتْقَانِ الأعمالِ، وعَلَّموهم أنَّ صلاحَ القلبِ أثرٌ من آثارِ صلاحِ العقلِ، فأجادُوا وأفادوا.

وضَعَ بوفون أساس العَلم بطبائع الكائناتِ، واكتَشَفَ نَوْعًا من الكُوميديا الاجتماعيَّةِ كان لم يَزَلْ مجهولًا بعضَ الجهل إلى ذلكَ التاريخ. واهتَدَى مُونتسكيو إلى أسرار الشرائع فأحيا بإحيائِها الحقَّ الدفين.

***

أما روسو وديدرو فلَهُما الشأنُ الأعْلَى والمقامُ الأَسْمى.

كان ديدرو شُعلةً متوقِّدَةً من الذكاءِ، كانَ كثيرَ التعمُّقِ والغَوْصِ والتغلغلِ في حقائق الأشياءِ، كانَ رقيقَ القلب، مُحِبًّا للعَدل، مُتَعَطِّشًا إليه، فَبَدا لَهُ أن يَصلَ إلى المبادِئ الساميَةِ الصَّحيحَةِ من طريق الخيالِ فوضَعَ الانسكلوبيديا.

أما روسو فإنه خَدَمَ المرأة خدمَةً جليلةً، وأجمَلُ آثارِه فيها أنه وَحَّدَ الأُمَّ والمُرضِعَ وأنزَلَهُمَا مِنَ مَهْدِ الطِّفلِ مَنزلًا واحِدًا. إن روسو كاتبٌ بَليغٌ، شاعِرٌ في كتابَتِهِ، مؤثِّرٌ على الوجداناتِ، يعرفُ كيفَ يلمسُها فيهيجُها. طارَ بأجنِحَةِ الخيالِ في جَوِّ السياسةِ حتى لَمَسَ بيدِه حَقائِقَها. لهُ فضلُ السَّبَق على كلِّ مَنْ هَتَفَ باسم الوطن. كان قلبُ روسو أضيَقَ مِيدانًا من فولتير؛ فميدانُ الأول فرنسا، وميدانُ الثاني رقعَةُ الأرض.

ماتَ أولئَكَ القومُ العظامُ، وهَوَت من أُفُقِها كواكبُهم. كانوا جَسَدًا وَرُوحًا، أما الجسَدُ فَقَدْ طواهُ القبرُ، وأما الروحُ فهي الثورةُ التي تَرَكُوها من بَعدِهم.

أجل إن الثورةَ روحُهم والمظهرُ الساطعُ المتلألئُ بحكمَتِهم ومَبادئِهم. همُ في الحقيقةِ إبطالُ الثورةِ المقدَّسَةِ التي هي خاتِمَةُ الماضي وفاتِحَةُ المستقبل. إنكَ تراهُم بعين بَصيرَتكَ في كلِّ مواقِفها وَوَقائِعها. إذا اختَرَقَتْ أشِعَّةُ العقل حجابَ المسبِّباتِ ونفَذَتْ إلى الأسباب نَرَى في نور الثورةِ الساطعِ أن ديدرو كانَ واقِفًا وراءَ دانتوت، وروسو وراءَ روبسبيير، وفولتير وَرَاءَ ميرابو[١]، ونجد أن أبطالَ الثورةِ صَنيعَةُ أبطالِ الفَلْسَفَة.

***

(١) دانتون، وروبير، وميرابوا: أبطال الثورة الفرنسية.

أيها القَوم

إن تسميةَ العصر باسم رَجُلِهِ العظيم عَمَلٌ جليلٌ وفكرةٌ سامية بدأت بها ثلاثَةُ شُعوب: اليونان وإيطاليا وفرنسا. فقيل: عصرُ بيريلكيس، وعصرُ أغسطس، وعصر لاون العاشر، وعصر لويس الرَّابع عَشَر، وعصر فولتير.

إنها فكرةٌ ساميةٌ تشتملُ على سِرٍّ عظيم من أسرار المدنيَّةِ، وتدلُّ على أنَّ الأمةَ تدركُ مِقدارَ ما تمتَدُّ إليه عَظَمَةُ الرجُل العظيم. كان ينقُصُها قبلَ عهدِ فولتير أنها كانت خاصَّةً بالملوكِ ورؤساءِ الحكومات. ولما كانَ فولتير أجَلَّ مِن ملكٍ وأكبَرَ من رئيس بَطُلَ هذا الاختِصَاصَ وقيل عصرُ فولتير.

***

أجل، إن فولتير مَلِكُ المبادِئ، ورئيسُ الإصلاح، والعزيزُ القادرُ الذي أمْكَنَهُ أن يُنشِئَ عالمًا جَديدًا على أطلالِ العالَم القديم، وأن يسلبَ القوَّة الحاكِمَةَ سُلطَتَهَا ويمنَحَها للفِكر، وأن يكسرَ الصولجانَ والسيفَ ليقيمَ مقامَهُما العَدَلَ والرَّحمَة، وأن يمنَحَ المجتمعَ حُريَتَهَ حتى لا سُلْطَةَ على الشعبِ إلا سُلطَةُ القانونِ، ولا زاجِرَ للفَرْدِ إلا زاجِرُ الضَّمِير.

كان الفرقُ بينَ الأنانيةِ والوطنيةِ غامضًا مُبْهَمًا، فظَهَرَ ظُهورًا واضِحًا جَليًّا وعَرَّفَ الإنسانُ كيفَ يحفَظُ حَقَّهُ ليكونَ رَجُلًا، ويقومَ بواجبِ الوطن ليكونَ وَطَنيًّا. هذه المعرفةُ هي مَعنَى قولِنَا: «عصر فولتير»، وهي معنَى تلكَ الحادِثَةِ الجليةِ حادِثةِ الثورةِ الفرنساوية.

ولا أُنكِرُ أنَّ القرنَيْنَ السادسَ عَشَرَ والسابعَ عَشَرَ مَهَّدَا كَثيرًا من العقباتِ الاجتماعية للقرنِ الثامنَ عَشَرَ؛ فقد أندَرَ رابلي الملكيَّة في «غرغنتوا»، وموليير الكنيسةَ في «ترتوف»؛ لأن حُبَّ العدلِ وبُغضَ القوَّةِ كان ظاهِرًا في هاتَيْنِ النفسَيْنِ الكَريمتَيْن.

إِذًا فالعدُ بسُلطانِ القوَّةِ بعيدٌ. فمَنْ قال إن الحقَّ مع القوَّةِ فقد تَقَمَّصَ صُورَةً من صُوَرِ الأجيالِ الوُسْطى، وخاطَبَ أقوامًا بادوا قبلَ ثلاثةِ قُرونٍ.

إن القرنَ التاسعَ عَشَرَ يجلُّ القرنَ الثامنَ عَشَرَ ويحتَرِمُهُ احترامَ المتعلِّمَ للمعلِّم. إن الأولَ دَعَا فَلَبَّى الثاني دُعاءَهُ، وأمرَ فائْتَمَرَ بأمرِهِ.

***

أيها القوم

إن الكلمةَ الأخيرةَ التي أنطُقُ بها في هذا الموقِفِ هي دعاءُ المجتمع البشريِّ إلى التقدُّم بهُدوءٍ وسُكونٍ وثَباتٍ وَوَقَار. لقد وجَدَ الحقُّ ضالَّتَهُ التي كانَ يَنْشُدُها وهي الإخاءُ الإنسانيُّ، والتعارُفُ النفسِيُّ. فمِنَ العَبَثِ أن تَشغَلَ القوَّةُ بعدَ ذلكَ مَكانًا مِن هذا المجتمع. فإن فَعَلَتْ كان أَلْيَقَ الأسماءِ بها الاستبدادُ.

***

إن المجتمَعَ الإنسانيَّ أنكَر على القوةِ حَقَّها المزعومَ، وضاقَ صدرُهُ بجَرائِمِها وآثامِها فَقَاضَاها بينَ يَديَ التمدُّنِ، ووضَعَ بين يَدْيهِ جريدَةَ المُتَّهمَينَ من الرُؤسَاءِ والزُعَمَاءِ، وأتَى بالتاريخِ شَاهِدًا على دَعواهُ، فقضَى التمدُّنُ له عَليها، وجاء الحقُّ وَزَهَقَ الباطلُ، إن الباطِلَ كان زهُوقًا.

شَفَّ ثوبُ الرِّيَاءِ عما تَحْتَهُ، وظهرَتِ الحقيقةُ بيضاءَ ناصِعَةً لا غُبارَ عليها، فأَصبَحَ الأبطالُ المجرمونَ في نَظَرِ الإنسانِ سَواءً.

***

هَدَمَ التمدُّنُ تلكَ القاعِدَةَ الفاسِدَةَ وهي أنَّ الجُرْمَ العظيمَ أصغَرُ من الجُرْم الصغير؛ فأدرَكَ الإنسانُ أن قَتْلَ الشعوب أكبَرُ إثمًا وأعظَمُ جريرةً من قَتْلَ الأفرادِ، واسْتَكْبَرَ أن يعتبَر الحربَ مَجدًا وهو يعتبرُ السرقَةَ عارًا. وبالجملةِ عَرَفَ أن الجريمةَ حيثُ حَلَّتْ، وفي أيِّ مَظهَر ظهرَتْ، وأنَّ القاتلَ لا يَغني عنهُ مِنَ اللهَ شيئًا أن يُسَمَّى القيصرَ أو يُدْعَى الإمبراطور. ولا يَخفَى على الله من أمرِه شيءٌ سَواءٌ لَبَسَ تاجَ المُلْكِ أو قَلَنْسُوَةَ الإعدام.

فَلْنُصَرِّحْ بالحقيقةِ المُقررَّةِ الواضِحَةِ، وَلْنَحْتَقِر الحربَ أشدَّ الاحتِقارِ. إن الحربَ المبارَكَةَ لا أثَرَ لها في الوُجُود. إن منظرَ الدماءِ والأشلاءِ أفظَعُ منظرٍ. لا يَعقلُ أن يكونَ الشرُّ طريقَ الخيرِ، وأن يكونَ الموتُ وظيفةَ الحياة.

أيتُها الأمهاتُ الجالساتُ حولي، خَفِّفْنَ من أحزانِكُنَّ فقد أوشَكَتْ يَدُ الحربِ أن تكفَّ عن اختلاسِ أفلاذِ أكبادكُنَّ.

محالٌ أن يَسْتَمِرَّ الحالُ على هذا المنوال. أتَشْقَى المرأةُ فَتَلِدُ، ويغرسُ الزرَّاع فيكسُو الأرضَ بساطَها الأخضَرَ، ويجهدُ العامِلُ فيملأُ الخزائنَ ذَهبًا وفِضَّةً، ويأتي

الصنعُ بعجائِبِ المصنوعاتِ وغرائِبِ المُدْهَشَاتِ حتى إذَا أخذَتِ الأرضُ زخرفَها، وفاخَرَتِ السماءُ بنُجُومِها وكواكِبها، وذَهبْنا لرُؤيةِ معرِضِها العام وَجَدْنَاهُ سَاحَةَ القتال؟!

إنما ساحَةُ القتالِ الشريفِ هذا المجتمعُ الذي جَمعَ بينَ جدرانِهِ ما تَفرَّقَ من أعمالِ الإنسانِ الجليلةِ (وكان إلقاء هذا الخطاب أثناء افتتاح معرض باريس العام سنة ١٨٧٨م). والانتصارُ الشريفُ هو أن تعرضَ باريس هذا المجمَعَ على بَني الإنسان.

غير أني أقولُ مع الأسَفِ أنَّا لا نستطيعُ أن نخدَعَ أنفسَنا ونُنكرَ أنَّ الساعةَ التي نحنُ فيها تَشْتَمِلُ على بضع دقائِقَ مُحزنَةٍ تكدِّرُ صَفْوَها وتَنقُصُ من سرورِها لا تزالُ في مرآةِ السماءِ الصافِيَةِ سحابَةٌ سوداءُ. إن الشعبَ لم يَقْضِ كلَّ أربَهِ من السعادةِ لأنَّ الحربَ لم تَزَلْ باقيَةً. وأعْجَبُ ما في أمرِها أنها ترفعُ رأسَها بكلِّ جُرأةٍ وسَمَاجَةٍ في مثل هذا العيدِ الجليلِ عيدِ السَّلامِ العامِّ.

***

إن الملوكَ في السنتَيْنِ الماضِيَيْنَ أساءَ بعضُهم ظَنًّا ببعض فاختَلَفُوا وسَيحلُّ اختلافُهم عقدَةَ اتِّفَاقِنا فنَلجَأُ بشُؤمِهم إلى التقلُّبِ والاضطرابِ.

***

فَلْنَذْكُر عندَ ملوكِ الحرب فلوتير، وجان جاك، وديدرو، ومُونستكيو، ملوكَ السلامْ ولْنُوَجِّهْ وجهَتَنا إلى تلكَ الروح العالية، إلى تلكَ الحياةِ العظيمة إلى ذلكَ الدفينَ المقدَّس، ولْنخْضَعْ أمامَ قبرِهِ عَسَى أن يمدَّنا بروح منه ويهدينا إلى نُصرَةِ السلام. فإنه بعدَ مُرور قرنٍ على حياتِهِ لم يَزَلْ في الأحياءِ الخالدين.

***

وَلْنَقفْ في طَريق الدِمَاءِ المُتَدَفِّقَةِ لنقولَ للسَّفَّاكِينَ بصَوْتٍ عالٍ: كفى كفى.. إنها هجميَّةٌ. إنها تشوِّهُ وجهَ المدنية، ويستَنْصِرُ القرنُ التاسعَ عَشَرَ عليهم بالقرنِ الثامِنَ عشَرَ. إن أسلافَنا مِنَ الفلاسِفَةِ هُم رُسُلُ الحقِّ إلى البَشَرَ. فَلْنَضْرَعْ إليهم في تذكارِهم هذا أن يَتَدَارَكُوا المَقتَلَةَ قبلَ وُقوعِها ويُنادوا أن الحياةَ مُلْكٌ للإنسانِ، وعَظيمٌ عليه أن تُسلَبَ منه، وأن التمتُّعَ بالحريةِ حقٌّ من حُقوقِ العقولِ والأفكار.

إن النور لا أثَرَ له بينَ أضواءِ القصورِ؛ فَلْنطْلُبْهُ بين ظُلُمَاتِ القبورِ.

العلماء والجهلاء

لا تَحْسَبَنَّ أن الفلسفةَ الاصطلاحيَّةَ مَطلَبٌ مِن المطالِب التي لا تُرامُ، أو أنَّ بينَ مَن نُسَمِّيهم العلماءَ ومَنْ نُسمِّيهم الجهلاءَ ذلك الفرقَ العظيمَ الذي يتصوَّرُهُ الناسُ عِندَما يَرَوْنَ التفريقَ بينَهما، وإنزالَهما منازِلَهما. فالعُلمَاءُ والجُهلاءُ- إن دَقَّقتَ النظرَ - سواء لا فَرقَ بينَهما. إلا أن هؤلاء يَعلمونَ المعلوماتِ منظَّمَةً، وأُولئِكَ يَعلَمُونَها مبعثَرَةً، وإنَ هؤلاءِ يُحسِنُونَ البيانَ عَنها وأولئِكَ لا يُبيِّنُونَ.

ومَنْ نظرَ إلى الأشياءِ نَظَرًا نافِذًا وَجَدَ أن المعاني الصَّحيحَةَ، والقضايا الكونيَّةَ المتعلِّقَةَ بالخيرِ والشَّرِّ والنَّفْعِ والضَّرَرِ، والمسائِلَ المنوطَةَ بالإنسانِ في حياتِهِ المادية والمعنويةِ، يشترِكُ في العِلم بها الناسُ جَميعًا عامَّتُهم وخاصَّتُهم، كبارُهُم وصِغارُهُم، مَنْ نَشأ تحتَ سُقوفِ الجامعات ومَنْ عاشَ تحتَ سُقوفِ السَّمَواتِ، لأن العلمَ يُنبوعٌ يَفورُ مِنَ الداخِلِ، لا سَيلٌ يَتَدَفَّقُ مِن الخارج،ولأنَّ المعلوماتِ كامِنَةٌ في النفوس كُمونَ النارِ في الزِند، والقوَّةِ في المادَّةِ، وما وظيفَةُ العِلم إلا استثارَتُها مِن مكانها، وبَعثُها مِنَ مَراقِدَها.

وآيَةُ ذلكَ أنَّكَ لا تَجدُ حِكمَةً مِنَ الحِكَم التي يَفخَرُ بها العلماءُ ويَعُدُّونها مَظهرَ عِلمِهم وآيَةَ فضلِهم، إلا وَتَرَى في أَلْسِنَةِ العامَّةِ وشَوارِدِ أقوالِها وأمثالِها ما يُرادِفُها ويُشاكِلُها. كما أنكَ لا تجدُ قاعدَةً مِن قواعِدِ الأدَبِ، ولا قضيَّةً مِن قَضايَا الأخلاقِ التي تَعُدُّها مِن ذَخائِرِ الأسفارِ ونَفَائِس الأعلاقِ(١)، إلا وَهي مُلقاةٌ تحتَ أقدام العامَّةِ، ومُذَلَّةٌ بينَ أيدي الغَوغاءِ والأُمِّيِّنَ.

وعِندي أنه لَولا عَجزُ العامَّةِ عَن بيانِ ما يَجُول في خواطِرِهم ويَهجِسُ في ضَمَائِرهم مِنَ المعلوماتِ على صُورَةٍ مُرَتَّبَةٍ لما خُيِّلَ إليهم أنَّهم يَسمَعونَ مِنَ الخاصَّةِ كَلامًا عَجيبًا، أو مَعنى غَريبًا.

ليسَ هذهِ الغبطةُ التي نَراها تَعلَقُ بنُفُوسهم عِندَما يَتَلَقَّوْنَ أحاديثَ الخاصَّةِ مِن

(١) أعلاق: لها معانٍ متعددة، وهي هنا النفائس الثمينة الغالية.

أجل أنَّهم عَلِموا مَا لَم يكُونُوا يَعلَمُون، أو أدركُوا مَا لَا عَهْدَ لهُم بِهِ مِن قبلُ، بَل؛ لأنَّهم ظَفَروا بمَنْ يترجمُ عَن أفكارهم، ويجمعُ لهُم شتاتَ المعاني المبعَثَرةِ في أنحاءِ أدمِغَتِهِم، ولأنَّهم وجَدُوا في أنفسِهم لذَّةَ الأُنسِ بأفكارٍ تُشابهُ أفكارَهُم، وآراءَهُم.

ولا أخشَى بأسًا إنِ قلتُ: إنَّ عِلمَ العامَّةِ أفضَلُ مِن عِلم الخاصَّةِ؛ لأنَّه أولًا عِلمٌ خالِصٌ مِن شَائِبَةِ التكلُّفِ والتعمُّل، حتى إنك لتجدُ في بعضِ الأحايين بين معلوماتِ الخاصَّةِ ومَذاهبِهم وآرائِهم ما يُضحِكُ الثَّكلَى لغرَابَتِهِ وشُذوذِهِ، وما يترفَّعُ أضْيَقُ العامةِ ذهنًا وأضعَفُهم فهمًا أن يجعَلَ له شَأْنًا، أو يُقيمَ له وَزنًا. وثانيًا: لأنه يَعلَقُ بالنفسِ ويتغلغَلُ بينَ أطوائِها تَغلغُلًا تظهرُ آثارُه على الجوارح. وكثيرًا ما تجدُ بينَ الجُهلاءِ من تُعجِبُكَ استِقامَتُهُ، وبينَ العُلماءِ من يدهِشُكَ اعوجاجُه. وإن كانَ صَحيحًا ما يقولونَ مِن أنَّ العِلمَ ما ينتفعُ به صاحِبُهُ فكثيرٌ مِنَ الجُهلاءِ أعلمُ من كثيرٍ مِنَ العُلماءِ.

فلا تُبالغ في تَقدير فلسفَةِ وعِلم العُلَماء، ولا تَنظرْ إليهم نَظَرًا يملأُ قلبَكَ رَهبَةً، ولا تَغْلُ[1] في احتقار الجُهلاءِ وَازدِراءِ العامَّةِ والدَّهمَاءِ، ولا تكن ممَّن يَقضُونَ حياتَهم أسرَى العناوينِ وعَبيدَ الألقاب.

إنَّ في اختفاءِ الحقائقِ الكَونيَّةِ وتَنكُّرِها، وضلال هَذَا العالَم في مَذاهبِهِ ومَراميهِ، وتفرُّقِهِ مَذاهِبَ وشِيَعًا، وركوب كلِّ فريقٍ رأسَه، وهيامِهِ عَلى وَجهِهِ، ووقوفِ طُلَّابِ الحقيقةِ في كلِّ دَهر وعَصرٍ في مَفَارقِ الطرقِ ورؤوس المسالكِ حَيَارَى - يَنشُدُونَ فلا يَجدونَ، ويَجدُّونَ فلا يَصِلُونَ - لدليلًا على أنَّ الفلاسِفَةَ والحُكَماءَ والعُلَمَاءَ كلماتٌ غيرُ مفهوماتٍ وأسماءٌ بلا مُسَمَّياتٍ، وأنَّ حَقَائِقَ الأشياءِ وأسرارَ الكائناتِ قد استأثَرَ اللهُ بعِلمِها واحتَجَنَها من دونِ عِبادِهِ، ولم يمنَحْهُم إلا بَلَّةً تزيدُهم وَجْدًا كلَّما وَجدوا بَرْدَها وتملأُ قلوبَهم شَوْقًا كلَّما تذوَّقوا طَعْمَها:

ضَريبُكَ في بَني الدنيا كثيرٌ ... وعَزَّ اللهُ ربُّكَ مِنْ ضَريبِ

ومَا العُلماءُ والجُهلاءُ إلا ... قريبٌ حينَ تنظرُ مِن قريبِ

---

(١) لا تَغْلُ: بمعنى لا تغالي ولا تبالغ.

الرجل والمرأة

[جاءَني بالأمْسِ مِنَ الإسكندرية الكتاب الآتي:][1]

سيدي المحترم

لا تَعْجَبْ إن رأيتَ إعجابي بكَ ظاهِرًا في كلِّ سطر من سُطُور كتابي هذا، فإنما أنْطِقُ بلسان كثير منَ العُقلَاءِ الذين يحبُّونَكَ حُبًّا جَمًّا، ويعتقدونَ أنَّكَ فريدٌ في أدبكَ، فريدٌ في قلمِكَ، فريدٌ في تسامُحِكَ وتَساهُلِكَ؛ لذلكَ أرَدْنَا أن نوجِّهَ إليكَ السؤالَ الآتي راجينَ منكَ الإجابَةَ عليه:

لماذا نَرى الهيئةَ الاجتماعيَّةَ تحكُمُ عَلَى المرأةِ الفاسِقَةِ حُكمًا صارمًا فتَنبذُهَا وتحتقرُها، ولا تحكُم على الرجُل الفاسِقِ مع أن جريمتَهما واحدَة؟ !

هذا ما أرَدْنا أن نَسترشِدَ برأيِكَ فيهِ، والسلام؟

«سائل»

يعتقدُ كثيرٌ منَ الناس أن الرجُلَ والمرأةَ سواءُ في الذكاءِ والعقل، وعِنْدي أنَّهم أصابُوا في الأُولى وأخطئُوا في الأُخرى.

تستطيعُ المرأةُ أن تُجاريَ الرجُلَ في سُرعَةِ الفَهْم وحضور البَديهةِ، ولا تَستطيعُ أن تجاريَهُ في الإناةِ والرِّفق وامتِلاكِ هَوَى النفس، والأخذِ بفضيلةِ الصَّبرِ عَلى ما تكرَهُ وعمَّا تحبُّ.

تَستطيعُ المرأةُ أن تُدرك ما يُدركُهُ الرجُلُ مِنَ الشئون والأطوار، وأن تستطيعُ أن تَنتفعَ بمعلوماتها كما يَنتفعُ؛ لأنَّ بينَ جنبَيْها نَفْسًا غيرَ نفسِه، وهوًى غيرَ هَواهُ، ولأنَّ قَلبًا صَغيرًا لا يقوى على احتِمال ما يَحتَمِلُهُ عقلُهُ الكَبير. يَمشي الرجُلُ وراءَ عَقلِه فيهديه.. وتَمشي المرأةُ وراءَ قلبها فيُضِلُّها[2]، فما وَقفَتْ معهُ في مَوْقف إلا سَقَطَتْ بَينَ يَدَيْهِ عَجْزًا وَضُعْفًا.. لأنه يعرفُ السبيلَ إلى قلبِها.. ولا تَعرفُ السبيلَ إلى عَقلِه.

(١) ساقطة من كل الطبعات عدا طبعة ١٩١٠م.

(٢) يضلها: هنا بمعنى لا يهديها إلى الصواب.

لا تَعجَبْ إن قلتُ لكَ: إن الذكاءَ غيرُ العقل، فاللُّصوصُ والمحتالونَ والمزوِّرونَ والكاذِبونَ والفاسِقونَ والمنافِقونَ أذكياء.. وليس بينَهم عاقلٌ واحِد.. لأنَّهم يُوردون أنفسَهم مواردَ التَّلَفِ والهلاكِ، مِن حيثُ لا يُغني عَنهم ذكاؤهم شَيئًا.. وكثيرًا ما يكونُ الذكاءُ السديدُ داعِيَةَ الجنونِ، حتى إنكَ لا تكادُ ترى ذكيًّا مِنَ الأذكياءِ، إلا وَترى له في شئونِه وأطوارِه أحوالًا شاذَّةً لا تَنطبقُ على قانونٍ مِن قوانين العَقل.. ولا قاعِدَةٍ مِن قواعِدِ الطبيعَة. وعِندي أن أكثرَ ما يُصيبُ النوابغَ والأذكياءَ مِن بؤس العَيْش وسوءِ الحالِ عائدٌ إلى ضُعفٍ في عُقُولهم.. ونَقْصٍ في تَصَوَّراتهم.

وبعدُ، فالذكاءُ في رأس الإنسانِ كالسيفِ في يَد الشجاع.. وكَثيرًا ما يضربُ الشجاعُ عُنقَ نفسِه بسَيْفِه إذا كان طائِشًا أهوَجَ لا يملكُ نفسَه في مواقِفِ الحُزنِ أو الغَضَبِ.

فما يُغني المرأةَ ذكاؤها إذا لم يكُن وَراءَه عقلٌ يملِكُها ويصرفُها ويُمسِكُ بيدِها أن تَعْثُرَ في عَدْوِها واشتِدادِها بعَقَبةٍ من عَقباتِ هذه الحياة.

سيثقُلُ هذا الحكمُ على نُفوس النساءِ ونُفوس الرجَالِ الذين يُجامِلْونَهُنَّ ولكنْ ماذا أعملُ وبينَ يديَّ بُرهانٌ قاطعٌ ليسَ في استطاعَتِهِنَّ أن يُنازِعْنني فيهِ مَعَ شِدَّةِ ذكائِهِنَّ، ولا في استِطاعَةِ أنصارِهِنَّ مِنَ الرجالِ أن يَنقُضُوهُ، ولو كانَ بعضُهم لبعضٍ ظَهيرًا.

لَولا أنَّ الرجُلَ أعقلُ مِنَ المرأةِ ما كانَ لهُ عليها هذا السُّلْطَانُ، وذلكَ الغَلَبُ، ولا استَطَاعَ أن يَقُودَها وراءَه كما يُقادُ الجَنيبُ[1] ولا أن يَملِكَ عليها أمرَ فَقرِها وغِناها، وحَبْسِها وإطلاقِها، وحِجابها وسُفُورِها، ويَستأثِرُ من دُونِها بوَضْعِ القوانينِ والشَّرائعِ الخاصَّةِ بها مِن حيثُ لا ترَى في نفسِها قوَّةً لدَفْعِها، والخروجِ عَليها.

القَويُّ يَملِكُ على الضعيفِ بحُكم الطبيعةِ كلَّ شيءٍ حتى نفسَه وهَواهُ، وكذلكَ كانَ شأنُ الإنسانِ مَعَ الحيوانِ، وشأنُ الرجُلِ مَعَ المرأةِ.

الإنسانُ نوعٌ مِن أنواع الحيوانِ، لم يكُن في مَبدأ خَليقَتِهِ خَيرًا منها في شأنٍ من شئونِ الحياةِ، ولكنَّه كانَ أوفرَ مِنها عَقلًا وأوسَعَ حيلَةً، فما زالَ يطلُبُ لنفسِهِ الغايَةَ التي تُناسِبُ استعدادَه وفطرَتَه؛ حتَّى أصبحَ سيِّدَ الحيوانِ فمَدَّنَ المُدُنَ ومَصَّرَ الأمصارَ، وشادَ وبَنَى، وتأنَّقَ وتَرَفَّهَ، ثم طَرَدَ صاحِبَهُ إلى الصحاري والرِّمالِ، ورُءوسِ الجبالِ،

(١) الجنيب: المهر الذي يقاد إلى مهر آخر.

يأكُلُ بعضَهُ بعَضًا، ويَتَفانَى شَقَاءً وجَهلًا. والرجُلُ أَخُو المرأةِ وقَسيمُها في الرَّحِم والمهدِ، والأُبُوَّةِ والأُمُومَةِ، والقَوْمَةِ والقَعْدَةِ، والنَّوْمَةِ واليَقْظَةِ، ولكنَّهُ وَجَدَ في نفسه فَضلًا عَليها في قوَّةِ العقل والتدبير. وكانَ ظالمًا خَشِنَ النفس قاسِيَ القلب فأبَى إلا أن يأسرَها ويغلبَها على أمرها ويملكَ عليها جسمَها ونفسَها؛ فتَّم ما أرادَ.

مَلَكَ عَليها جسمَهَا؛ لأنه حَجبها عن النور والهواءِ فأذعَنَتْ، ومَلَكَ عَليها نفسَها؛ لأنه أَلْقَى في رُوعِها أنَّ ذَنبها في جريمةِ الفِسق المشتركةِ بينَه وبينَها أكبرُ مِن ذَنبِه، وأنَّ جنايتَها ضِعفُ جنايَتِهِ فصَدَّقتْ، وطلبَ منها أن تُسلِّم إليه الأمرَ في تدَبير شُئونها والتصرُّف بأموالِها فسَلَّمَتْ. وأصبحَتْ تنظرُ إلى هذهِ القوانين الجَائِرَةِ التي وَضعَها لها، والاعتباراتِ الفاسِدِةِ التي اعتبَرها منها، كما ينظرُ إليها هُو بعين الإجلالِ والإعظام.

يخدعُ الرجُلُ المرأةَ عن شَرَفِها فيَسلبُها إيَّاهُ، فإذا سقطَت هاجَ المجتمعُ الإنسانيُّ عليها رجالُه ونساؤُه، ومَلأَ قلبها هَوْلًا ورُعْبًا، وأوْسَعَ نفسَها تَقريعًا وتأنيبًا من حيثُ لا تَصبرُ على شرارةٍ واحدةٍ من هَذهِ النار المتأجِّجَةِ؛ لأنه هَو الذي وَضعَ هذا القانونَ وشَرَّعَ تلكَ الشريعةَ، وما كانَ له أن يُقصِّرَ في ممالأةِ نفسِه ومُحاباتها؛ لأنه شَرِهٌ طَمَّاعٌ مُحِبٌّ لذاتِه، ولا أن يعدِلَ في القضاءِ في قضيَّةٍ هوَ الخصمُ فيها والحكَمُ؛ لأنه ظالمٌ جبَّارٌ.

ولو كانَ للمرأةِ ما للرجُل من قوَّةِ العقل لاستطاعَتْ هي أن تحجبَه في المنزلِ، وأن تتولَّى التصرُّف في شأنِه، وأن تعبثَ بعقلِه ما شاءت، فتعظُمَ جريمتُه وتصغُرَ جريمتُها في عينه، وأن تنفذَ إلى قلبه فتلعبَ به لَعِبَ الصبيِّ بالكُرَةِ، وأن تحدِّثَهُ فيُصَدِّقَ، وتأمرَهُ فيأتمرَ، وأن تسنَّ له القوانينَ الجائِرَةَ والشرائعَ الفاسدةَ فيؤمنَ بها إيمانَه بالإلهِ المعبودِ كما صَنَعَ هو بها في جميعِ ذلك فبلغَ منها ما أرادَ.

لا أريدُ أن أقولَ: إن هذا الفرقَ في القوةِ العقليةِ بينَ الرجُلِ والمرأةِ يمنحُه هذا الحقَّ في ظُلمِها وغَلَبَتِها على حَقِّها، بل أريدُ أن أقولَ: إن هذا الفرقَ بينَهما هوَ سببُ ذلكَ السُّلطانِ القاهِر، والحُكم الجائِر.

وجملةُ القول: إن حُكمَ المجتمع الإنسانيِّ بإدانَةِ المرأةِ الزانيةِ وبراءَةِ الرجلُ الزاني حُكمٌ ظالمٌ، ولو أنه أنصَفَها لعَرَفَ فَرْقَ ما بينَهما في القوَّةِ العقليةِ، فجعَلَ عِقابَ الرجُل القويِّ المهاجم فوقَ عِقاب المرأةِ الضعيفةِ المدافِعَةِ؛ ولكنَّه لم يفعَلْ ذلكَ لأنَّ رجالَهُ ظَلَمَةٌ جائِرونَ، ولأنَّ نساءَهُ ساذجاتٌ بسيطاتٌ، يُصدِّقْنَ الرجالَ في أقوالِهم، وينظُرْنَ

إلى المُستَحْسناتِ والمتسهْجنات بأنظارهم. فإن أرَدْنا أن تنالَ المرأةُ حقَّها مِنَ الرجُل، وأن تنتصِفَ منهُ، فليسَ سبيلُها إلى ذلكَ المغالبةَ والمصارعةَ، فإنها أضعفُ منه جسمًا وعقلًا، بل السبيلُ إليه أن نعلِّمها لتعرفَ كيفَ تستعطِفُهُ وتَسْتَسْمِحُهُ، وكيفَ تحملُهُ على إجلالِها وإعظامِها، وأن تعلِّمَهُ ليستطيع أن يكونَ شخصًا كَريمًا، وإنسانًا رحيمًا.

***

الدعوة

ما من قائم يقومُ في مجتمع من هذه المجتمعاتِ البشريةِ داعِيًا إلى تَرْكِ ضَلالةٍ مِنَ الضلالاتِ إلا وَقَد آذَنَ نفسَه بحرب لا تَخمُدُ نارُها ولا يخبُو أُوارُها حتى تهلِكَ تلك الضلالةُ أو يَهلِكَ دونَها.

ليس موقفُ الجنديِّ في معتركِ الحرب بأخْرَجَ من موقف المُرشِدِ في معترَكِ الدعَوةِ، وليسَ سَلْبُ الأجسام أرواحَها بأقرَبَ مَنالًا مِن سَلْب النفوسِ غرائِزَها وَمُيولَها.

لا يضنُّ الإنسانُ بشيءٍ مما تَملِكُ يمينُه ضَنَّهُ بما تَنطوي عليهِ جوانِحُهُ من المُعتَقَدَات. وإنهُ لولا تمزَّقَتِ الأشلاءُ في مَوْقفِ الحروب البشريةِ من عَهدِ آدمَ إلى اليوم إلا لَيبذُلُ دمَهُ صيانَةً لعقيدته، ولا يبذُلُ عقيدَتَهُ صِيانَةً لدَمِهِ. وما سالتِ الدماء حمايَةً للمبادِئ وَذَوْدًا[1] عن العَقَائِدِ.

لذلكَ كانَ الدعاةُ في الأُمَمِ أعداءَها وخصومَها؛ لأنَّهم يحاولُونَ أن يُزرِءُوها في ذخائرِ نُفُوسِها ويُفجِعُوها في أعلاقِ قُلُوبِها.

الدعاةُ الصادقونَ لا يُبالون أن يُسَمِّيَهُمُ الناسُ خونَةً أو جَهَلَةً أو مُلحِدينَ أو ضَالِّينَ أو كافِرينَ؛ لأن ذلكَ ما لابَدَّ أن يكون.

الدعاةُ الصادقونَ يعلمونَ أن محمدًا ﷺ عاشَ بينَ أعدائِهِ ساحِرًا كذَّابًا، فلما ماتَ، ماتَ سَيِّدَ المرسَلينَ، وأن الغزالي عاشَ مُتَّهمًا بالكُفر والإلحادِ وماتَ حِجَّةَ الإسلام،

---

(١) الذود عن الشيء: الدفاع عنه.

وأن ابنَ رشدٍ عاشَ ذليلًا مُهانًا حتى كان الناسُ يبصقونَ عليه إذا رأوْهُ وماتَ فيلسوفَ الشرقِ، فهُم يُحبُّونَ أن يكُونوا أمثالَ هؤلاءِ العظماءِ أحياءً وأمواتًا.

سيقولُ كثيرٌ منَ الناس: وَما يُعنِي الداعي دُعاؤه أُمَّةً لا تُحسِنُ به ظنًّا، ولا تسمَعُ لهُ قولًا؟! إنه يضرُّ لا ينفَعُ أمتَهُ فيكونُ أجهلَ الناسِ وأحمَقَ الناسِ.

هذا ما يوسوسُ به الشيطانُ للعاجزينَ الجاهلينَ، وهذا هُو الداءُ الذي ألَمَّ بنفُوس كثير منَ العُلماءِ، فأسكَتَ ألْسِنَتَهُم عَن قولِ الحقِّ، وحَبَسَ نفوسَهم عن الانطلاقِ في سَبيل الهدايَةِ والإرشاد، فأصبَحُوا لا عَمَلَ لَهُم إلا أن يُكرِّروا للناس ما يَعلمون، ويُعيدوا عَليهم ما يَحفظُونَ، فجَمَدَتِ الأذهانُ وسَكَنَتِ المداركُ، وأصبَحَتِ العقولُ في سجنَ مُظلم لا تطلُعُ عليه الشمسُ ولا يَنفذُ إليه الهواء.

الجهلُ غشاءٌ سَميكٌ يَغْشَى العقولَ[1]، والعِلْم نارٌ مُتَأَجِّجَةٌ تلامِسُ ذلكَ الغشاءَ فتحرُقُهُ رُوَيْدًا، فلا يزالُ العقلُ يتألَّمُ لحَرارتها ما دامَ الغشاءُ بينَه وبيَنها حتى إذا أتَتْ عليه انكشَفَ له الغطاءُ فَرَأَى النارَ نُورًا، والألَمَ لَذَّةً وسرورًا.

لا يستطيعُ الباطِلُ أن يَصرَعَ الحقَّ في ميدانٍ؛ لأن الحقَّ وُجُودٌ والباطِلَ عَدَمٌ، وإنما يَصرَعُهُ جَهْلُ العلماءِ بقُوَّتِهِ ويأسُهُم من غَلَبَتِهِ وإغفالُهم النداءَ به والدعاءَ إليه.

مَحالٌ أن يَهدِمَ بناءَ الباطِلِ فَرْدٌ واحِدٌ في عَصرٍ واحِدٍ، وإنما يَهدِمُهُ أفرادٌ مُتَعَدِّدونَ في عُصورَ متعددة، فَيهزُّهُ الأولُ هزَّةً تُباعِدُ ما بين أحجاره، ثم يُنقِصُ الثاني منهُ حَجَرًا، والثالثُ آخرَ، وهَكَذا حتَّى لا يَبقَى فيه حَجَرٌ على حَجَرٍ.

الجهلاءُ مَرْضَى والعلماءُ أطبَّاءٌ، ولا يَجمُلُ بالطبيبِ أن يُحجم عن العمل الجراحِيِّ فِرارًا مِن إزعاجِ المريضِ أو خَوْفًا مِن صَريخِهِ وعَويلِهِ، أو اتِّقَاءً لِسَبِّهِ وَشَتْمِهِ؛ فإنهُ سيكونُ غدًا أصدَقَ أصدِقَائِهِ وأحَبَّ الناسِ إليه.

وبعدُ، فقليلٌ أن يكونَ الداعي في الأمةِ حبيبًا إليها إلا إذا كان خَائِنًا في دَعوَتِهِ، سَالِكًا سبيلَ الرياءِ والدَّهاءِ في هِدايَتِهِ. وقليلٌ أن ينالَ حَظَّه من إكرامِها وإجلالِها إلا بعدَ أن تَتجرَّعَ مَرارَةَ دَوائِهِ وتشعُرَ بحلاوَةِ الشفاءِ، بعدَ مرارةِ ذلكَ الدواءِ.

الدُّعاة في هذه الأمةِ كثيرونَ مِلءُ الفضاءِ، وكِظَّةُ[2] الأرضَ والسماء ولكن لا يكادُ يوجَدُ بينَهم داعٍ؛ لأنه لا يوجَدُ بينَهم شُجاع.

(١) يغشاها: يغطيها بظلامه. (٢) الكظَّة: البِطْنَةُ.

أصحابُ الصحفِ، وكتَّابُ الرسائلِ، والمؤلِّفونَ، وخُطَباءُ المجامعِ، وخُطباءُ المنابر، كلُّهم يَدعُون إلى الحقِّ، وكلُّهُم يُعطونَ ويَنصحونَ ويأمُرونَ بالمعروفِ ويَنْهَوْنَ عن المنكر، ولكن لا يوجَدُ بينَهم مَنْ يستطيعُ أن يحمِلَ في سَبيلِ الدعوةِ ضَرًّا أو يُلاقي طريقها شَرًّا.

رَأيتُ الدُّعاةَ في هَذِهِ الأُمَّةِ أربَعةً: رَجُلٌ يَعرفُ الحقَّ ويكتُمُهُ عَجزًا وجُبْنًا، فهو ساكِتٌ طولَ حياتِهِ لا يَنطِقُ بخَير ولا شَرٍّ، ورجُلٌ يعرفُ الحقَّ، وينطِقُ به، ولكنَّهُ يَجهَلُ طريقَ الحِكمَةِ والسياسَةِ في دَعْوَتِهِ، فيهجُمُ على النفوس بما يُزعِجُها ويُنفِّرُها، وكانَ خيرًا لو صَنَع ما يَصنَعُهُ الطبيبُ الماهِرُ الذي يضَعُ الدواءَ المُرَّ في «برشامة» ليسهلَ تَناوُلُه وَازدِرادُه ورجُلٌ لا يعرفُ حَقًّا ولا باطِلًا، فهو يَخبطُ في دَعوتِه خَبْطَ الناقةِ العَشْوَاءِ في بيَدائِها، فيَدعُو إلى الخير والشرِّ والحقِّ والباطل، والضَّار والنافع، في مَوقفٍ واحِدٍ، فكأنَّه جَوادُ امرئِ القيس الذي يقول فيه:

مِكَرٍّ مِفَرٍّ مُقْبِلٍ مُدْبِرٍ مَعًا[1]

ورجُلٌ يعرفُ الحقَّ ويدعوُ الأمَةَ إلى الباطِلِ دَعوةَ المُجِدِّ المجتهدِ، وهو أخبثُ الأربعةِ وأكثرُهُم غَائِلَةً؛ لأنّه صاحِبُ هَوًى يَرى أنّه لا يبلغُ غايَتهُ مِنه إلا إذا أهلكَ الأمّةَ في سَبيلِه، فهو عَدُوُّها في ثياب صديقِها؛ لأنّه يُوردُها مَواردَ التَّلَفِ والهَلاكِ باسم الهدايةِ والإرشادِ. فليتَ شعري من أيِّ واحدٍ من هؤلاءِ الأربعةِ تستفيدُ الأمةُ رُشدَها وهُداها؟!

ما أعظمَ شقاءَ هذه الأمَةِ وأشدَّ بلاءَها! فَقَدَ أصبحَ دُعاتُها في حاجةٍ إلى دُعاةٍ، يُنيرونَ لهُم طريقَ الدعوةِ، ويُعَلِّمُونَهُم كيفَ يكونُ الصبرُ والاحتِمالُ في سَبيلِها. فليتَ شِعري، مَتَى يتعلَّمُون، ثم يَرشُدُون؟!

(١) وتمام البيت:

... ... كَجُلمُودِ صَخرٍ حَطَّهُ السَّيْلُ مِنْ عَلِ

الحياة الذاتية

أكثرُ الناس يعيشونَ في نفوس الناس أكثرَ مما يَعيشونَ في نُفُوس أنفُسِهم أي أنّهم لا يتحرَّكُونَ ولا يَسكُنونَ، ولا يأخُذُونَ ولا يَدَعُونَ إلا لأنَّ الناسَ هَكذا يُريدون.

حياةُ الإنسانِ في هَذا العالَم حياةٌ ضِمنيَّةٌ[١] في حياةِ الآخرينَ، فلو فَتَّشَ عَنها لا يجدُ لَها أثرًا إلا في عُيُونِ الناظرينَ، وآذانِ السامِعينَ، وأفواهِ المتكلِّمينَ.

يُخيَّلُ إليَّ أن الإنسانَ لَو عَلِمَ أن سيُصبحُ في يوم من أيام حَياتِهِ وَحيدًا في هَذَا العالَم لا يجدُ بجانبِهِ أُذنًا تسمَعُ صوتَهُ، ولا عَينًا تنظرُ شَكْلَه، ولا لسانًا يُردِّدُ ذكرَهُ، لآثَرَ الموتَ على الحياةِ علَّه يجدُ في عالم غير هذا العالَم - مِن آذانِ الملائِكَةِ أو عُيونِ الجنَّةِ - مقاعِدَ يقتَعِدُها فيطيبُ لهُ العيشُ فيها.

إِذَا كانَتْ حياةُ كلِّ إنسانٍ مُتلاشِيَةً في حياةِ الآخرينَ، فأيُّ مانع يمنَعُني مِنَ القَوْلِ بأنَّ تلكَ الحياةَ التي نحسبُها مُتَكَثِّرَةً مُتَعَدِّدَةً، إنما هي حياةٌ واحدةٌ يتَّفِقُ جوهَرُها، وتتعدَّدُ صُوَرُهَا، كالبَحر المائج نَراهُ على البُعدِ فنحسبُهُ طرائقَ قِددًا[٢]، ونحسبُ كلَّ موجةٍ مِن أمواجةٍ قِسمًا من أقسامِه، فإذا دَنَوْنا منهُ لا نَرَى غيرَه، ولا نجدُ لجزءٍ مِن أجزائِه حَيِّزًا مُستَقِلًا، ولا وَصْفًا ثابتًا.

لا يَحيا في هذا العالَم حياةً حقيقيةً، إلا ذلكَ الشاذُّ الغريبُ في شُئونِهِ وأطوارِهِ وآرائِهِ وأعمالِهِ، الذي كثيرًا ما نُسمِّيهِ مَجنونًا. فإن رَضينا عنهُ بعضَ الرِّضَا سمَّيناهُ فَيلسوفًا، ونريدُ بذلكَ أنه نصفُ مَجنونٍ، فهو الذي يتولَّى شأنَ الإنسانِ، وتغييرَ نِظاماتِهِ وقوانينِه، وينتقلُ به حالٍ إلى حال بما يغيِّرُ من عاداتِهِ ويحوِّلُ مِن أفكاره.

أيَّةُ قيمةٍ لحياةِ امرئ، لا عَمَلَ لهُ فيها إلا مُعالَجَةُ نفسِه على الرِّضَا بما يَرْضَى به الناسُ، فيأكلُ ما لا يَشتهي، ويصدفُ[٣] نفسَه عما تَشتهي، ويسهرُ حيثُ لا يَعذِبُ

(١) داخلة ضمن حياة الآخرين على سبيل التضامن.
(٢) طرائق قددًا: قطعًا وأقسامًا، وفي القرآن: ﴿كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾.
(٣) يصدف عنها ويصدفها: يمنعها.

طَعْمَ السهر، وينامُ حيثُ لا يطيبُ له المنامُ ويلبسُ مِنَ اللباس ما يُحرِجُ[1] صدرَه، ويقصِم ظهرَه، ويشربُ من الشراب ما يُحرقُ أمعاءَه، ويأكُلُ أحشاءَهُ، ويضحكُ لما يُبكي ويَبكي لما يُضحِكُ، ويبتسمُ لِعدوِّه، ويُقَطِّبُ في وجهِ صَديقِهِ، ويُنفِقُ في دراسَةِ ما يسمُّونَهُ عِلَم السُّولِ - أي عِلَم المُداهَنَةِ والمَلَقَ - زَمَنًا لو أنفقَ عُشْرَ معشارِهِ في الناسِ، وازْدِلافًا[2] إلى قُلوبهم.

ليسَت شهوةُ الخمرِ منَ الشهواتِ الطبيعية المركَّبَةِ في غرائزِ الناس فَلَوْ لم يَذُوقُوها لما طَلَبوها ولا كَلِفُوا بها، وما جَناها عَليهم إلا كَلَفُ تاركيها برضاءِ شاربيها. وما كانَ الترفُ خُلُقًا مِن الأخلاقِ الفِطريَّةِ في الإنسانِ ولكنْ كَلِفَ[3] المتقشفون برضاءِ المترفينَ فترَّفُوا، فحَمَلُوا في ذلكَ السبيل مِن شقاءِ العيش وبَلائِهِ وأثقالِ الحياةِ وأعبائها، ما نَغَّصَ عليهم عَيْشَهم وأفسَدَ عليهم حَياتَهم. وإنكَ لتَرَى الرجُلَ العاقِلَ الذي يَعرفُ ما يجبُ ويعلَمُ ما يأخُذُ وما يَدَعُ، يبيعُ منزلَهُ في نفقةِ عُرس وَلَدِهِ أو ابنتَه، فلا تجدُ لفعلِه تأويلًا، إلا خَوفَهُ مِن سخطِ الناس واتِّقاءَهُ مَذَمَّتَهم. وكثيرًا ما قَتَلَ الخوفُ مِن سخط الناس والكَلَفُ برضاهُم ذكاءَ الأذكياءِ، وأطفأَ عُقولَ العقلاءِ. وكَم رأيْنا مِن ذكيٍّ يظلُّ طولَ حياتِهِ خامِلًا مُتَلَفِّفًا لا يجرؤُ على إظهار أثر من آثار فِطنَتِهِ وذكائِهِ مخافَةَ هُزءِ الناس وسُخريتَهم، وعاقل لا يمنَعُهُ مِنَ الإقدام على إصلاح شأن أُمَّتِهِ وتقويمها إلا سخطُ الساخطِينَ ونقمةُ الناقمينَ.

وما أُعجِبتُ برجُل في حَياتي إعجابي بأديب من أدباءِ هَذِهِ الأُمَّةِ يكتبُ الرسالةَ التي يريدُ كتابتَها بينَه وبينَ نفسِه، ثم يُدلي بها إلى صَحيفةٍ مِنَ الصُّحُفِ أيَّةً كانت ثمَّ يَمضي لسبيلِه كأنَّه ما صَنَعَ شيئًا، فلا يسيرُ وراءَها سَيْرَ المتسمِّعِ المتجسِّس ليعلَمَ ما لرأيُ الناس فيها، وما حَديثُهم عَنها، وهل سَخطُوا عليها، أو رَضُوا بها؟! ولا يُمسي مُتنَقِّلًا في المجامعِ والأنديةِ، مُسائلًا عَنها كلَّ غادٍ ورائح، ليجدَ خَيرًا فيضحكَ ويستبشرَ، أو شرًّا فيبكيَ ويبتئسَ. بل كثيرًا ما رأيتُه يسمَعُ حديثَ الناس عَنه في حالَيْ رضاهُم وسَخْطِهم ساكنًا هادئًا؛ كأنَّما يتحدَّثُونَ عن غيره، ويَعنُونَ شَخصًا سِواه، حتى كدتُ أتخيَّلُ ألَّا فَرْقَ عندَه بين: أحسَنْتَ وأجَدْتَ، وأسأتَ وأخطأتَ. بل قلَّما رأيتُه على كَثرةِ لُصُوقي به، وتَفَقُّدي مَواقعَ سَمْعِهِ وبَصَرِهِ يَقرأُ ما تكتُبُهُ الصُّحُفُ عَنه، وما تُعَلِّقُهُ

(١) يحرج صدره: يصاب بالضيق، وفي القرآن: ﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾.
(٢) الازدلاف والزلفى: التقرب. (٣) الكلف بالشيء: الولع به.

على آرائِهِ وأفكارِه، من مَدْح أو ذَمٍّ، حتى كدتُ أحملُ تلكَ الحالَ الغريبةَ مِن أمره على البَلَهِ والغَفلةِ، أو العَظَمَةِ والكِبرياء، لولا أني فاتحْتُه مَّرةً في ذلكَ وسألتُه: لِمَ لا تحفِلُ برأيِ الكُتَّابِ فِيكَ ولمَ تَقرأُ ما يكتبونَ عنكَ؟ فأجاب:

إنني ما أقدمتُ على الكتابةِ للناس فِي إصلاح شُئونهم، وتقويم مُعْوَجِّهم، إلا بعدَ أن عرفتُ أني أستطيعُ أن أنزلَ منهُم مَنزلةَ المعلم من المتَعَلِّم، للناسِ خاصَّةً وعامَّةً.

أما خاصَّتُهم فلا شأنَ لي مَعهم، ولا علاقَةَ لي بهم، ولا دَخْلَ لكلمةٍ مِن كلماتي في شأنٍ من شُئونهم، فلا أفرحُ برضاهُم، ولا أجزَعُ لسخطِهم، ولأني لم أكتُبْ لَهُم، ولم أتحدَّثْ إليهم، ولم أُشهدْهُم أمري، ولم أحضِرْهُم عَمَلي، بل أنا أتجنَّبُ جَهْدَ المستطيع أن أستمعَ منهُم كلَّ ما يتعلَّقُ بي مِن خير أو شرٍّ؛ لأني راضٍ عَن آرائي التي أُودِعُها إياها، فلا أحبُّ أن يُشكِّكَني فيها مُشكِّكٌ. ولم يهبني اللهُ مِّن قوَّةِ الفِراسَةِ ما أستطيعُ أن أميِّزَ بينَ مُخلصِهم ومَشُوبِهم، فأقبلُ على الأوَّلِ لأستفيدَ عِلمَهُ، وأُعرضُ عن الثاني لأَتَّقِيَ غِشَّهُ. فأنا أسيرُ بينَهم مَسيرَ رجُلٍ بَدأَ يقطعُ مرحلةً لابدَّ له أن يفرغَ مِنها في ساعَةٍ مَحدودة، ثم عَلِمَ أن عَلى يمين الطريق الذي يَسلُكُهُ روضَةً غنَّاءَ تَعتنِقُ أغصانُها، وتَشْتَجِرُ أفنانُها، وتغرِّدُ أطيارُها، وتتألَّقُ أزهارُها، وأنَّ على يَسارِهِ غابًا تزأرُ أسودُه، وتَعوي ذِئابُهُ، وتَفحُّ أفاعِيهِ وصِلالُه[1]، فمشَى قدَمًا لا يلتَفِتُ يمنَةً مَخافَةَ أن يلهُوَ عَن غايتِهِ بشهوانِ سَمْعِهِ وبَصَرِهِ، ولا يسرةً مَخافَةَ أن يهيجَ بنظراتِهِ فضولَ تلك السباع المُقْعِيَةِ والصِلالِ الناشِرَةِ فتعترِضَ دون طريقهِ.

وأما عامَّتُهم فهم بينَ ذكيٍّ قَد وَهَبَهُ اللهُ من سلامَةِ الفطرة وصفاءِ القلب وسَلامَةِ الوجدانِ ما يَعُدُّهُ لاستماع القَوْلِ واتِّباع أحسَنِه، فأنا أحمَدُ الله في أمرِه؛ وضعيفٍ قد حِيلَ بينَهَ وبينَ نفسِهِ فهو لا يَرضى إلا عمَّا يُعجبُهُ، ولا يسمَعُ إلا ما يُطربُهُ، فأَكِلُ أمرَهُ إلى اللهِ وأستلْهِمُهُ صوابَ الرأيِ فيه حتى يجعَلَ لهُ مِن بعدِ عُسرٍ يُسرًا.

فأنا إنما أكتبُ للناس لا لأُعجِبَهم، بل لأنفَعَهُم، ولا لأسمَعَ منهُم أنتَ أحسنتَ، بل لأجدَ في نفوسِهم أثرًا مما كتبتُ. فلو أن هذهِ الملايينَ الأثنى عَشَرَ التي يحتضنُها هذانِ الجبلانِ أجمعتْ أمرَها على الإعجاب بِي والرِّضَا عَني، ثم رأيتُ مِن بينِها رجُلًا واحِدًا ينتفعُ بما أقُولُ؛ لكان الواحِدُ المستفيدُ آثَرَ في نَفسِي من الملايين المعجبين.

أتدري لِمَ عَجزَ كتَّابُ هذه الأمةِ عَن إصلاحها؟!؛ لأنهم يظنُّونَ أنهم لا يزالُونَ حتى

(١) الصِّلال: الحيَّات الخبيثة اللادغة.

اليوم طلبةً يتعلَّمونَ في مَدارسِهم وأنهم جالسونَ بينَ يَدَيْ أساتذة اللُّغَةِ يتلقَّون عنهُم دروسَ البيانِ؛ فترى واحِدًا منهم يكتبُ وَهَمَّهُ المالئُ قلبَهُ أن يُعجبَ اللغويِّينَ، أو يروقَ المنشئينَ، أو يُطربَ الأدباءَ، أو يَضحكَ الظُّرَفَاءَ، ولا يدخُلُ بابَ أغراضِهِ ومقاصدِهِ أن يتفقَّدَ المسلكَ الذي يجبُ أن يسلُكَهُ إلى قلوب الذين يقولُ إنه يَعظُهُم أو يَنصَحُهُم أو يُهذبهم أو يُثقِّفُهم ليعلمَ كيفَ ينفذُ إلى نُفوسِهم، وكيف يهجُم على قُلوبهم، وكيفَ يملكُ ناصيَةَ عُقولِهم؛ فيعدلَ بها عن ضَلالِها إلى هُداها، وعَن فسادِها إلى صَلاحِها. فَمَثَلُهُ كمثَلِ الفارس الكذّاب الذي تراهُ حامِلًا سيفهُ كلَّ يوم إلى الجوهريِّ ليرِّعَ له قبضَتَهُ، أو الحدَّادِ ليشحَذَ له حَدَّهُ، أو الصقيلِ ليجلوَ له صَفحَتَهُ، ولا تراهُ يَومًا في ساحَةِ الحربِ ضارِبًا به.

نعَم، قد يكونُ الوَلَعُ برضاء الناس والخوفِ مِن سَخْطِهِم مَذهبًا مِن مذاهِب الخير وطَريقًا مِن طُرُقِ الهدايةِ للضالِّ عنها، لو أن الفضيلةَ هي الخُلُقُ المُنتشرُ فيهم، والغالبُ على أمرهم. ولو كانَ الأمر كذلك لآثَرْتُ أن يعرضَ المرءُ نفسَه على الفضيلةِ ذاتها مِن حيثُ هِيَ، لا مِن حيثُ تشخيصُها في أذهانِ الناسِ وقَوْلِهم. فإذا استوثَقَ منها وعَلَم أنها قد خالَطَتْ قلبَهُ وأخذَتْ مُستقرَّها من نفسِه جَعَلَها مِيزانًا يزنُ بِهِ أقوالَهُ وأفعالَه كما يزنُ بِهِ أقوالَ الناس وأفعالَهم، ثم لا يبالي بعدَ ذلكَ أرضَوا عنه أم سَخطُوا عليه، أحبُّوه أم أبغضُوه؛ فإنما يبكي على الحبِّ النِّسَاءُ.

العبرات

كنتُ أغبطُ نفسي على التجلُّد والصَّبر، وأحسبُني قادرًا على الاستمساكِ في كلِّ رُزءٍ مَهما جَلَّ شأنه، وعظم وقته، فلمَّا ماتَ «مصطفى كامل» علمتُ أن مِنَ الرزايا ما لا يُطاقُ احتِمالُهُ، ولا يُستطاعُ تَجرُّعُهُ.

كلَّ يوم نَرَى الموتَ، ولا نزالُ نَعُدُّ الموتَ غَريبًا، هيهاتِ! لا غرابَةَ في الموتِ، ولكنَّ الغريبَ مَوْتُ الرجُلِ الغريب.

كلَّ يوم تمرُّ بنا قوافلُ الموتى فلا نأبَهُ لها، وأكبَرُ نصيبها منا الحوقَلَةُ والاسترجاعُ، فلما مرَّت قافلة «مصطفى كامل» دُهِشْنا وجَزِعْنا؛ لأنه كان غَريبًا في حياتِه، فأحْرَى أن يكون غَريبًا في مَماتِهِ.

ماتَ «مصطفى كامل» فعَرَفْنَا الموتَ، وما كنَّا نعرفُهُ قبلَ ذلكَ؛ لأننا ما كُنَّا نَرَى إلا أمواتًا يُنقلُونَ من ظهر الأرض إلى بَطنِها. أمَّا «مصطفى كامل» فكانَ حَيًّا حَياةً حقيقيةً، فكانَ موتُه كذلك.

لا يحسبُ الكاتبونَ أنَّهم صَنَعوا شَيئًا إذا بَذَلُوا لذلكَ الرجُلُ العَظيم قطرَةً من المِداد، ولا الباكونَ أنَّهم أبْلَوْا بلاءً حَسَنًا إذا بَذَلُوا له قطرةً من الدمع، فإنه كانَ يبذُلُ لهم ماءَ حياتِهِ قطرةً فقطرَةً حتى أفنَاهُ، ومَضَى لسبيلِهِ وشَتَّانَ ما بينَ صَنيعهم وصنيعِه.

أينَ قطراتُ الدموع التي يُريحُ بها الباكونَ أنفُسَهم، أو قطراتُ المدادِ التي يُرصِّعُ بها الكُتَّابُ بياضَ صَحائِفهم، من قَطراتِ الحياةِ التي أرَاقَها «مصطفى كامل» في سَبيلِ وطنِهِ وأُمَّتِهِ؟

كانَ «مصطفى كامل» سِراجًا كَبيرَ الشُّعُلَةِ، وكلُّ سراج تكبرُ شُعلتُه يفرغُ زيتُه وَشيكًا، وتحترقُ ذُبالتُه[1]، فَيَنْطفِئُ نورُه.

كانَ «مصطفى كامل» نَشيطًا سَريعَ الحركَةِ، فقَطَعَ جسرَ الحياةِ في لَحظةٍ واحِدَةٍ.

(١) الذبالة: فتيلُ المصباح، ومنه قول الحكيم للعالم: «لا تكن كالذبالة تضيء للناس الطريق وتحرق نفسها».

obeikandi.com

كانَ الوطنيونَ قبلَ اليوم يتكلَّمونَ، فلَّما صَاحَ «مصطفى كامل» وأسمعَ في صِياحِهِ عَرَفُوا أنَّ آذانَ السياسةِ لا يخترقُها إلا الصوتُ الجَهْوَرِيُّ، ولولاهُ ما كانوا يعرِفُونَ.

كانَ الوطنيونَ يحتقِرُونَ أنفُسَهم ويُسيئونَ الظَّنَّ به، فلا يُصدِّقُونَ أن تُربَةَ مِصرَ تُنبتُ أمثالَ «فولتير، وهُوجو، وغاريبالدي، وواشنطن، فلما نَبَغَ بينَهم «مصطفى كامل» عَرَفُوا أن تربَةَ الشرقِ لا تختلفُ كثيرًا عن تُربَةِ الغربِ لو تَعَهَّدها الزَّارِعُونَ.

كانَ لمصطفى كامل أناملُ أشبَهَ شيءٍ بريشَةِ الموسيقار يضربُ بها على أوتار القلوب، وكأنما كانَ بينَه وبينَها سلكٌ كَهربائيٌّ، فهيَ تتحرَّكُ بحركَتِه وتسكُنُ بسُكونِه.

ما كانَ «مُصطفى كامِل» أذكَى الناس، ولا أعلَمَ الناس، ولا أعقَلَ الناسِ، ولكنَّهُ كان أشجَعَ الناسِ.

كانَ يفكِّرُ فيقتنعُ فيصمِّمُ فيمضي فلا يَنْثَني حتَّى الموت. كانَ يُخطِئُ أحيانًا في اتِّخاذِ الوسائِلِ إلى آمالِهِ، ولكنَّه كان إذا اتَّخذَها لا يتَمَهَّلُ ريثما يَتَبَيَّنُ أيَّ طريق يأخُذُ، ولا أيَّ مَسلَكٍ يَسلُكُ، ومخافَةَ أن تَفتُرَ همَّتُهُ بينَ الأخذِ والرَّدِّ، فيكونَ خَطؤه في تردُّدِهِ أكثرَ من خطئِهِ في جهادِهِ.

كانَ لهُ منافِسُونَ يرمونَهُ بالخِفَّةِ والطَّيْشِ ويقولونَ له: إنك مُخطِئٌ أو مُضِرٌّ، أو غيرَ مُحسنٍ، أو غيرَ عَظيم، فما كانَ يصدِّقُ مِن ذلكَ شيئًا كأنما كان ينظُرُ بعَيْنِ الغَيْب إلى هَذَا اليوم الذي اتَّفَقَ فيه أصدِقاؤهُ وأعداؤُهُ، وخُصُومُهُ وأولياؤه، عَلى أنه رَجُلٌ عَظيمٌ.

ما كانَ «مصطفى كامِل» منَ الأغنياءِ، ولا مِن بيتِ المُلْكِ، وما كانَ آمِرًا ولا ناهِيًا. وَلَا رَافِعًا ولا خَافِضًا. ولكنَّه لقيَ مِن إجلالِ الناس لمَوْتِهِ وإعظامِهم لمُصيبَتِهِ ما لَمْ يَلْقَ واحِدٌ مِن هؤلاءِ ولا فَضْلَ لَهُم في ذلكَ عليه، فهو الذي عَلَّمَهُم كيفَ يحترمونَ العقولَ، ويُجلُّونَ المناقِبَ والمزايا.

فيا أَيُّها القارئُ الكريمُ، إن كان لكَ وَلَدٌ تُحِبُّ أنْ تَجْعَلَهُ رجُلًا فاجعَلْ بينَ يدَيْهِ حياةَ «مصطفى كامل» ليتعَلَّمَ مِنها الشجاعَةَ والإقدامَ.

ويا أَيُّها المصريُّ، كُنْ أحْرَصَ الناس على وَطَنِيَّتِكَ. ولا تَبِعْ بها بَدَلًا مِن عَرَضِ الدُّنيا وزُخرُفها. فإنَّكَ إن فعلتَ كنتَ «مصطفى كامل».

ويا أَيُّها الإنسان، أَقْدِمْ على عَظَائِمِ الأُمور، ولا تلتَفِتْ يَمْنَةً ولا يَسْرَةً واختَرِقْ بسَيفِ

شَجاعَتِكَ صُفوفُ المعترضينَ والناقِمينَ والهازئينَ والساخِرينَ فإنَّهم سَيَعترفُونَ بفَضلِكَ، ويُسَمُّونَكَ عَظيمًا كما سَمَّوا «مصطفى كامل».

ويا أيُّها الراحِلِ المودِّع، إنَّ بينَ جَنْبَيَّ لوعةً تعتلجُ لِفراقِكَ لا أعرفُ سَبيلًا إلى التعبيرِ عَنها إلا القَلَم.

وهَأنذَا أُعالِج القَلَم عِلاجًا شديدًا على أن يُسعِفَني بحاجَتي، وأُقَلِّبُهُ ظَهرًا لبَطن، وأُكثِرِ مِن استِمدادِهِ، وأضغَطُ به القرطاس ضَغطًا شديدًا، فلا أراهُ يُغْني عَني شيئًا.

خَطَرَ لي أنَّ الحزنَ سُويداءُ القلب، وأنه بعيدُ الغَوْر ولا تبلُغُهُ هذه الأداةُ القصيرةُ التي في يَدي، فاستبْدَلْتُ بها أداةً أطوَلَ مِنها، فكان حُكمُها حُكْمَ سابِقَتِها.

إذن، كيفَ أُعَبِّرُ عَن وَجْدي، أيُّها الفقيدُ الكريم، وَقَدْ خَرَسَ القَلَمُ وَعَيَّ اللسانُ؟!

الآنَ عرفتُ السبيلَ ووصلتُ إلى ما أُريدُ.

أنتَ الآن في عالم الأرواح. وقد انكَشَفَ لك كلُّ شيءٍ من أسرار النفوس ودَخَائِلِ القلوبِ، ولابُدَّ أن يكونَ قَدِ انكَشَفَ لكَ ما يَكُنُّ قَلبي منَ الوَجْدِ عَلَيْكَ، والأَسَفِ على فِراقِكَ. فما حاجتي بعدَ ذلكَ إلى تَرْجَمَةِ القلمِ أو تَعبيرِ اللِّسان.

أيها الراحِلِ المودِّع، طِبتَ حَيًّا ومَيتًا. خدمتَ أُمَّتَكَ في حياتِكَ وبعدَ ممَاتِك، ولولا حياتُك ما نَمَتِ العاطفةُ الوطنيةُ في نُفُوسِ المصريينَ، ولولا مماتُكَ ما عَرَفَ العالَمُ أجمَعُ أنَّ الأمةَ المصريةَ على اختِلاف مَشاربها ومَذاهبِها تجمَعُها كلمةٌ واحِدَةٌ هي حُبُّ الوطنِ وحبُّ رجالِهِ العاملين.

دمعة على الإسلام

كتبَ إليَّ أحدُ علماءِ الهندِ كتابًا يقولُ فيه: إنه اطَّلَعَ عَلى مُؤَلَّفٍ ظهرَ حَديثًا بلُغَةِ «التأميل»، وهيَ لُغَةُ الهنودِ الساكنينَ بناقورَ ومُلحقاتها بجنوب مدارس[1] مَوْضُوعُه: «تاريخُ حياةِ السيدِ عبد القادرِ الجيلاني، وذكرُ مناقبِهِ وكراماتِهِ»، فَرَأى فيه منَ الصفاتِ والألقابِ التي وَصَفَ بها الكاتبُ السيدَ عبدَ القادر ولَقَّبَهُ بها، صفاتٍ وألقابًا هي بمقام الألوهية أليقُ منها بمَقام النُبُوَّةِ. فَضْلًا عَن مقام الولايةِ، كقوله: «سيِّدِ السمواتِ والأرض»، و«النَفَّاعَ الضّرارَ»، و«المتصرِّف في الألوان»، و«المُطَّلَع على أسرار الخليقة»، و«مُحيي المَوْتَى»، و«مُبرئ الأعمى والأبرص والأكمه»، و«أمرهُ من أمر الله»، و«ماحي الذنوب»، و«دافعُ البلاء»، و«الرافعُ الواضِع»، و«صاحبُ الشريعة»، و«صاحبُ الوجودِ التامّ»، إلى كثير من أمثال هذهِ النُّعوتِ والألقاب!

ويقولُ الكاتبُ إنه رأى في ذلكَ الكتاب فصلًا يشرحُ فيه المؤلِّفُ الكيفيَّةَ التي يجبُ أن يَتَكَيَّفَ بها الزائرُ لقبر السيِّدِ عبد القادر الجيلاني يقولُ فيه: «أولُ ما يجبُ على الزائر: يَتَوَضَّأ وُضُوءًا سابغًا، ثم يصلِّي رَكعَتَيْن بخُشوع واستحضار، ثم يَتَوَجَّهُ إلى تلكَ الكعبة المشرَّفَةِ، وبعدَ السلام على صاحب الضريحِ المعظَّم يقول:

«يا صاحبَ الثقلَينْ أغِثني وأمدَّني بقضاءِ حاجتي، وتفريج كُربَتي، أغِثْني يا محيي الدين عبد القادر، أغِثني يا ولّي عبد القادر، أغِثْني يا سلطانَ عبد القادر، أغِثْني يا بادشاه عبد القادر، أغثني يا خوجة عبد القادر».

«يا حضرةَ الغوثِ الصَّمداني، يا سيدي عبد القادر الجيلاني، عبدُكَ ومريدُكَ مظلومٌ عاجِزٌ محتاجٌ إليكَ في جَميع الأمور في الدين والدنيا والآخرة»[2].

ويقولُ الكاتبُ أيضًا: إن في بَلدةِ «في الهندِ قَبْرًا يسمَّى «شاه الحميد» وهو أحَدُ أولادِ السِّيدِ عبدِ القادر - كما يزعمونَ - وإن الهنودَ يسجدونَ بينَ يَدَيْ ذلك القبر

(١) مدارس: اسم مكان ببلاد الهند.

(٢) هذه العبارات من كلام غلاة الصوفية ويرفضه المتصوفة الذين يسيرون على الكتاب والسنة.. فتنبه.

سجودَهم بينَ يَديَ الله. وإن في كلِّ بلدةٍ من بلدانِ الهنودِ وقُراها مَزارًا يمثِّلُ مَزارَ السيِّدِ عبدِ القادر؛ فيكونُ القِبلة التي يتوجَّهُ إليها المسلمونَ في تلكَ البلادِ والملجأ الذي يَلجئون في حاجاتهم وشدائدهم إليه. ويُنفقونَ من الأموالِ على خَدَمَتِهِ وسَدَنَتِه[1]، وفي مَوالِدِه وحَضراتِهِ ما لَو أُنفِقَ على فُقراءِ الأرضِ جَميعًا لصَاروا أغنياء.

هذا ما كتبهُ إليَّ ذلكَ الكاتبُ. ويعلمُ اللهُ أني ما أتممتُ قراءَةَ رسالَتِهِ حتى دارَت بي الأرضُ الفضاءُ، وأظْلَمتِ الدُّنيا في عَيني. فما أُبصِرُ مما حَوْلي شَيئًا. حُزنًا وأسَفًا على ما آلَتْ إليه حالةُ الإسلام بينَ أقوام أنكروهُ بعدَما عَرَفُوه، وَوَضَعُوهُ بعدَما رَفَعُوهُ.. وذَهَبُوا به مَذَاهِبَ لا يَعرِفُهَا.. ولا شأنَ لهُ بها.

أيُّ عَينٍ يَجمُلُ بها أن تَسْتَبْقيَ في مَحاجرها قطرةً واحدةً مِنَ الدمعِ فلا تريقَها أمامَ هذا المنظر المؤثر المحزنِ؛ منظر أولئك المسلمينَ، وهُم رَكَّعٌ سُجَّدٌ على أعتاب قبر ربما كان بينَهم منْ هُو خيرٌ مِن ساكِنِهِ في حياتِه، فأحرَى أن يكونَ كذلكَ بعدَ مماتِه!

أيُّ قلب يستطيعُ أن يستقرَّ بينَ جَنْبَيْ صاحِبِهِ ساعةً واحدةً فلا يطيرَ جزَعًا حِينما يَرَى المسلمينَ- أصحابَ دين التوحيدِ- أكثرَ مِنَ المشركينَ إشراكًا بالله، وأوسَعَهم دائرٌ في تَعَدُّدِ الآلهةِ وكثرةِ المعبودات!

لِمَ ينقِمُ المسلمونَ التثليثَ مِنَ المسيحيِّينَ.. لمَ يحملونَ لهُم في صُدورهِم تلكَ الموجدةَ وذلكَ الضغنَ، وعلامَ يُحاربُونهم، وفيمَ يُقاتِلونَهم وهُم لَم يبلغُوا مِنَ الشِّرْكِ بالله مَبْلَغَهم، ولم يُغرقوا فيه إغراقَهم؟!

يدينُ المسيحيونَ بآلهةٍ ثلاثة، ولكنّهم يَشعرونَ بغرابةِ هذا التعدُّدِ وبُعدِهِ عن العقل، فَيتأوَّلُونَ فيه ويقولونَ إنَّ الثلاثَةَ في حُكم الواحِد. أمَا المسلمونَ فيدينونَ بآلافٍ مِنَ الآلهةِ أكثرُهاجذوعُ أشجار، وجُثَثُ أمواتٍ، وقِطَعُ أحجارٍ، من حيثُ لا يشعرونَ!

كثيرًا ما يُضمِرُ الإنسانُ في نفسِه أمرًا، وهو لا يَشعُرُ به، وكثيرًا ما تشتملُ نفسُه على عَقيدةٍ خَفيَّةٍ لا يحسُّ باشتمالِ نفسِه عليها، ولا أَرَى مَثَلًا لذلك أقربَ مِنَ المسلمين الذين يَلتَجِئونَ في حاجَاتهم ومَطالِبهم إلى سُكَّانِ القُبُورِ ويتضَرَّعونَ إليهم تَضَرُّعَهُم للإلهِ المعبودِ. فإذا عَتَبَ عَليهم في ذلك عاتبٌ، قالوا: إنا لا نعبُدُهم، وإنما نتوَسَّلُ بهم إلى الله؛ كأنهم يشعرونَ أن العبادةَ ما هُم فيه، وأنَّ أكبَرَ مظهر لألوهيةِ الإلهِ المعبودِ أن

(١) سادن المكان: القائم على خدمته.

يقِفَ عِبادُهُ بينَ يَدَيْهِ ضارعينَ خَاشِعينَ، يلتمسونَ إمدادَهُ ومعونَتَهُ، فَهُم في الحقيقةِ عابِدونَ لأولئكَ الأمواتِ من حيثُ لا يشعرون.

جاءَ الإسلامُ بعقيدةِ التوحيدِ؛ ليرفَعَ نفوسَ المسلمينَ، ويَغرسَ في قُلُوبهم الشرفَ والعِزَّةَ والأنفَةَ والحميَّةَ، وليُعْتِقَ رقابَهم مِن رقِّ العبوديَّةِ، فلا يذلَّ صغيرُهم لكبيرهم ولا يهابَ ضعيفُهم قويَّهُم، ولا يكونَ لذي سُلطانٍ بينَهم سُلطانٌ إلا بالحقِّ والعَدل. وقد تركَ الإسلامُ بفضلِ عَقيدةِ التوحيدِ ذلكَ الأثرَ الصالحَ في نُفُوس المسلمينَ في العُصُور الأُولَى، فكانوا ذَوِي أَنَفَةٍ وعِزَّةٍ، وإباءٍ وغيرَةٍ، يضربونَ على يَد الظالمِ إذا ظَلَم، ويقولونَ للسُّلطانِ إذا جاوَزَ حَدَّهُ: قِفْ مكانَكَ، ولا تَغْلُ في تَقديرِ مِقدارِ نفسِك؛ فإنما أنتَ عبدٌ مخلوقٌ لا رَبٌّ مَعبودٌ، واعْلَمْ أنه لا إله إلا اللهُ.

هذهِ صورةٌ مِن صُوَرَ نُفوسِ المسلمينَ في عَهْدِ التوحيدِ، أمَّا اليومَ وقد داخَلَ عَقديَتهم ما داخلَها مِن الشركِ الباطِنِ تارَةً والظاهرِ أُخرى، فقَد ذَلَّتْ رقابُهم، وخَفَقَتْ رُءوسُهم، وضَرَعَتْ نُفُوسُهم، وفتَرَتْ حَمِيَّتُهُم، فَرَضَوْا بخُطَّةِ الخَسْفِ[1]، واستَنامُوا[2] إلى المنزلَةِ الدُّنيا، فوَجَد أعداؤُهُم السبيلَ إليهم، فَغَلَبُوهُم على أمرهم، ومَلَكُوا عليهم نُفُوسَهُم وأموالَهُم ومَواطِنَهم وديارَهُم فأصبَحُوا مِنَ الخاسرين.

والله لَنْ يسترجعَ المسلمونَ سالِفَ مَجدِهم، ولَن يبلغُوا ما يُريدونَ لأنفسِهم مِن سعادةِ الحياةِ وهَناءَتها إلا إذا استَرْجَعُوا قبلَ ذلكَ ما أضاعُوهُ مِن عقيدةِ التوحيد. وإنَّ طُلُوعَ الشمس مِن مَغربها، وانصِبابَ مَاءِ النهر في مَنبعِهِ، أقربُ مِن رُجُوعِ الإسلام إلى سالِفِ مَجدِهِ، ما دَامَ المسلمونَ يقفونَ بينَ يَدَي الجيلاني كما يقفونَ بينَ يَدَي الله، ويقولونَ للأَوَّلِ كما يقولونَ للثاني: «أنتَ المتصرِّفُ في الكائناتِ، وأنتَ سيِّدُ الأرضِينَ والسمواتِ».

إن اللهَ أغْيَرُ على نفسه مِن أن يُسعدَ أقوامًا يَزْدَرونَهُ ويحتَقِرونَهُ ويتَّخِذُونَهُ وَراءَهُم ظِهْرِيًّا، فإذا نَزَلَتْ بهم جائحةٌ، أو ألَمَّتْ بهم مُلمَّةٌ، ذَكَروا الحجَرَ قبلَ أن يذكُروهُ، ونَادُوا الجذْعَ قبلَ أن يُنادُوه.

بمَنْ أستغيثُ؟! وبمَنْ أستنجِدُ؟! ومَن الذي أدعُوهُ لهذهِ المُلِمَّةِ الفادِحَةِ؟! أأدعُو

(١) خُطة الخسف: المذلة، ومنه قول عمر بن الخطاب، «يعجبني من الرجل أنه إذا اسيم خطة خسف أن يقول بملء فيه: لا.» أي إذا دُعي إلى المذلة رفض.

(٢) الاستنامة: الاستكانة والمذلة.

عُلماءَ مِصرَ وهُم الذين يتَهافَتُونَ على «يوم الكَنْس»(١) تهافُتَ الذُّباب على الشَّراب؟! أم علماءَ الآستانَةِ وهُمَ الذينَ قَتَلُوا جمالَ الدين الأفغاني فيلسوفَ الإسلام؛ ليحيوا أبا الهُدَى الصيَّادي شيخَ الطريقةِ الرفاعية؟! أم عُلماءَ العَجَم وهُم الذين يحجُّونَ إلى قبرِ الإمام كما يحجُّونَ إلى البيتِ الحرام، أم عُلماءَ الهند وبينَهم أمثالُ مؤلِّف هذا الكتاب.

يا قَادَةَ الأمَّةِ ورؤساءَها، عَذَرْنا العامَّةَ في إشراكِها وفَسَادِ عقَائِدِها، وقُلْنا إن العامِّيَّ أقْصَرُ نَظَرًا وأضْعَفُ بَصيرةً مِن أن يتصوَّرَ الإلوهيَّةَ إلا إذا رآها مائِلَةً في النُّصُب والتماثيلِ والأضرحَةِ والقُبُور. فما عُذرُكُم أنتُم وأنتم تتلونَ كتاب الله، وتقرءونَ صِفَاتِه ونُعُوتَه، وتفهمونَ مَعنى قولِهِ تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥]، وقوله مُخاطبًا نبيَّه: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾[الأعراف: ١٨٨]، وقوله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧].

إنكُم تقولونَ في صَباحِكم ومَسائكم وغدوكُم ورَواحِكُم: «كلُّ خير في اتِّباع مَنْ سَلَفَ، وكلُّ شَرٍّ في ابتداع مَنْ خَلَفَ». فهل تعلمونَ أن السَّلَفَ الصالحَ كانوا يُجصِّصُونَ(٢) قَبرًا، أو يَتَوَسَّلُونَ بضريح؟! وهَل تعلمونَ أنَّ واحِدًا منهُم وقَفَ عندَ قبر النبيِّ ﷺ، أو قبر أحَدٍ من أصحابه وآل بيتِه، يسأله قضاءَ حاجَةٍ أو تَفريج هَمٍّ؟! وهل تعلمونَ أنَّ الرِّفَاعيَّ والدُّسوقيَّ والجيلانيَّ والبدويَّ أكرمُ عندَ اللهِ وأعظمُ وَسيلةً إليهِ مِنَ الأنبياءِ والمرسَلين، والصَّحابَةِ والتابعين؟! وهَل تعلمونَ أن النبيَّ ﷺ حينَما نَهَى عن إقامَةِ الصُّورَ والتماثيلِ نَهَى عَنها عَبَثًا ولَعِبًا؟! أم مخافَةَ أن تعيدَ للمسلمينَ جاهِليَّتَهم الأولى؟! وأيُّ فرق بينَ الصُّورِ والتماثيل وبين الأضرحةِ والقُبور، ما دامَ كلٌّ مِنها يجرُّ إلى الشِّرك، ويُفسِدُ عقيدةَ التوحيد؟!

واللهِ، ما جهلتُم شيئًا مِن هذا؛ ولكنَّكُم آثَرْتُمُ الحياةَ الدُّنيا على الآخِرَة، فعاقَبَكُمُ الله على ذلك بسَلْب نِعمَتِكُم، وانتِقاض أمركُم، وسَلَّطَ عليكُم أعداءَكُم يَسْلُبُونَ أوطانكُم، ويستعبدونَ رقَابَكُم، ويُخرِّبُونَ ديارَكُم، والله شَديدُ العِقابِ.

---

(١) يوم الكنس: جاء في طبعة ١٩١٠م: يوم يذهب فيه جميع علماء الدين إلى ضريح الإمام الشافعي لحضور كَنسهِ والتبرك بترابه، وكان ذلك في العصور الغابرة.
(٢) يجصصون القبر: يطلونه بالجصّ.

السياسة

حضرة السيد الفاضل

ما لَك لا تُكثِرُ مِنَ الكتابَةِ في الشئونِ السياسيَّةِ، إكثارَكَ منها في الشئونِ الأخلاقيَّةِ والاجتماعية؟! وكيفَ يضيقُ بالسياسَةِ قَلَمُكَ، وقد وَسَعَ ما هو أدقُّ مَذهبًا مِنها. فاكتُبْ لنا في السياسة، فأُمَّتُكَ تحبُّ أن تراكَ سياسيًّا، والسلام.

«فلان».

أيها الكاتب..

يَعلمُ الله أني أبغضُ السياسةَ وأهلَها بُغْضِي للكَذِبِ والغشِّ، والخيانةِ والغَدْر.

أنا لا أُحِبُّ أن أكون سياسِيًّا؛ لأني لا أُحِبُّ أن أكونَ جَلادًا فلا فرقَ عِندي بينَ السياسيِّينَ والجلَّادينَ، إلا أنَّ هؤلاءِ يقتلونَ الأفرادَ، وأولئكَ يقتلونَ الأُمَمَ والشُّعوبَ.

هل السياسيُّ إلا رجُلٌ قَد عرفَتْ أُمَّتُهُ أنه لا يوجَدُ بينَ أفرادِها مَنْ هوَ أقسَى مِنه قَلبًا، ولا أعظَمُ كَيدًا، ولا أكثرُ دَهاءً ومَكْرًا؛ فَنَصَّبَتْهُ للقضاءِ على الأُمَمِ الضَّعيفَةِ، وسَلْبِها ما وَهَبها اللهُ مِنَ الحسناتِ، وأجزَلَ لها مِنَ الخيرات؟

أليسَ أكبرُ السياسيِّينَ مَقَامًا، وأعظمُهم فَخرًا، وأسْيرُهُم ذِكرًا، ذلك الذي نَقرأ صَفحاتِ تاريخِهُ فنَرَى حُروفها أشلاءَ القَتلى، ونُقَطَها قطراتِ الدماء؟!

أيستطيعُ الرجُلُ أن يكونَ سِياسيًّا إلا إذا كانَ كاذِبًا في أقوالِهِ وأفعالِه، يُبطِنُ ما لا يُظهِرُ ويُظهِرُ ما لا يُبطِنُ، ويبسُم في مَوطِن البُكاءِ، ويَبكي في مَواطِنِ الابتِسام؟!

أيستطيعُ الرجُلُ أن يكونَ سِياسيًّا إلا إذا عَرَفَ أنَّ بينَ جَنْبَيْهِ قَلبًا مُتَحَجِّرًا لا يُقلقُهُ بُؤْسَ البائسينَ ولا تُزْعِجُهُ نَكبَاتُ المنكوبينَ؟!

كثيرًا ما يَسرقُ السارقُ، فإذا قَضَى مأربَهُ مِن عَمَلِهِ. رَفَعَ يَدَيْه إلى السماءِ مُتَضَرِّعًا إلى اللهِ تعالى أن يُرزِقَهُ المالَ حلالًا حتى لا يتناوَلهُ حرامًا وكثيرًا ما يقتلُ القاتلُ، فإذا فَرَغَ من أمرِهِ، جلسَ بجانِبِ قَتيلهِ يَبكي عليهِ بُكاءَ الثاكِلِ وَحيدَها، ويتمَنَّى بجَدْع

الأنف لو رَدَ إليه حياته، وافتَداهُ بنفسِه؛ أما السياسيُّ فلا يَرَى يَومًا في حياته أسعَدَ منَ اليوم الذي يعلَمُ فيه أنه قَد تَمَّ له تَدبيرُهُ في هَلاكِ شَعب، وقَتْل أُمَّةٍ. وآيةُ ذلكَ أنّه في يوم انتصاره - كما يَسَمِّيه هو - أو في يوم جَريمتِه - كما أُسميه أنا وتُسميِّه العَدَالةِ الإنسانية - يَسْمَعُ هُتافَ الهاتفينَ باسمِه، واسم الجريمَةِ التي ارتكَبها مُطمَئِنَّ القَلْب، مُثْلجَ الصَّدْر، حتَّى لَيُخَيَّلُ إليه أن الفضَاءَ بأرضِهِ وسَمَائِهِ أضيَقُ مِن أن يَسَعَ قلبَهُ الطائرَ المحلِّقَ فَرَحًا وسُرورًا.

يَقولونَ: إن السياسةَ ليسَت عِلمًا منَ العُلُوم التي يَتَلَقَّاها الإنسانُ في مَدرسَة أو يَدرُسُها في كِتابٍ، وإنما هيَ مجموعَةُ أفكارٍ قانونُها التجاربُ، وقاعِدَتُها العَمَلُ.. أتدري لماذا؟!

لأنَّ العلماءَ أشرفُ مِن أن يُدَونوا المكايدَ والحِيلَ في كتاب.. ولأن المدارسَ أجَلُّ مِن أن تجَعَلَ بجانب دروس الأخلاقِ والآداب دُروسَ الأكاذيب والأباطيل، وإلا فكُلُّ طائفةٍ منَ المعلومات المتشابهةِ تدخُلُ بطبيعَتِها تحتَ نِظامٍ عامٍّ يؤلِّفها، ويجمع شتاتها ويُسَمَّى علمًا.

هؤلاءِ هُمَ السياسيُّونَ، وهذهِ هي أخلاقُهم وغرائزُهم، فهلَ تظنُّ يا سيدي أنَّ رجُلًا نَصَبَ نفسَه لخدمَةِ الحقيقة، ومُناصَرَتها على الباطِل، استِنفاذَ الفَضيلَةِ مِن مخالبِ الرَّذيلَةِ، ووقَفَ قَلَمَهُ على تهذيب النُّفوسَ وتَرقِيَة الأخلاق.. ومَلأ في رسائِله فَضاءَ الأرض والسماءِ بُكاءً على الضُّعفاءِ والمساكين والمظلُومينَ والمضطهدينَ، يَستطيعُ أن يكونَ سِياسيًّا، أو محاسبًا للسياسيِّين؟!

خداع العناوين

لقد جَهَل الذين قالُوا: إنَّ الكتابَ يُعرَفُ بعُنوانِهِ.. فإني لَم أرَ بينَ كُتُبِ التاريخ أكذَبَ مِن كتاب «بدائع الزهور» ولا أعذَب من عُنوانِهِ، ولا بينَ كُتُبِ الأدب أسخَفَ من كتاب «جواهرِ الأدب» ولا أروَعَ من اسمه، كما لَم أرَ بينَ الشعراءِ أعذَبَ اسمًا، وأحَطَّ شِعرًا من «ابن مليك» و«ابن النبيه» و«الشاب الظريف».

لقد كَثُرَ الاختلافُ بينَ العناوين وبينَ الكُتُبِ حتى كِدنا نقولُ: إن العناوينَ أَدَلُّ على نَقَائِضِها منها على مَفهوماتها.. وألصَقُ بأضدادِها منها بمنطُوقاتها، وإنَّ العنوانَ الكبيرَ حيثُ الكِتابُ الصغيرُ، والكتابَ الجليلَ حيثُ العنوانُ الضئيلُ.

الأتقياء:

لولا خداعُ العناوينِ ما سَمِعْنا صالِحًا تقِيًّا كلَّ مَنْ حَرَّكَ سُبْحَتَهُ.. وأطالَ لِحيتَهُ، وَوَسَّعَ جُبَّتَهُ، وكَوَّرَ عِمامَتَهُ. ولقَد نَعلمُ أنَّ وراءَ هَذا العنوانِ كتابًا أسوَدَ الصفحاتِ كثيرَ السقطاتِ، وأنَّ تحتَ هذا الستارِ الحريريِّ الرقيقَ نَفْسًا سَوْدَاءَ مُظلِمَةً، لا ينفذُ إليها شُعاعٌ مِن أشِعَةِ الرحمةِ، ولا تَهُبُّ عليها نسمَةٌ مِن نَسَمَاتِ الإحسان.

لَن يؤمِنَ المؤمنُ حتَّى في سبيل الله، أو في سَبيل الجماعَةِ مِن ذَاتِ نَفسِهِ، أو ذَاتِ يَدِهِ، ما يَشُقُّ على مَثلِهِ الجودُ بمثلِهِ. أمَّا الجودُ بالشِّفاهِ للهَمْهَمَةِ، والأناملِ للمَسْبَحَةِ، فَعَمَلٌ لا يَتَكَلَّفُ صَاحِبَهُ له أكثرَ ممَّا يتكلَّفُ لتقليب ناظِرَيْهِ، وتحريكِ هُدْبَيْهِ. وهَل خُلِقَتِ الشفاهُ إلا للتَّحريكِ، والأناملُ إلا للتَّقليب؟!

إن للإيمانِ مَواقِفَ يمتحنُ اللهُ فيها عِبادَهُ؛ ليعلَمَ الذينَ صَدقُوا ويَعلَم الكاذبينَ. فإنْ بَذَلَ الضنينُ بمَالِهِ مَالَهُ في مواقِفِ الرحمةِ والشفقةِ، والشحيحُ بنفسِهِ نفسَهَ في سبيل الذَّوْدِ عن حَوْضِهِ.. والذبِّ عن عشيرتِهِ وقَوْمِهِ.. وضَعيفُ العزيمةِ ما يملِكُ مِن قوَّةٍ وأيْدٍ في مُغالَبَةِ شهواتِ نَفسِه ومُقاوَمَةِ نزواتها، فذلكَ المؤمنُ الذي لا يشوبُ إيمانَه رياءٌ ولا دهانٌ، ولا يخالِطُ يقينهُ خِداعٌ ولا كَذِبٌ. أو لا، فَأَهْوِنْ بهَمْهَمَتِهِ ومسواكِهِ

ومَسبَحَتِه، وهو بعنوان المنافِق الكاذِب أجدَرُ منه بعنوانِ التَّقِيِّ الصالح: ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ [العنكبوت: ٢].

الأمجاد:

يقولونَ إنَّ الولدَ سِرُّ أبيهِ، ويُريدونَ بذلكَ أنَّه المرآة التي تَرتَسِمُ فيها صُورَتُهُ، والبذرَةُ التي تكمُنُ فيها حَقيقَتُهُ. وعَلى هذهِ القاعِدَةِ بَنى البانونَ قاعِدَةَ المجدِ، فأعظَمُوا شأنَ الرجُلِ الذي يُمسِكُ بطَرَفِ سِلْسِلَةٍ في النسب يتَّصِلُ طَرَفُها الأعْلَى بعظيمٍ مِن عُظماءِ النُّفُوس، أو شَريفٍ مِن شُرَفَاء الأخلاق.

ثم ما زالَ الناسُ يعبثونَ بعُنوانِ الشَّرف، ويَتَوَسَّعُونَ في مَعناهُ، حتَّى نَظَمُوا في سلكِهِ الجبَابَرَةَ الذين يَسُمُّونَهم أُمراءَ، والظَّلَمَةَ الذين يُسَمُّونَهم مُلُوكًا، والسَّفَّاحينَ الذين يُسَمُّونَهُم قُوَّادًا، واللُّصُوصَ الذين يُسمُّونَهم أغنياءَ. فَساقَهُمُ الخطأُ في فَهْمِ الشرفِ إلى الخطأ في فَهْمِ المَجْدِ؛ فَسَمُّوا مَاجِدًا كلَّ مَنْ وُلِد في فراش مَلِكٍ وإنْ كانَ الحاكمَ بأمر الله، أو أمير وإن كانَ الحَجَّاجَ، أو وزيرٍ وإن كانَ ابنَ الزيات، أو قائدٍ وإن كان تيمور لنك، أو غَنِيٍّ وإن كان قارون.

لا مَجْدَ إلَّا مَجْدُ العِلم، ولا شَرَفَ إلا شَرَفُ التَّقوى، ولا عَظَمَةَ إلا عَظَمَةُ الآخِذينَ بيدِ الإنسانيةِ المعذَّبةِ، رحمةً بها وحَنانًا عَليها.

أُولئِكَ هُمُ الأمجادُ، وأُولئِكَ الذين يفخَرُ الفاخِرُ بالاتِّصال بهم، والانتماءِ إليهم، وأولئك هُمُ المفلحون.

الأغنياء:

لَم أرَ بينَ جماعة المُتَسَوِّلينَ الذين يَضربُونَ في الأرض وَرَاءَ لُقمَةٍ يَتبَلَّغُونَ بها أو خِرقَةٍ يَتَّقُونَ بها لَفْحَةَ الرَّمَضَاءِ[1]، وهَبَّةَ النَّكْبَاءِ، ولا بينَ البؤساءِ الذين يَحرقونَ فَحْمَةَ الليل بُكاءً ونَحيبًا على صِغار كفِراخ القَطَا[2]، يتَلَوَّنَ في مَضَاجِعِهم مِنَ الجُوعِ تَلَوِّي الأفاعي المضطربةِ فوقَ الرِّمالِ المُلتهبةِ وتحتَ الشمس المُحرقَةِ، أسوأَ حَالًا ولا أنكَدَ عَيْشًا، ولا أعظَمَ شقاءً مِن هؤلاءِ الفُقراءِ الذين يُسمِّيهم الناسُ أغنياءَ.

يأكلُ الموسِرُ الباخِلُ كما يأكلُ الفَقيرُ، ويجلسُ كَما يَجلسُ، وينامُ كَمَا ينامُ، ويَشْتَهي كما يَشْتَهي حتَّى لتكادُ تَثِبُ أمعاؤهُ مِن جَوْفِهِ وتَسيلُ أحشاؤه مِن بين أشداقِهِ،

(١) الرمضاء: شدَّة الحر. (٢) القطا: نوع من الطير يشبهُ الحمام.

شوْقًا إلى ما حَرَّمَ على نفسِه مِن أطايب العَيْشِ ولَذَائِذِه ويَستنُّ[1] استنانَ الجوادِ الضامِر في ميدانِ السَّبَقِ وَراءَ الدِّرهَم البعيدِ مَنالُهُ، حتَّى تنبهر أنْفَاسُه، وتتخاذَلَ أوْصَالُهُ، حتَّى لو تَخَيَّلَ أنَّ نجومَ السماءِ دَنانيرُ مَنثورَةٌ، لطَارَ إليها بغَير جناح، فَسَقَط هاويًا، أو أنَّ في بطن الأرض كَنزًا مَذخُورًا، لتَمَنَّى أن لو انفجرَ بُركانُها تحتُ قَدَميْهِ فابتَلَعَتْهُ فأصبَحَ مِن الهالكينَ.

الغنيُّ هُوَ الغَنِيُّ بما في يَدِهِ عَمَّا في أيْدي الناس، والفَقيرُ هُوَ الذي لا يُقنِعُهُ في هذه الحياةِ مَقْنَعٌ، ولا تَقِفُ بِهِ نفسُه عندَ مطمَع.

فَانْظُرْ تحتَ أيِّ عُنوانٍ مِن هذين العُنوانَيْنِ تَضَعُ البُخلاءَ المُوسرين؟!

المجرمون:

حضرتُ مَجلسًا مِن مجالِس الأحكام، حَكَم فيه قاضٍ مُرْتَشٍ على مُتَّهم سَرَقَ رَغيفًا، فَوَضَعْتُ يَدي على فَمي مخافَةَ أن يخرجَ أمرُ نَفسي مِن يَدي فأهتُفَ صارخًا لِمَا أَلَمَّ بقَلبي مِنَ الرُّعب والفَزَعِ صرخةً تُدَوِّي بها جوانِبُ القاعَةِ دويَّ الموجِ الثائر، في البَحر الزاخرِ قائلًا فيها: مَهْلًا رُوَيْدًا أيُّها الحاكِمُ الظالِمُ، فأنتَ إلى قاضٍ عادِلٍ تَقِفُ بينَ يَدَيْه، أَحْوَجُ منكَ إلى كُرسِيٍّ فَخم تجلسُ عَليه، وَلَو عَدَلَ القانونُ بينَكَ وبينَ هذا الماثِلِ بينَ يدَيْكَ لَبِثَّ وأعلاكُما الأسفَلُ.

إنَّك تَرْتَزِقُ في كلِّ شهر ثلاثينَ دينارًا، فَلَمْ تَرْتَشِ إلا لأنكَ شرهٌ طَمَّاع، ولَم يسرُقْ ذلكَ السارقُ الرغيفَ إلا لأنه جائِعٌ مُرتاعٌ. ولو مَلَكَ ثلاثينَ دِرهمًا فَقَطْ ما فَعَلَ فعلَتَهُ التي فَعَلَ. فأنتَ مُجرمٌ إلا أنكَ في وشاحِ شَريفٍ، وهو شريفٌ إلا أنه في شَمْلَةِ مُجرِمٍ.

فياللهِ للحقيقَةِ التي عَبَثَتْ بها القوانينُ، ولَعِبَتْ بعُقولِ الناس فيها العناوينُ.

رُبَّ نفس بين جُدرانِ السجونِ أطهَرُ قَلبًا، وأنْقَى ردُنًا[2]، وأبيَضُ عِرْضًا، مِن مِثلِها بينَ جُدرانِ القصور. ورُبَّ طريدةٍ من طرائدِ المجتمع الإنسانيِّ ساقَها القَدَرُ الذي ينصبُ حِبالَةَ مالِهِ لخرَاب البيوتِ العامِرَةِ، وقَتْلِ النفوس الطاهِرَةِ، أو ذلكَ القائدُ الذي يَسفكُ في موقِفٍ واحِدٍ من مواقِفِه دَمَ مائةِ ألفٍ أو يَزيدونَ، في غيرِ سَبيلٍ سِوى سَبيل المجدِ المصنُوعِ والفَخْرِ المَوْضُوعِ، أو ذلكَ السياسيُّ الذي يُدبِّرُ المكيدةَ للقضاءِ على

---

(١) استن الجواد: عدا عدوًا شديدًا. (٢) ردُنًا: ثوبًا.

أُمَّة ضَعيفةٍ آمِنَةٍ في سِرْبها، سَعيدةٍ في عَيْشِها؛ فيستعبدُ أحرارَها، ويستَذِلُّ أعِزَّاءَها، ثم يَسلُبُها أثمَنَ ما تَملِكُ يمينُها مِن حرِّيَّتها واستِقلالِها، وسَعادتِها وهَنَاءَتِها.

المتمدينون:

ليسَ بين المصريِّ وبينَ أن يأخذَ مِن إخوانِه المصريِّينَ لَقَبَ الشابِّ العصريِّ أو الإنسانِ الرَّاقي إلاَّ أن يَصقُلَ جبهَتَهُ، ويُصَفِّفَ طُرَّتَه، ويفتحَ فَمَهُ للابتسام المُتَصَنِّع ويُقَوِّسَ يَدَهُ للسلام المُتَعَمِّل، ويُكثِر في حَديثِهِ مِن ذِكْر المدنيَّةِ وشُئونها، وسَرْدِ أسماءِ نِسائِها ورجالِها، وطرُفِها ونوادِرها، ويَستحسِنَ ما تستَحْسِنهُ - وإن كانَ البرازَ والانتِحار - ويستطرفَ ما تَستطرفُهُ - وإن كانَ الزندقةَ والإلحادَ - ثم يزعَمُ أنه أرْقَى الناس أدبًا، وأحسَنَهم أخلاقًا، وأدَقُّهم نَظَرًا في إدراكِ سَقَطاتِ الناس وعَثَراتهم، وتحليل طَبائِعهِ وغَرائزهم. ثم لا يَحُولُ تَمدُيُنُهُ هذا بينَه وبينَ أن يكونَ فاسِقًا يَنتهكُ الحُرُمَاتِ، أو مُدمنًا يَترامَى على أعتاب الحاناتِ، أو أحمَقَ لا يصفَحُ عَن ذنوب، ولا يُغْضِي عَن هَفْوَةٍ، أو سَفِيهًا يَشتُم حتَّى أميرَه وسُلطانَهُ، ووالدَه وأستاذَه، أو وقَّاح الوَجْهِ لا يَستحي لمَكرُمَةٍ، ولا يستخذي لمُروءَةٍ، أو شَحيحًا لا يُشرِكُ صاحِبَهُ في مطعَم ولا في مَشرَب، ولا يَفتَحُ بابَهُ لضَيفٍ زَائر أو طارقٍ حاشرٍ، زاعمًا أنَّ التَّمدُّيُنَ شيءٌ وذاكَ شَيءٌ آخَرُ.

إن كانَ حقًّا ما يقولونَ مِن أنَّ التَّمدُيُنَ يَصقُلُ الطباعَ الخَشِنَةَ، ويُنيرُ النفوسَ المُظلِمَةَ، ويُهَذِّبُ الأخلاقَ الجافِيَةَ ويُوسِعُ الصدُورَ الحَرِجَة، فكثيرٌ مِمَّن نَدعُوهُم مُتَمَدْينينَ مُتوحِّشُونَ، وكثيرٌ مِمَّن نُسَمِّيهم هَمَجِيِّينَ مُهَذَّبونَ.

لو كان بي أن أكتُبَ لِمحْو الفسادِ مِنَ المجتمع الإنسانيِّ والقضاءِ على شُرورِهِ وآثامِهِ لما حَرَّكتُ يدًا، ولا جَرَّدَتُ قَلَمًا؛ لأني أعلمُ أن طَلَب المجال عثرَةٌ مِن عَثراتِ النفوس، وضِلَّةٌ مِن ضلالاتِ العُقُولِ. ولكنَّني أطلُبُ مَطلبًا واحِدًا - لا أرَى في عُقُول الناس وأفهامِهم ما يَحُولُ بينَهم وبينَ تصوُّرِهِ وإدراكِهِ - هو أن يُهَذِّبُوا قليلًا مِن هذهِ المُصطلحاتِ التي أنِسُوا بها والعناوين التي جَمَدُوا عَليها، فلا يَسمُّونَ المنافِقَ تَقيًّا، ولا المُتَمَجِّدَ ماجِدًا، ولا البخيلَ غنيًّا، ولا الفقيرَ مُجرمًا، ولا المتُوَحِّش مُتَمَدْيِنًا، حتى لا يَنزِعَ مُحسِنٌ عن إحسانِه، ولا يَسْتَمِرَّ مُسيءٌ في إساءَتِهِ.

الإغراق

بينَ الإغراق في المدح والإغراقِ في الذمِّ تموتُ الحقيقةُ مَوْتًا لا حياةَ لها مِن بعدهِ إلى يَومَ يُبعَثُونَ.

يسمَعُ السامعُ أنَّ زَيدًا مَلَكٌ كَريمٌ، ثم يسمَعُ أنهُ شيطانٌ رَجيمٌ، فيخرجُ منه صِفْرَ اليدَيْنِ، لا يَعلُم أين مكانُه مِن هذين الطَّرَفينِ.

يقولونَ إن المُشعوذينَ إذَا أَرَادوا أن يَسحَروا أعينَ الناس عَلَّقُوا في سَقْفٍ من السقوفِ قِطعَةِ مِنَ المغناطيس ووَضعُوا مُقابلَها في الأرض قطعَةً أُخرى ثم يتركونَ في الفضاءِ قِطعَةً مِنَ الحديدِ لا تزالُ تُضطربُ بين هذينِ الجاذِبيْنِ.

هكَذا تَضطربُ الحقيقةُ في أيدي المُغرقينَ اضطِرابَ الحديدِ في أيدي المُشَعْوِذِينَ.

الحقيقةُ بينَ الكاذِب والكاذِب كالجَبَل بينَ الجاذِب والجاذِب، كِلاهُما يَنتهي بِهِ الأمرُ إلى الانقِطاع.

لو عَلِم الذي ينصُبُ نفسَه للموازنةِ بينَ الأشخاص أنّه جالسٌ على كُرسِيِّ القضاءِ، وأنَّ الناس سَيسألُونَهُ عمَّا قال، كما يسألون القاضي عمَّا حَكَمَ، ما طاشَ سهمُه في حُكمِه، ولا رَكِبَ مَتْنَ الغُلُوِّ في تَقْديرِهِ.

كما أنه يجبُ على القاضِي أن يُقَدِّرَ لكلِّ جريمةٍ ما يُناسِبُها مِنَ العُقوبَةَ، كذلك يجبُ على الكاتِب أن يَضَعَ كلَّ شخصٍ في المنزلةِ التي وَضَعَتْهُ فِطرَتُهُ فيها، وأن لا يَعلُوَ به فوقَ قَدْرِهِ، ولا ينزِل به دونَ منزِلَتِه.

ليس بينَ كُتَّاب هذا العصر مَنْ لم يَقرأ في التاريخ القديم مُتناقِضَاتِ الحُكم على الأشخاصِ، وليسَ بينَهم مَنْ لم يتمنَّ أن يكونَ في مَوْضع أولئكِ المؤرِّخينَ المُتَطَرِّفينَ، حتَّى لا يَغلُو غُلوَّهُم، ولا يَتطرَّفَ تَطرُّفَهم في أحكامهم.

أيُّها الكُتَّابُ المحزونون، لا يُحزنْكُم مَا كانَ، فَقَضَى ذلكَ الزمانُ بخيره وشَرِّه، ولا سَبيلَ إلى رُجُوعِهِ، ولإنْ فَاتَكُم أن تكونوا مُؤرِّخي العصرِ الماضِي فَلَنْ يَفوتَكُم أن تكُونوا مُؤَرِّخِي العَصر الحاضر. وكما أنَّ للماضي مُستقبلًا وَهوَ حاضِرُكُم هَذا،

فسيكونُ لهذا الحاضِر مُستقبَلٌ آتٍ يحاسِبُكُم فيه رجالُه على إغراقِكُم في أحكامكم، كما تُحاسِبُونَ اليومَ رجالَ الماضِي عَلى غُلُوِّهِم في أحكامهم، وتَطَرُّفِهم في آرائهم.

إنَّ مِنَ المتناقَضِ بينَ أقوالِكُم وأعمالِكُم أن تَنْقِمُوا مِنَ المؤرِّخينَ المتقدِّمينَ ما أنتُم فاعِلونَ اليومَ، وتأخُذُوا عَليهم ما أنتُم به آخِذُون.

كلُّ كاتبٍ عندَكُم أكْتَبُ الكُتَّاب، وكلُّ شاعرٍ أشْعَرُ الشُّعَراءِ، وكلُّ مؤلِّف أعْلَمُ العُلَمَاءِ، وكلُّ خطيبٍ رئيسُ الأُمَّةِ، وكلُّ فَقيهٍ إمامُ الدِّين، فأينَ الفضلُ والمفضُول؟! وأينَ الرئيسُ والمرءوسُ؟! وكيفَ يكونُ زيدٌ اليومَ أفضَلَ مِن عَمرو، ويكونُ عَمرو غدًا أفضَلَ منه؟! وأينَ مَلَكَةُ التمييز التي وَهَبَكُم اللهُ إياها لتُمَيِّزوا بها بينَ درجات الناس ومنازلهم؟! وهل بَلغَ التفاوتُ بينَكُم في عُقُولِكُم وأذواقِكُم أن يكونَ الرجُلُ الواحِدُ في نَظَر بعضِكُم خيرَ الناسِ وفي نَظَرِ البعضِ الآخَرِ شَرَّ الناس؟!

إني حَبَسْتُ الآنَ قَلَمي عَن الكتابةِ؛ لأتَجرَّدَ مِن نفسِي ساعَةً من الزمانِ، فتخيَّلتُ كأني رجُلٌ مِن رجالِ العصور الآتيةِ، وأني ذهبتُ إلى دار مِن دُور الكُتُب القَديمَةِ؛ لأُراجِعَ تاريخَ أحَدِ عُظماءِ عَصرِكُم هَذَا، فقرأتُ ما كَتَبْتُمُوهُ عنهُ في كُتُبكُم وجَرائِدكُم، فرأيتُه تارَةً عَظيمًا وأُخرى حَقيرًا، ومَرَّةً شريفًا، ومرَّة وَضيعًا، ورأيتُه عالمًا وجاهِلًا، وذَكِيًّا وغَبِيًّا، وعاقِلًا ومَمْروزًا[1] في آنٍ واحد. فخرجتُ أضَلَّ ممَّا دخلتُ، لا أعرفُ من تاريخ الرجُلِ أكثرَ مِن أنه رجُلٌ، أي أنه ذَكَرٌ بالغٌ مِن بَني آدَمَ!

أيها القومُ، إنكُم لا تستطيعونَ أن تكُونوا رجالًا عادِلينَ في أحكامكم وآرائِكُم، إلا إذا أصلَحْتُم نفوسَكُم أوَّلًا، وتعلَّمْتُم كيفَ تَستَطيعُونَ أن تتجَرَّدوا مِن أهوائِكُم وأغراضِكُم قبلَ أن تتناوَلُوا أقلامَكُم.

أيها القوم، إن عَجَزْتُم عَن أن تكُونوا عادِلينَ فكُونوا راحِمينَ، فَارْحَمُوا أنفُسَكُم واعْفُوها مِنَ الدُّخولِ في مآزِقَ أنتُم عاجزُونَ عَنها، وارْحَمُونا فقَدْ ضَاقَتْ صُدورُنا بهذِهِ التناقِضاتِ، وسَئِمَتْ نفوسُنا تلكَ المُبالغَاتِ.

---

(١) الممروز: المصاب بخبل في عقله وهو المجنون.

اللقيطة

مَرَّ عَظيمٌ مِن عُظمَاءِ هَذهِ المدينةِ بزقاقٍ مِن أزقَّةِ الأحياءِ الوطنيَّةِ في ليلةٍ من ليالي الشتاءِ ضرير[1] نجمُها، حالِكٍ ظلامُها، فَرأى تحتَ جدار مُتداعٍ فتاةً صغيرةً في الرابعةَ عَشَرةَ مِن عُمرِها جالسةً القُرفُصَاءَ[2] وَقَد وَضَعتْ رأسها بينَ رُكبَتَيْها اتِّقَاءً للبردِ الذي كانَ يبعَثُ بها عَبَثَ النكباءِ بالعُودِ، وليسَ في يَدها ما تَتَّقِيهِ بهِ إلا أسمالٌ تَتراءَى مِزَقُهَا[3] في جِسمِها العاري كأنها آثارُ سِياطِ المُستَبِدِّينَ في أجسامِ المُستَعْبَدينَ.

وقفَ الرجُلُ أمامَ هذا المشهدِ المحزنِ المُؤَثِّر وقفةَ الكريمِ الذي تُؤلِمُهُ مناظرُ البؤس، وتُزعِجُ نفسَه مواقِفُ الشَّقَاءِ، ثم تقدَّمَ نحوَها ووَضَعَ يَدَهُ على عاتِقِها برِفق فَرَفَعَتْ رأسَها مُرتاعَةً[4] مَذعُورَةً وهَمَّتْ بالفِرار مِن بين يَدَيْه وهَي تصيحُ: «لا أعود.. لا أعود». فَلَم يَزَلَ يمسحُها[5] ويُرَوِّضُها حتى هَدأَ رَوْعُها وعَادَ إليها رُشدُها، وعلمَتْ أنَّها ليسَت بينَ يَدَي الرجُلِ الذي تخافُه، فنظرَتْ إليه نَظرةً لَو أنها اتَّصلَتْ بلسانٍ ناطِقٍ وَفَمٍ لَحدَّثَتْ عمَّا وراءَها مِن لواعِجِ الأحزانِ وكَوامِنِ الأشجانِ.

- ما اسمُك أيَّتُها الفتاة؟
- لا أعلَمُ يا سيدي.
- بماذا يُنادونَكِ؟
- يدعونَني اللَّقيطةَ.
- وهل أنتِ لقيطةٌ كما يقولون؟

نعم يا سيِّدي؛ لأنني لا أعرفُ لي أبًا ولا أُمًّا، في الأحياءِ ولا في الأمواتِ، سِوى رجُل يتولَّى شأني، ويَضُمُّني إليه في منزلِه، وكنتُ أحسَبُهُ أبي فيمتلئُ قَلبي سُرورًا به،

(١) ضريرٌ نجمُها: مظلم لا ضوء فيه.
(٢) القرفصاء: أن يحتبي الرجل بيديه فيضعهما على ساقيه وهو جالس.
(٣) المزق: القطع، والمعنى أثواب ممزقة. (٤) مرتاعة: خائفة.
(٥) يمسَحُها: يمرِّرُ يَدهُ عليها.

وعَطفًا عَليه، فلمَّا رأيتُ أنَّه يُعَذِّبُني عَذابًا أليمًا ويُحمِّلُني مِن أثقالِ الحياةِ وأعبائها ما لا يُحَمِّلُهُ الآباءُ أبناءَهم علمتُ أني وحيدَةٌ في هذا العالَم، وفهمْتُ مَعنى الكلمةِ التي يُناديني بها؛ فَأَلَمَّ بنَفْسي منَ الحُزنِ والألَم ما اللهُ عالِمٌ بهِ.

وكنتُ كلَّما مَشَيتُ في الطريق، ورأيتُ فتاةً صغيرةً سألتُها: أَلَكِ أُمٌّ؟ فتجيبني: نعم، ثم تَقُصُّ عَليَّ مِن قِصَصِ نِعمَتِها وَرَفاهِيتَها، وعَطْفِ أُمِّها عَليها، ورأفتها بها ما يَزيدُني هَمًّا، ويَملأُ قلبي يأسًا؛ حتَّى كان يُخَيَّلُ إليَّ أنَّني أذنَبْتُ قبلَ وُجودي في هَذا العالَمِ ذَنبًا عاقَبَني اللهُ عليهِ بهَذا الوجودِ بيدَ أني صَبَرْتُ على هذا الرجُل، وعلى ما كانَ يُكَلِّفُني بهِ مِنَ التَّسَوُّلِ على قارعَةِ الطريقِ إبقاءً على نفسي، وَضنًّا بحياتي أن تَغتالَها غوائِلُ الدهرِ، وكانَ كلَّما رأى حاجَتي إليه وإلى مأواهُ، اشتَطَّ في ظُلْمي، وَلَؤمَ في مُعامَلَتي، حتى صارَ يضربني ضَربًا مُبَرِّحًا كلَّما عدتُ إليه عشاءً بأقَلَّ مِنَ المبلغِ الذي فَرَضَ عَليَّ تقديمَه في كلِّ يوم.

ولم أَزَلْ أُصابِرُهُ وأحتَمِلُ منهُ ما يَعجزُ عن احتمالِهِ مثلي بُرهَةً مِنَ الزمانِ، حتَّى جاءَني الليلةَ بداهِيَةِ الدَّواهي، ومُصِيبَةِ المصائب، فقد حاوَلَ أنْ يَسلُبَ مِن بَينِ جَنْبَيَّ جَوْهَرَةَ العفافِ التي لم يَبْقَ في يَدي مَا يُعزِّيني عمَّا فقدتُه من هناءَةِ الحياةِ ونَعيمِها سِواها، فلم أرَ بُدًّا من أن أفرَّ مِن بين يَديْه مُتَسلِّلةً تحتَ جنح الظلام مِن حيثُ لا يَراني. وما زلتُ أمشي عَلى غير هُدًى، لا أعرفُ لي مَذهبًا ولا مُضطربًا، حتى أوَيْتُ إلى هذا الزقاقِ كما تراني. فهل لكَ يا سيدي أن تُحسِنَ إليَّ كما أحسَنَ الله إليك؟! وأن تبتاعَ لي رَغيفًا مِنَ الخبزِ أتبَلَّغُ به، فَقَدَ مرَّ بي يَومانِ لَم أذُقْ طَعامًا ولا شَرابًا؟

لم يَسمَعَ الرجُلُ منَ الفتاةِ هذهِ القِصَّةَ المُحزنةَ حتَّى استقبَلَها بدُمُوعٍ حارَّةٍ تَنحدِرُ عَلَى خَدَّيهِ انحِدارَ العِقدِ وَهي سلكُهُ فانتَثَر، ثم أخذَ بيدِها، ومَشَى بها صامتًا واجمًا يكادُ لا يَهتدي لسبيلِه حتَّى بَلَغَ قَصرَهُ. وهُناكَ صَنَعَ بها صُنْعَ الكريم بأهلِه، وأبلَغَها مِن دَهرِها ما لم تكُن تُمنِّي نفسَها بالوَشَلِ[1] القَليلِ منه.

وما هيَ إلا أيامٌ قلائلُ حتى ظَهَرَتْ في ذلكَ القصر العظيم فتاةٌ جَديدةٌ مِن أجمَلِ الفتياتِ وَجْهًا، وأرَقِّهن شمائِلَ.. وأكرَمِهِنَّ أخلاقًا، وأكمَلِهِنَّ آدابًا.. لا يعرفُ الناسُ عَنها سِوى أنها ابنةُ قريبٍ لصاحبِ القصرِ ماتَ عَنها وخَلَّفَها يتيمةً، فكانَ إلى هذا القصرِ مَصيرُها.

(١) الوَشَل: القليل من الشيء.

وكانَ لِصَاحب هَذَا القَصر فتاةٌ من الفتياتِ اللواتي رَبينَ التربيةَ الحديثةَ التي يُسمُّونها «التربيةَ العصريةَ» ويُريدونَ منها التربيةَ الأفرنجيَّةَ، فكانَت كلُّ ما حَصَّلَتْ مِنَ العلوم والمعارفِ والفنون.

١ - الرَّطانَةَ الأعجمية حتَّى مَع خادِمها الزنجيِّ، وكلبِها الرومي.

٢ - الوُلُوع بمطالَعَة الرواياتِ الغراميَّةِ الفاسِدَة.

٣ - البراعَة في مَعرفَةِ أيِّ الأَزياءِ أعلَقُ بالقلوبِ وأجذَبُ للِنفوس.

٤ - الكبرياءَ والعَظَمَة، واحتقارَ كلِّ مخلوقٍ سِواها حتى أبوَيْهَا.

٥ - الأَثَرَة وحُبَّ الذاتِ حُبًّا يملأُ قلبَها غيرةً وحَسدًا؛ حتى إنها لا تستطيعُ أن تسمَعَ وَصْفًا مِن أوصافِ الحُسن يُوصَفُ به سِواها.

رأَتْ هذه الفتاةَ اللقيطةَ قد أصبحَتْ تُقاسِمُها قلبَ أبيها وقلُوبَ زائِراتها مِنَ النساءِ بما وَهَبَها اللهُ مِن جمالٍ في الخَلْق، وحَلاوةٍ في الطَّبع، وعُذوبَةٍ في النفس، فأضمَرَتْ لها في قلبِها مِنَ البُغْض والمَوْجِدَةِ ما يُضمِرُهُ دَائِمًا أماثلُها مِن اللواتي رَبينَ تربيتَها، ونَهَجْنَ في الحياةِ مَنْهَجَها؛ فكانتَ تَتَعَمَّدُ إساءَتَها وازدِراءَها، وتُغري بتَبكيتِها وتأنيبِها، والفتاةُ لا تُبالي بشيءٍ مِن هذا وفاءً لسيِّدها وَوَليِّ نِعمَتِها، وذَهابًا بنفسِها عنَ النزولِ إلى مَنزلةِ مَنْ يغضبُ لمثلِ هذهِ الهناتِ، حتى حَدَثَتْ ذاتَ يوم الحادِثَةُ الآتيةُ:

دَخَلَ صاحبُ القصرِ قصرَه ليلةً مِنَ الليالي، فَبينَما هو صاعِدٌ في السُّلَّم إذ عَثَرَ برُقعَةٍ مُلقَاةٍ، فتناوَلَها فَقَرأَ فيها هذه الكلمةَ:

سيدتي..

أنا منتظرُكِ عندَ منتصفِ الليل في بُستانِ القصرِ تحتَ شجرةِ السرو المعهودّة.

«**حبيبك**»

فما أتمَّ الرجُلُ قراءَةَ الرقعةِ حتَّي دارَت بِهِ الأرضُ الفضاءُ، وحتَّى لَمَسَ قلبَه بِيَمينِه؛ ليعلَمَ هَل طارَ مِن مكانِه أم لا يزالُ باقيًا فيه، ثم كأَنَّه أرادَ أن يخفِّفَ ما أَلَمَّ بنفسِه مِنَ الحُزنِ والقَلَقَ فقال: لَعَلَّ ذلكَ الموعِدَ مع تلكَ الفتاةِ اللقيطةِ، ومن الظُّلم أن أتعَجَّلَ باتِّهام ابنتَي قبلَ أن أَقِفَ على الحقيقةِ.

فَنَظَرَ في ساعَتِهِ فإذا الساعةُ قريبةٌ، فَرَجَعَ أدراجَهُ، وما زالَ يترفَّقُ في مِشيَتِهِ ويتنقَّلُ

في الحديقةِ مِن شَجَرَةٍ إلى شجرةٍ حتَّى وَصَلَ إلى شَجَرَةِ اللقاءِ، فَكَمَنَ وراءَها ينتظرُ ما خَبّأ له الدهرُ مِن حَدَثَانِه، وَما أضمَرَ له الغيبُ في طيَّاتِهِ.

لم تكُنِ الرسالةُ رسالةَ الفتاةِ الوَضيعة، بَل رسالةُ السيِّدةِ الشريفة. وبينما كانت الثانيةُ واقِفَةً في غُرفَتِها أمامَ مِرآتِها تختارُ لنفسِها أجمَلَ الأزياءِ وأليقها بموقِفِ اللِّقاءِ، كانَت الأُولى نائمةً في غُرفَتِها نومًا هادئًا مُطمَئِنًّا لا تُزعِجُهُ زَوْرَةُ الطيف، ولا تَرُوعُه أحلامُ الشبَاب، حتى سَمِعتْ وَقْعَ أقدام سيِّدها على سُلَّم القصر فاستيقَظَتْ. ثم رابها مَوقِفُهُ فأشرَفَتْ عَليه مِن حيثُ لا يشعرُ بمكانها فَعَرَفَتْ كلَّ شَيءٍ.. وعرفَتْ أن سيِّدَها سيقفُ عَلى سِرِّ ابنتِه الذي كانت تعالجُ كتمانَه زَمَنًا طَويلًا.. وأنه لابُدَّ قاتِلٌ نفسَه في ذلكَ الموقِفِ حُزنًا ويأسًا.. فغنَاهَا مِن أمرِهِ ما عَناها، ثم أطرَقَتْ برأسِها لحظةً تتَلَمَّس وَجْهَ الحِيلَةِ في دَفْع هذهِ النازلةِ، وتَتَطَلَّبُ المخرجَ منها، ثم رَفَعَتْ رأسَها، وقَد قَرَّرَتْ في نفسِها أمرًا.

نَزَلَتْ مُسرعَةً منَ سُلَّم القَصر، فرأتِ الفتاةَ قَدَ خَرَجَتْ مِن باب القصر إلى ذلكَ الموعِدِ فأدْرَكَتها، وأمسَكَتْ بطَرَفِ ثوبها فارتاعَتِ الفتاةُ والتفتَتْ إليها وقالت لها: ماذا تُريدينَ مِني؟ أتتجَسَّسينَ عَليَّ؟! قالت لها: لا يا سيِّدتي.. وأفضَتْ إليها بالقِصَّةِ مِن مَبدئِها إلى مُنتهاها.. فَسُقطَ في يَدِها، وعَلِمَتْ أنَّ أباها قَد وَقَفَ عَلى سِرِّها، فقالت لها: لا تُزعِجي نفسَكِ، فإنَّ أباكِ لا يعلَمُ أيَّتُنا صَاحِبَةُ الكتاب، فَعُودي إلى غُرفَتِكِ، وسأذهبُ إلى الموعِدِ مَكَانَكِ، حتَّى إذَا رآني هناكَ ذَهَبَ مِن نفسِه ما كان يُخالِجُها مِنَ الشَّكِّ في أمرِكِ.

ثم استمرَّت أدراجَها حتى وَصَلَتْ إلى تلكَ الشجرةِ، وهنالكَ بَرَزَ الرجُلُ من مَكمَنِهِ، واقتربَ مِنها حتَّى عَرَفَها، فحَمَدَ اللهَ على سلامَةِ شَرفِهِ وشَرَفِ ابنتِه، ثم قالَ لها: أيتها الفتاة إني أحسَنْتُ إليكِ، واستَنقَذْتُكِ مِن يَدِ البؤس والشقاء، فأسأتِ إليَّ بما فعلتِ، حتَّى كِدتُ الليلةَ أهلكُ حُزنًا وكَمَدًا، وألصِقُ بابنَتي ذَنْبَكِ وأحملُ عليها عارَكِ، فاخرُجي مِن مَنزلي، فاللئيمُ ليسَ أهلًا للإحسانِ.

فخرجَتْ خائبَةً تَتَعَثَّرُ في أذيالِها، حتَّى وَصَلَت إلى شاطئ النهر، وهنالكَ أخرجَتْ مُذَكَّرَتَها مِن محفَظَتِها، وكتبَتْ فيها آخرَ كلمةٍ خَطَّتْها أنامِلُها:

«أحمدُ الله أني قدرتُ على مكافأةِ الرجُل الذي أحسنَ إليَّ بسَتْر عاره، وإزالةِ هَمِّهِ وحُزنه».

ثم أَلْقَتْ بنفسِها في النهر، وما هيَ إلا دورةٌ أو دورتانِ حتَّى افترَقَ ذانِكَ الصديقانِ الوفيَّانِ، جسمُها وروحُها، فطَفا منهُما ما طَفا، ورسَبَ ما رَسَبَ.

وفي صباح تلكَ الليلةَ عَثَر رجالُ الشرطةِ بجثَةِ الفتاةِ الشهيدةِ فَعَرفُوها، وعادُوا بها إلى مَنزلِ سيِّدها.. فبَكاها بكاءً كَثيرًا ونَدِم على ما أساءَ بهِ إليها مِن طَرْدِها وإزعاجِها، ثم أمرَ بدَفْنِها، ولم يَبْقَ في يدِه من آثارِها غيرُ حَقيبتِها.

مَرَّتِ الأيامُ تِلْوَ الأيام، وجاءتِ الحوادثُ إثرَ الحوادثِ، وظَهرَ للرجُل من أخلاق ابنتِه وطِباعِها، وتَهتُّكِها واستهتارِها ما لَم يكُن يَعرفُهُ مِن قبلُ، حتى ضاقَ بأمرها ذَرْعًا، وجَلَسَ في غُرفَتِهِ في إحدَى الليالي يفكِّر فيما ساقَ إليه الدهرُ مِن خطوبِه ورَزاياهُ، ثمّ أَلَمَّ به الضجرُ، فقامَ إلى صندوقِه يفتِّشُ عَن شيْءٍ يَتَلَهَّى به، فَعَثَرَ بتلكَ الحقيبة، ولَمَ يكُن قَد فَتَحَها قبلَ اليوم. فإنه ليقرأُ إذا عَثَرَ بتلكَ الكلمةِ الأخيرَةِ التي كتبتْها الفتاةُ على شَاطئِ النهرِ قبلَ مَوتِها، فما أتى على آخرِها حتَّى عَرَفَ كلَّ شيءٍ فَسَقَطَ مَغْشِيًّا عَليه يعالِجُ مِنَ الحزنِ والألمِ ما يعالجُ المُحْتَضَرُ مِن سكراتِ الموت.

وما استفاقَ مِن غشيَتِه حتَّى صارَ يَهذِي هذيانَ المحموم، وَلبثَ على هذه الحالِ بضعةَ أشهرُ، يمرضُ ثم يُبِلُّ، ثم يمرض ثم يُبِلُّ، حتى أدركَتْهُ رحمةُ اللهِ فمرضَ مَرَضًا لم يَنْقَضِ إلا بانقضَاءِ أَجلِه.

فيا أيها الوالدُ المجهول، الذي قَذَفَ بتلكَ الفتاةِ البائسة في بَحرِ هَذا الوجودِ الزاخرِ، أَعَلِمْتَ قبلَ أن تفعلَ فِعلتَكَ أنك ستُبرزُ إلى هذا العالم فتاةً تُلاقي شقاءَه وآلامَه ما لا قِبَلَ لها باحتِمالِه؟!

ويا أيها الآباءُ العُظماء، إن كنتُم تريدونَ أن تُسلِّموا بناتِكُم إلى هذه المدنيَّةِ الغربيَّةِ تتولَّى شأنَهُنَّ، وتكفَلُ لكُم تَربيتَهُنَّ، فانتزِعُوا مِن جُنوبِكُم قبلَ ذلكَ غرائِزَ الشهامَةِ والعِزَّةِ والإباءِ والأَنَفَةِ، حتى إذا رَزأَكُمُ الدهرُ فيهن، وفَجَعَكُم في أعراضِهنَّ وقفتُم أمام ذلك المشهدِ هادِئينَ مُطمَئنِّينَ لا تتعَذَّبُونَ، ولا تتألَّمُونَ.

ويا أيُّها الناسُ جميعًا؛ لا تحفلوا بعدَ اليوم بالأنساب والأحساب، ولا تُفرِّقوا بينَ تربيةِ الأكواخ وتربيةِ القُصور، وَلا تَعتقِدوا أن الفضيلةَ وَقْفٌ عَلى الأغنياءِ وحَبائسُ على العظماءِ، فقد علمتُم ما أضمَرَ الدهرُ في طيَّاتِ أحداثِه مِن رذائِلِ الشرفاءِ وفَضائِلِ اللُّقَطاءِ.

الصندوق

حضرة السيد الفاضل:

يوجَد في ضَريح السيِّدِ البدويِّ صُندوقٌ تُوضَعُ فيهِ النُّذور، ويَبلُغُ مجموعُها في العام نحوَ ستَّةِ آلافِ جنيه، فإذا فُتحَ ذلكَ الصندوقُ يختَصُّ بعضُ الخلفاءِ بأَخْذِ نَحْو الرُّبع ممَّا فيه، والباقي يُوزَّعُ على أصحاب الأنصبَةِ الكثيرينَ الذين يُعدُّونَ بالمئاتِ، فهل ترونَ أنَّ هذهِ القسمَةَ شَرعِيَّةٌ، مَعَ أنَّ الذينَ يأخُذونَ الألوفَ أغنياءُ والذينَ يأخذون الآحاد فُقراء؟

أفتنا أيها السيِّدُ الفاضل، بما يُوجِبُه الإنصافُ والعدلُ الديني في هذهِ المسألةِ التي أصبَحَتِ الشغلَ الشاغِلَ للكثيرِ منَ الناس؟

«ابن جلا»

أيها السائل..

أراكَ تسألُني عَن القسمَةِ الشرعيَّةِ في هذا المالِ كأنكَ تعتقدُ أنه ميراثٌ شَرعِيٌّ، وأنَّ لهؤلاءِ الذينَ تُسَمِّيهم أصحابَ الأنصِبَةِ من الحقِّ في هذا المالِ مثلَ ما للوارثينَ في مالِ المُورِّثين.

إنَّ الذي أعلَمُهُ أنَّ هَذَا الحقَّ المزعومَ حقٌّ مُوْهُوبٌ، لا يستطيعُ أن يحمِلَهُ الحاملُ على وَجْهٍ مِنَ الوجوهِ الشرعيةِ؛ لأنَّ الذين يَضعُونَ المالَ في هذا الصندوقِ وأمثالِهِ لا يُريدُونَ بذلكَ أن يَهَبُوهُ أحَدًا مِنَ السَّدَنَةِ والخَدَم. ولَو أنَّ ذلكَ كان غَرضَهم لوَضعُوهُ في أيديهم بَدَلًا منَ الصُّندوق. ولكنَّهم لمَّا تَصوَّروا أن ذلكَ الميتَ حَيٌّ في قبرِهِ يسمَعُ نَجواهم، ويفهمُ حَديثَهُم، ويُلَبِّي دُعَاءَهُم، تجسَّمَ في نَظَرهم هَذا الخيالُ، فأرادوا أن يُعطُوهُ جَميعَ أحكام الأحياءِ وَصِفَاتهم حتَّى حبَّ المالِ وادِّخاره، فخُيِّلَ إليهم أنَّ الصندوقَ مِن الميِّتِ بمنزلَةِ الكِيس مِنَ الحيِّ، فَهم يَهَبُونَهُ المالَ ويَضعُونَهُ في صُندوقِهِ؛ لأنهم يَعجِزُونَ عَن وَضْعِهِ في يَدِه.

أما كيفيَّةُ تصرُّفِ الميت بهذا المالِ، وكيفَ يُنفِقُهُ وفي أيِّ شيءٍ يَنتفعُ به، فذلكَ أمرٌ لا يخطُرُ ببالِهم، ولا يدخُلُ في بابِ مَقصَدِهم وأغراضَهم.

فإن وُجِدَ بينَهم مَنْ يَعلَمُ أنَّ مرجعَ هذا المالِ إلى سَدَنَةِ الضَّريح، وخَدَمَتِهِ فعِلمُهُ هذا لا يُستفادُ منه أن يَهَبَهُ لهُم، أو يمنَحَهُ إياهم؛ لأنهم لو أرادُوه على أن يُعطِيَهُم ذلكَ المالَ، أو يُعطِيَهُم بعضَه ويَستَبقي لنفسِه البعضَ الباقي، لَمَا وَسِعَهُ ذلكَ ولا رأى إنْ فَعَلَه أن عَمِلَ عَمَلًا صالحًا.

بل هو يَعتقدُ أن أخْذَهُمُ المالَ مِنَ الصندوقِ بعدَ أن يَضَعَهُ فيه أمرٌ لا عَلاقَةَ لهُ بهِ ولا شأنَ لهُ فيه؛ لأنَّ المالَ قد خَرَجَ مِن يَدِهِ إلى صاحِبِ الضريحِ، وصاحبُ الضريحِ يتصرَّفُ في مالِه كيفَ يشاءُ.

فهو في جَميعِ حالاته وشُئونه لا يَهَبُ هِبَةً صَحيحةً، ولا يتصَرَّفُ تصرُّفًا شَرعِيًّا، ولا يَضَعُ صَدَقَةً في مَوضِعها، ولا يطرُقُ بابًا مِن أبوابِ البِرِّ المسنُونَةِ.

وعِندي أنَّ مثلَ هذا المالِ بعدَ أنْ خَرَجَ مِنَ يَدِ صاحِبِهِ إلى غَيرِ يَدٍ، وانقَطَعَتْ مُلْكِيَّتُهُ الأُولى مِن حيثُ لم تَقُمْ مَقَامَها مُلْكِيَّةٌ أُخرَى، يُعتبرُ مالًا مُهمَلًا، لا صاحبَ له، ولا عَلاقَةَ لأحدٍ به. وأحسنُ الحالاتِ الشرعيَّةِ والعَقليَّةِ في هذا المالِ أن يُنْفَقَ في مَصارِفِ الصَّدَقَاتِ التي اعتبَرَها الشارعُ واعتَمَدَها، وافتَتَحَها بأداةِ الحَصْرِ التي تمنَعُ غيرَهَا مِنَ الاشتراكِ مَعَها في حُكمِها في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٠].

فإن كان بينَ هؤلاءِ المتظلِّمين مِن قِلَّةِ أنصبتِهم في ذلكَ الصُّندوقِ ذو حاجَةٍ داخلٌ في قسمِه مِنَ الآيةِ الشريفةِ فلهُ الحقُّ في ذلكَ المالِ مِن حيثُ كونِه فَقيرًا مُعدَمًا كعامَّةِ فُقَراءِ المُسلمينَ، لا مِن حيثُ أنَّ لهُ صِلَةً بصاحِبِ الضريحِ تُسوِّغُ لهُ أن يكونَ مِن ذَوي الأنصبَةِ والسِّهام في صُندوقِهِ، فإن أمثالَ هذهِ الصِّلاتِ والعَلائِقِ قد انقَطَعَتْ بانقطاعِ الجاهلِيَّةِ الأولى. فلا هَياكِلَ اليومَ ولا سَدَنَة، ولا وُسَطاءَ ولا شُفَعاءَ، ولا أقراطَ تُعَلَّقُ في آذانِ الأصنام، ولا عُقُودَ تُقَلَّدُ بها لأعناقِ الأوثانِ، ولا مالَ يُوضَعُ معَ الموتى في قُبُورهم؛ لينتَفِعُوا بِهِ بعدَ بعْثِهم مِن مَراقِدِهم. وإنما الناسُ جَميعًا سواءٌ بينَ يَدي الله

سبحانَهُ وتعالى، لا فَضْلَ لأحدٍ مِنهُم على أحدٍ إلا بالتقوى، ولا زُلفى لأحدٍ يزدَلِف بها إليه إلا يقينُه وإيمانُه، وبِرُّهُ وإحسانُه. ذلك ما أراهُ في هذه المسألة، وهذا ما أعتقدهُ فيها، ولا أعلمُ إن كنتُ أرضَيْتُ الناسَ فيما كتبتُ أو أغضَبْتُ، وإنما أعلمُ أنني أرضَيْتُ ضميري وخَالقي، وحَسبي ذلكَ وكَفَى.

***

الغناء العربي

الغناءُ بقيَّةُ خَواطر النفس التي عَجَز عن إبرازها اللِّسانُ، فأبرَزَتْها الألحانُ فهو أفصَحُ الناطقينَ لِسانًا، وأوسَعُهم بيانًا، وأسرَعُهم نَفَاذًا إلى القلوب وامتِزاجًا بالنُّفوس، واستيلاءً على العقول، وأخْذًا بمَجامِع الأفئِدَةِ. وبيانُ ذلكَ أنَّ النُطقَ ثلاثُ طَبَقَاتٍ تختلفُ دَرَجَاتُها باختِلافِ درجاتِ الإبلاغ والتأثير فيها، فأدْناها النثرُ وأوسَطُها الشِّعرُ، وأعلاها الغِناءُ. فلَو أن عاشِقًا بَرَّحَ به الهجرُ مثلًا فأرادَ أن يُبَلِّغَكَ بعضَ ما في نفسِه مِن ذلك، فإن قالَ لكَ: إني مَهجورٌ، فحسب، فقد أبلَغَكَ بعضَ ما في نفسه، وترَكَ في قلبكَ مِنَ الأثر بمقدار ما تَحتَمِلُهُ طَبَقَةُ النثر مِنَ التأثير. وإن أنشدَكَ قولَ الشاعر:

فَوَاكَبِدا مِنْ حُبِّ مَنْ لا يُحِبُّني ... ومِـن زَفَـراتٍ مـا لَـهُـنَّ فَـنَـاءُ

أو قولَ الآخرَ:

كـأنَّ قَـطـاةً عَـلِـقَـتْ بجناحِها ... على كَبِدِي مِن شِـدَّةِ الخفَقَانِ

فقدَ سَلَكَ بكَ طريقَ الخيالِ، وصَوَّرَ لكَ خواطِرَ نفسِه بصُورَةٍ أوضَحَ من الصُّورَةِ الأُولى، وتَرَكَ في نفسِكَ أثرًا أعظَمَ مِنَ الأثَرِ الأوَّلِ. وإن رَفَعَ عَقيرَتَهُ وكانَ يُجيدُ التوقيعَ يَتَغَنَّى بقولِ القائل:

وَارَحْـمَـتَـا للغريبِ بالبَلَدِ النا ... زح مَــاذا بـنـفـسِـه صَـنَـعَـا

فَـارَقَ أحبـابَـهُ فَـمَـا انتَفعُوا بالعَيْشِ مِـن بـعـدِهِ ومَـا انتفَعَا

فَقَدْ صَوَّرَ لكَ قلبَه كما هو، وألْمَسَكَ موضعَ الألم والحزنِ منهُ، فَبلغَ بكَ التأثيرُ مُنتهاهُ، وربَّما بكيتَ عندَ سماعِهِ حُزنًا ورَحْمةً، وما بكيتَ إذ بَكيتَ إلّا لأنَّ الغناءَ لم يُبْقِ بقيَّةً مِن خواطِرِ هذهِ النفسِ القَريحَةِ إلا نَطَقَ بها لكَ وأسمَعَكَ إياها. وكما أنَّ الأبياتَ قُيود المعاني كذلكَ الألحانُ قيودُ الأبياتِ، فلا يزالُ المعنى مُشَرَّدًا هاهنا وهاهنا حتى يَحتويَهُ بيتٌ مِنَ الشِّعر، فإذا هو مُستَقِرٌّ في مكانِه، ثم لا يزالُ البيتُ يتَجانَفُ عَنِ الآذانِ ذاتَ اليمين وذاتَ الشمالِ، حتى يقودَهُ الصوتُ الحسَنُ، فإذا هو مُستودَعٌ في الصُّدُور.

والغناءُ فَنٌّ مِن فنونِ الطبيعةِ، تَهتدي إليه الأُمَمُ بالفِطرةِ المُتَرَنِّمَةِ في هَديرِ الحمامِ وخَريرِ المياهِ، وحفيفِ الأشجار. فَمَنْ أبكاهُ الحمامُ غَرَّدَ تغريدَهُ كلَّما أرادَ البكاءَ، ومَنْ أطرَبَهُ صَوْتُ الناعُورَةِ رَنَّ رَنينَها؛ ليُطرِبَ جَمَلَهُ أو ناقتَهُ فَينشطانِ للمَسير.

وما زالَ هذا الفنُّ مُبتَدِيًا ببَداوَةِ الأُمَّةِ العربيةِ لا يكادُ يَتخَطَّى فيها حِداءَ الجِمالِ، ومُناغَاةُ الأطفالِ، حتَّى إذا انتَقَلَتْ مِن مَضيقِ الحاجياتِ إلى مُنفَسح الكماليّاتِ، تَوَسَّعَتْ فيهِ وزادَت في أنغامِه وضُروبه، وتَفَنَّنَتْ في آلاتِه وأدواتِه.

وكذلك كانَ شأنُ العربِ في جاهِليتّهم، يَنظِمُونَ أشعارَهم على نِسَبٍ مُتوازِيَةٍ، وأنغامٍ مُتوازِنَةٍ، فالبيتُ يوازِنُ البيتَ في ترتيبِ الحَرَكاتِ والسَّكَناتِ وتَعدادِها، والشَّطرُ والتَّفعيلَةُ يُوازنانِ الشَّطرَ والتَّفعيلَةَ كذلك؛ فكأنَّما كانوا يُهيئونَ لأنفسِهم بمذهَبِهم هَذا في الشِّعرِ ألحانًا مُوسيقيَّة. غيرَ أنَّ معارِفَهم لم تكُن تتَّسِعُ لأكثرَ مِن هذا النوعِ منَ الموسيقى؛ وهو نوعُ التناسُبِ الشِّعريِّ الذي هو قُطرَةٌ مِن بحرِ هَذا الفنِّ الزاخِر.

ثم استَمَرَّ شأنُهم على هذا حتّى جَاءَ الإسلامُ واختَلَطَتِ الأُمَّةُ العربيَّةُ بالأُمَّةِ الفارسيَّةِ التي كانَ لها مِن حَضارَتها وتَمدينِه مُتَّسَعٌ للبَرَاعَةِ في هَذا الفَنِّ ومُنْتَدَحٌ في مَناحِيه ومقاصِدِه. وَوَفَدَ الكثيرُ مِن مُغَنِّي الفرس والروم مَواليَ في بيوتِ العرب وفي أيديهم العيدانُ والطَّنابيرُ، والمعازفُ والمزاميرُ، يُلَحِّنُونَ بها أشعارَهُمُ الفارسيَّةَ والروميَّةَ، فَسَمِعَها منهُم العربُ فاقتَبَسُوها ولَحَّنُوا بها أشعارَهُمْ تلحينًا بَزُّوا فيه أساتِذَتَهم، وَوَلَّدُوا ألحانًا وأنْغامًا لم يأتِ بها مَنْ قَبْلَهم، شأنُهم في جَميعِ الفُنونِ والصناعاتِ التي كانوا يقتَبِسُونها مِنَ الأُمَمِ المُتَمَدْيِنَةِ المعاصِرَةِ لهم.

وظَهَرَ فيهم رجالٌ أذكياءُ كانَ لَهُمُ الفَضْلُ الباهِرُ في تقديم الغناءِ واتِّساعِهِ مثل ابن سُرَيج، ومُخارق، وطُوَيْس، وإبراهيم الموصلي، وابنه إسحاق، وإبراهيم بن المهدي، ومعبد الذي طالما ضُرِبَتْ بِهِ وبُحسْن صَوْتِهِ الأمثالُ على أَلْسِنَةِ فُحُولِ الشعراء. كقول أبي عُبادَةَ البحتريِّ في وَصْفِ فرس كان أهداه إليه أَحَدُ الأمراء:

هَـزَجُ الصَّهيلِ كـأَنَّ في نَبَراتِهِ نغمَاتُ مَعبَدِ في الثَّقيلِ الأوَّلِ

والثقيلُ والخفيفُ الأوَّل والثاني أسماءٌ اصطَلَحَ عليها العربُ ومَرجَعُها إلى حَرَكَاتِ الأصابع الخمس في أوتار العُودِ والخَمْسةِ شِدَّةً وَضُعفًا، ومَا أحسَنَ قولَ أبي العلاءِ المعرِّي:

وَلَـقَـدْ ذَكَـرتُـكِ يا أُمَيْمَةُ بعدَما نَزَلَ الدليلُ إلى الترابِ يَسُوفُه[1]

وهـــواكِ عِـنـدي كالغناءِ لأنَّـه حَـسَـنٌ لَـدَيَّ ثَقيلُهُ وخَفيفُهُ

وبالرغم مِن غَضَارَةِ الدين وغَضَاضَتِهِ في ذلك العهدِ - عهد الصدر الأول - وشِدَّتِهِ في النَّهيِ والتَّلَهِّي بالغناءِ والعَزْفِ والزَّمْر وأمثالِها، ونَعْيِهِ على مَنْ يحترقُ ذلكَ أو يَتَخَلَّقُه، فَقَد كانَ للمغنينَ الشأنُ الرفيعُ في مجالِس الخلفاءِ والأمراءِ، والنصيبُ الأوفَرْ مِن جَوائِزهم وصِلاتهم، ولا غَرْوَ في ذلك فسُلطانُ الوِجدانِ فَوْقَ سُلطانِ الأديان.

ولقد بَلَغَ من شأنِ المغنِّين وَإدلالِهم عَلى الخلفاءِ أَنَّ إسحاقَ الموصليَّ شَتَمَ إبراهيم بن المهديِّ في حَضرَةِ أخيه الرشيد غيرَ هَيَّابٍ ولا وَجل، فما استَطَاعَ أخو الخليفةِ أن يَنْتَصِفَ لنفسه منهُ هَيْبَةً وإجلالًا، وكان ابنُ عائشةَ المغنِّي لا يُغني إلا لِمَلِكٍ أو وَليِّ عَهدِهِ، حتى كانَ الخليفةُ إذا أرادَ أن يختارَ مِن بين أبنائِهِ مَنْ يعهدُ إليه بالأمر مِن بَعدِه لا يكتبُ له بذلكَ عَهدًا، بل يأذَنُ لابن عائشَةَ أن يغنِّي عندَه. فلا تطلعُ عليه شمسُ الغَدِ حتَّى يَفِدَ الناسُ إليه يُهَنِّئونَهُ بولايَةِ العهدِ، فإن دَعاهُ إلى الغناءِ لَدَيْهِ أميرٌ أو وزيرٌ وَجَدَ مِن قوَّةِ الدَّالَةِ بنفسه ما يدفعُ بِه الطلبَ عنه.

ويُروى أنَّ ابنَ أبي عتيق، وهو مَنْ تعلَّم في شَرَفِ البيتِ وجَلالِ المَحَلِّ، رأى ابن عَائِشَةَ يومًا وحَلقُهُ مَخدْوشٌ، فقال: مَنْ فَعَلَ بكَ هَذَا؟ قال: فلان، وأشارَ إلى ضاربه، فمَضَى ونَزَعَ ثيابَه وعادَ فجلسَ للرجُلِ على بَابِه، فلمَّا خَرَجَ أخَذَ بتلبيبه وجَعَل يضربُهُ

(١) ساف التراب: اشتمه. يريد أنه ذكر حبيبه في أعظم أوقات شدته، وهو وقت ضلال الركوب ونزول الدليل، اشتم التراب ليستدل منه على الأرض.

ضَرْبًا مُوجِعًا، والرجُلُ يَصيح: أيَّ شيءٍ صَنعتُ؟! وما ذَنبي إليكَ؟! وهو لا يجيبُه حتَّى بَلَغَ منه، وأقبَلَ الناسُ فحالُوا بينَه وبينَه وسألوُه عَن ذَنبِه، فقال: إنه أرادَ أن يَكسرَ مِزمارًا مِن مَزاميرِ دَاودَ، يريدُ أنه خنَقَ ابنَ عائِشَةَ وخَدَشَهُ في حَلقِهِ.

ومما يُروى مِن حوادِثِ تيهِهِ وتَرَفُّعِهِ أنه خَرَجَ من عندِ الوليدِ بن عبدِ الملكِ وقَدَ غنَّاه:

أبـعـدَكَ مَعقلًا أَرجُـو وحِصْنًا قَدْ أَعْيَتْني المعَاقِلُ والحُصُونُ

فأطرَبَهُ وأمرَ له بثلاثينَ ألفِ دِرهَم وكثير مِن الثياب، فبينَا هُو يسيرُ إذ نَظَرَ إليه رَجُلٌ مِن أهل وادي القِرى كان يَشتهي الغناءَ فَدَنا من غُلامِهِ وقال: مَنْ هَذَا الراكبُ المختالُ؟! قال: ابنُ عائشَة المغنِّي. فَدنا منه وقال: جُعِلْتُ فِداكَ أنتَ ابنُ عائشة؟ قال: نعم. قال: عائشةَ أُم المؤمنين؟ قال: لا، أنا مَولى لقُريش وعائِشَة أُمِّي، وحسبُك هَذَا فلا تُكثِرْ. قال: وما هذا الذي بينَ يَدَيْكَ؟ قال: غنيتُ أميرَ المؤمنينَ صَوتًا فأطرَبْتُه، فأمَرَ لي بهذا المالِ وهَذِه الكسوَةِ، قال: جُعلتُ فِدَاءَكَ، هَل تمنُّ عَليَّ بأنْ تُسمِعَني ما أسمَعْتَهُ إيَّاه؟ فقال له: ويلَكَ أمِثلي يُكَلَّمُ بمثل هذا في الطريقِ؟! قال: فما أصنَعُ؟! قال: ألحَقْني إلى المنزلِ، يريدُ مخاتَلَته والنجاةَ منهُ. وحرَّكَ بغلةً شقراءَ تحتَه؛ لينقطع عنهُ فَعَدَا معَهَ، حتَّى وافَيَا المنزلَ كفَرَسَيْ رهان، ودَخَلَ ابنُ عائشَةَ فمَكَثَ طويلًا طَمَعًا في أن ينصرفَ فَلَمْ يَفْعَلْ. فلما أعياهُ قال لغُلَامِهِ: أدخِلْهُ، فلما دَخَلَ قال له: مِن أينَ صَبَّكَ الله عليَّ؟! قال: أنا رجُلٌ من أهل وَادي القِرى أشتهي هذا الغناءَ، قال له: هل لكَ فيما هو أنفَعُ لكَ منه؟ قال: وما ذَاكَ؟! قال: مائتا دينار وعشرةُ أثواب تَنْصَرفُ بها إلى أهلِكِ. فقال له: جُعلتُ فِداءَكَ، والله إنَّ لي لَبُنَيَّةً ما في أُذُنها- عَلِمَ اللهُ- حَلَقَةً مِن الوَرِقِ، وإن لي زَوجَةً عَليها- يشهدُ الله- قميصٌ، ولو أعطَيْتَني جميعَ ما أمرَ لكَ بِهِ أميرُ المؤمنين على خِلَّتي وحَاجَتي لكانَ الصوتُ أعجَبَ إليَّ مِنه. وما زالَ بهِ حتَّى رَحِمهُ ابنُ عَائِشَةُ وغنَّاهُ الصوتَ بعدَ لأي؛ فطربَ الرجُلُ له طَرَبًا شَديدًا وجَعَلَ يحرِّكُ رأسَهُ وينطحُ بها الجدارَ حتى خِيفَ أن يَنْدَقَّ عُنقُهُ، ثم انصرَفَ ولم يَرْزَأه في مالِهِ شيئًا.

وفي هَذَا الحديثِ فوقَ الغَرَضَ الذي سُقناهُ له ما يَدُلُّ على أنَّ الغناءَ العربيَّ كان قَريبًا إلى القلوب، وأنَّهُ كانَ منها بمنزلَةِ الأصابع مِنَ الأوتار، فإذا لَمَسَها رنَّت رنينَ الثَّكلَى والمرزوءةِ في وَاجِدِها، وإن الوجدانَ العربيَّ وجدانٌ رائقٌ شَفَّافٌ تأخُذُ منهُ مُختلفَاتُ الأنغام فوقَ ما تأخُذُ الكهرباءُ مِنَ الأجسام، كما تبلغُ منهُ نظراتُ الغرام،

فوقَ ما تبلُغُ مِن عَقل شاربها المُدامُ وكانتِ الأصواتُ عندهَم تُنسَبُ إلى واضِعيها وتُسَمَّى بأسماءِ أصحابها كما هُوَ الشأنُ في الشِّعر، فيقال: صوت إسحاق أو معبد، كما يقالُ: شعرُ مُسلم أو بَشَّار. وكان المغني أحرَصَ على صوتِهِ مِنَ الكريمَ على عِرْضِه، فإذا صَنَعَ صوتًا لا يَسمَحُ لأحدٍ مِنَ المغنِّين أن يأخُذَهُ عنهَ حتى يُغَنِّيهُ مِرارًا وتُعرفَ نِسبَتُهُ إليه، كما يفعلُ اليومَ المخترعونَ والصَّانِعونَ مِن أخذِ الامتيازاتِ بمُختَرعَاتهم ومَصْنُوعاتهم، وكانَ لإسحاقَ الموصليِّ القدرةُ الغريبة على مُخَاتَلَةِ المغنِّينَ عن أصواتِهِ، حتَّى صَنَعَ مَرّةً، صَوتًا وأرادَ الفُحولُ مِنهم أن يأخُذُوهُ بَعدما سَمِعُوهُ منهُ أكثرَ مِن سَبعينَ مَرَّةً، فما استطاعُوا إلى ذلكَ سَبيلًا.

وكانت مجالسُ الغناءِ عِندَهُم تُشبهُ أنَ تكونَ مجالسَ عِلم لدراسَةِ هَذا الفنِّ وتَهذيبِهِ، فكانَ أحدُهم لا يُحجِمُ إنْ رأَى في صوتِ صاحِبِهِ مَأخَذًا أنْ يَفْجأَهُ بالانتِقَادِ ويُبَيِّنَ لهُ مواضِعَ الخطأ مَهما عَظُمَ شأنُ المجلس وشأنُ صَاحِبه. وكانت تقعُ بينَهُم المنافساتُ الشديدةُ في ذلكَ كما تقعُ بينَ العُلماءِ في مُجادَلاتهم ومُناظَراتهم، ممَّا يدلُّ عَلى أنَّ الغناءَ الغربيَّ كان له عندَ العرب صِبغةٌ جِدِّيَّةٌ فوق صِبغةِ اللَّهْو، وأنَّ الغَربيِّينَ في هَذا العهدِ ليسُوا بأعْلَمَ بصِنَاعَةِ الغناء ولا أقْوَمَ على أمرها مِنَ العَرَب في ذلك العَهدِ. ولَو أنَّ العَرَبَ تَوَسَّعوا في فُنُونِهِ وضُرُوبه؛ لبَلَغُوا فيه الغايَةَ التي لا غايَةَ وَرَاءَها. ولكنَّهم كانوا قلَّما يَحفِلُونَ بإدخالِهِ في الأغراضِ العالِيَةِ كالحروب والشئون الوَطنيَّة. وأمثالِ ذلكِ مِنَ المناحي والمقاصِدِ إلا قليلًا. كما وَرَدَ في تاريخ الدولةِ العباسيَّةِ أنَّ أعداءَ البرامِكَةِ لمَّا أرادُوا الإيقاعَ بهم وعَلِمُوا أن سَبيلَ الوشَايَةِ بهم إلى الرَّشيد سَبيلٌ وَعْرٌ دَسُّوا لهُ مِنَ القِيانِ مَنْ يُغَنِّيه بقولِ عُمَر بن أبي رَبيعَة:

لـيتَ هِـنـدًا أنـجزَتْـنـا مَـا تَـعِـدْ ... وَشَـفَـتْ أنـفُـسَـنـا مِـمَّـا تَـجِـدْ
واسـتَـبـدَّتْ مَـرَّةً وَاحِـدَةً ... إنـمـا الـعـاجـزُ مَـنْ لا يَـسـتَبِدْ

فحرَّكَ ذِكْرُ العَجْز والاستبدادِ مَا كانَ كامِنًا في نفس الرشيدِ من شُعورِهِ بُسلطانِ البرامِكَةِ عليه واستبدادِهِم بالأمرِ مِن دُونِهِ، فقالَ عندَ تمامِ الصوت: «نَعم إني عاجزٌ». ثم كانَ أمرُهُ مَعهم بعدَ ذلكَ ما كانَ.

ولقد مضَى الصدرُ الأوَّلُ مِنَ الإسلام وشأنُ فَنِّ الغناءَ العربيِّ هَذا الشأنُ العظيمُ خُصوصًا في أواخِرِ الدولةِ الأُمويةِ وأوائلَ الدَّولَةِ العباسيَّةِ. ثم أخذَتْ شمسُهُ الباهِرَةُ

تَنحَدِرُ إلى الغروبِ بانحِدار اللُّغةِ العربيةِ وشِعرها حتى أصبَحَ في حَضَارَةِ الأندَلُس قُدودًا ومُوَشَّحات، بعدَ أن كانَ قَصَائِدَ ومُقَطَّعَاتٍ، فكانَ لا يَسمَعُ أبناءُ العربِ في ذلكَ العهدِ إلا قولَ المغني:

كحلُ الدُّجَى يَجري من مُقلةِ الفَجرِ عَلى الصَّباح
ومِعصَمُ النهرِ في حُلَلٍ خُضْرِ مِنَ البطاح

أو قوله:

كَلِّلي سُحُب تيجانَ الرُّبَى بالحُلي وَاجْعَلي سِوارَها مُنعطَفَ الجَدولِ

وليت الأمرَ وَقفَ عندَ هذه المُوشَحَّاتِ، فإنها وإن لم تكُن شعريةَ اللَّفظِ فهي شعريةُ المَعْنى عاليَةُ الخيالِ، وهي عَلى علَّاتها خيرٌ مِن شعر العامَّةِ الذي قَضَى عَليهم فسادُ اللغةِ وانحطاطُها بانتهاجه والتَّغنِّي به كالزَّجَل، والمواليا، والقُوما، والدوبيت، وكان ويكون، غير ذلك مما يسمَّى في عهدِنا هذه بالأدوارِ والتواشيحِ والأغصان والمذاهِبِ وأمثالِها.

فهَلْ لجماعةِ المُغَنِّينَ في عَصرنا أن يعفونا مِن: «أحب جميل طبعه الدلال»، ومن: «يا حلو صون عهد ودادي الله يصونك»، ويأخُذوا بنا في مَسَالكٍ أشرَفَ مِن هذا المسلكِ، ويُعيدوا للغناء العربيِّ عهْدَهُ الأولَ كما صَنَعَ شعراءُ العصر برفيقِه الشعر. فَلَقَدْ كَانَ الشعرُ والغناءُ أخوَيْنِ أليفَيْن، رَضيعَيْ ثَدْي وَضَجيعَيْ مَهْدٍ، ثم ضَربَهما الدهرُ بضَرباتِهِ فافترَقا. فماذا عَلينا لَو قَصَّرنا مسافَةَ البُعْدِ بينَهما؟! وماذا عَلى المغنينَ والشعراءِ في مصرَ لوَ عَقَدوا بينَهم عَهدًا أن يُهذِّبوا أخلاقَ أُمَّتِهم ويَرفَعُوا شأنَها؛ ليكونَ لهم من الفضلِ في نَهضَتِها وارتِقَائِها ما عَجزَ عَن دَرْكِهِ الفلاسِفَةُ والحُكمَاء، فينظمَ الشاعرُ المقطَّعاتَ الرقيقةَ العَذْبَةَ السَائِغَةَ في فَضَائِلِ الأعمالَ ومَكارمِ الأخلاقِ، كالشَّجاعَةِ والشَّهَامَةِ والشَّرفِ وَحُبِّ الوَطَنِ والاتِّحادِ والتزهيدِ في صَغَائِرِ الأُمورِ، والترغيبِ في عَظَائمِها، فيأخذُها منهُ المغنِّي، ولا يتكلَّفُ في تَلحينِها أكثرَ ما يَتكَلَّفُهُ في تلحينِ سِواها مِنَ الأدوار والمواويل، ثم يغنيِّها في الناس غيرَ مبالٍ بما يُفاجِئُهُ بِهِ ضُعفاءُ النفوس الجامِدُونَ مِنَ الانتقادِ الملازِم لكلِّ عَمَلٍ شريفٍ في مَبدَئِهِ.

وفي اعتِقادي أنّ لهذه الطريقةِ مِنَ الأثر الحسَنَ في نُفُوسِ العامَّةِ وتَهذيب أخلاقِهم وطِباعهم، وتَقويم ألسِنَتِهم وعُقُولِهم، ما يُخَلِّدُ للمُلَحِّنينَ والمُغَنِّيَ أجمَلَ ذِكرٍ في تاريخِ عُظماءِ الرجال.

التوبة

عَلِمَ فلانٌ، وكانَ شَابًا مِن شُبَّانِ الخَلاعَةِ واللَّهو، وقَاضِيًا مِن قُضَاةِ المحاكم، أَنَّ المنزل الذي يجاورُ منزلَهُ يَشتَمِلُ عَلى فتاةٍ حسناءَ مِن ذواتِ الثراءِ والنعمةِ والرَّفاهيةِ والرَّغد، فَرَنا إليها النظرةَ الأُولى فتَعَلَّقَها، فكَرَّرَها أُخرى فَبَلَغَتْ مِنهُ، فتَرَاسَلا ثم تَزَاوَرَا ثم افترَقَا. وقد خُتِمَتْ روايَتُهما بما تُخْتَمُ به كلُّ روايةٍ غَرامِيَّةٍ يمثِّلُها أبناءُ آدَمَ وحَوَّاءَ على مَسرَحِ هذا الوُجودِ.

عادتِ الفتاةُ إلى أهلها تحمِلُ بينَ جَنْبَيْها هَمًّا يضطرمُ في فؤادِها، وجَنينًا يضطربُ في أحشائِها، وقد يكونُ لها إلى كتمانِ الأولِ سَبيلٌ، أما الثاني فَسِرٌّ مُذَاعٌ، وحَديثٌ مُشاعٌ، إنِ اتَّسَعَتْ لهُ الصدورُ، لا تَتَّسِعُ له البطونُ، وإن ضَنَّ به اليومُ لا يَضِنُّ به الغدُ.

ذلك ما أسهَرَ ليلَها وأقضَّ مَضجَعَها، ومَلَكَ عليها وجدانَها وشُعورَها، فلَم تَرَ لها بُدًّا مِنَ الفِرار بنفسِها، والنَّجاةِ بحياتها. فَعَمَدتْ إلى ليلةٍ مِنَ اللَّيالي السوداءِ فَلَبِسَتْها، وتَلَفَّعَتْ بردائِها، ثم أَلْقَتْ بنفسِها في بَحْرِها الأسودِ، فما زالَت أمواجُها تترامَى بها حتى أَلْقَتْها إلى شاطِئِ الفجرِ، فإذا هي في غُرفَةٍ صَغيرةٍ في إحدى المنازِلِ الباليَة، في بعضِ الأحياءِ الخامِلَةِ وذلكَ الجنينَ المضطرِب.

كانَ لها أُمٌّ تَحنو عَليها، وتَفتَقِدُ شَأنَها، وتَجزَعُ لِجَزَعِها، وتَبكي لِبُكائِها فَفَارَقَتْها. وكانَ لها أَبٌ لا هَمَّ لهُ في حَياتِهِ إلَّا أن يَراها سَعيدةً في آمالِها، مُغتَبِطَةً بعَيْشِها، فَهَجَرَت مَنزِلَه. وكانَ لها خَدَمٌ يَقُمْنَ عَليها ويَسْهَرْنَ بجانِبِها! فأصبَحَت لا تُسامِرُ غير الوَحدَةِ، ولا تُساهِرُ غيرَ الوَحشَةِ، وكانَ لها شَرَفٌ يُؤنِسُها ويَملأُ قلبَها غِبطَةً وسُرورًا ورأسَها عَظَمَةً وافتِخارًا، فَفَقَدَتْهُ.. وكانَ لها أَمَلٌ في زواجٍ سَعيدٍ مِن زوجٍ محبوبٍ فَرَزَأَتْها الأيامُ في أمِلها.

ذلكَ ما كانَت تُناجي نفسَها به.. صباحَها ومساءَها، بكورَها وأصائِلَها، فإذا بَدَا لها أن تفكِّر في عِلَّةِ مَصَائِبِها وسَبَب أحزانها علمَتْ أنه ذلك الفتَى الذي وَعَدَها أن

يتزوَّجها فخدَعها عَن نفسِها، ولم يَفِ بعَهْدِه لها، فَقَذَفَ بها وبكلِّ ما تَملِكُ يدُها في هذا المصير.

فلا يكادُ يستقرُّ ذلكَ الخاطرُ في فؤادِها، ويأخُذُ مكانه مِن نفسِها حتَّى تشعَرَ بجذوةِ نار تَتَّقِدُ بينَ جَنبيْها مِنَ الحقدِ والموجِدَةِ على ذلكَ الفتى لأنه قَتَلَها، وعلى المجتمع الإنسانيِّ؛ لأنه لا يأخُذُ القاتِلَ بجريمتِه، ولا يُسلِكُهُ في سِلسِلَةِ المجرمين.

وما هي إلا أيامٌ قلائِلُ حتى جاءَها المخاضُ.. فَوَلَدَتْ وليدتَها من حيثُ لا تَرى بينَ يدَيْها مَنْ يأخُذُ بيدِها أو يساعِدُها على خَطْبِها غيرُ عَجوزٍ مِن جاراتِها أَلَمَّتْ بشأنها فَمَشَتْ إليها وأعانَتْها على أمرِها بضعَ ساعاتٍ.. ثم فارَقَتْها تُكابِدُ عَلى فِراشِ مَرضِها ما تُكابدُ.. وتُعاني مِن صُروفِ دَهرِها ما تُعاني.

ولقد ضاقَ صَدرُها ذَرعًا بهذا الضيفِ الجديد، وهو أحَبُّ المخلوقاتِ إليها وأكثرُهم قُربًا إلى نَفسِها.. فجلسَتْ ذاتَ ليلَة، وقد وضعَتْ طِفلَتَها النائِمَةَ على حجرِها وأسنَدَتْ رأسَها إلى كَفِّها، وظلَّت تقولُ:

ليتَ أُمِّي لَم تَلِدْني، وليتَني لَم أكُن شَيئًا.

لَولا وُجُودي ما سَعِدْتُ، ولولا سعادتي ما شَقيتُ، وإن كان في العالَم وجودٌ أَفْضَلُ منهُ العَدَمُ فهو وُجُودي.

لقد كانَ لي قبلَ اليوم سَبيلٌ إلى النَّجاةِ من هذهِ الحياةِ، أمَّا اليومَ وقد أصبَحْتُ أُمًّا فلا سبيلَ.

أأقتُلُ نَفسي فأقتلَ طِفلَتي؟! أم أحَيا بجانِبِها هذهِ الحياةَ المريرةَ؟!

لا أحسبُ أن الموتَ تاركي حتَّى يذهبَ بي إلى قَبري. فماذا يكونُ حالُ طِفلتي مِن بَعدي؟!

إنها ستعيشُ مِن بَعدي، وتَشقى في الحياة شَقائي، لا لذنب جَنَتْهُ ولا لجريمةٍ أجرَمَتْها، سِوى أنني أُمُّها.

هل تعيشينَ أيَّتها الفتاةُ حتى تَغفِري لي ذنبَ أُمومتي حينما تَسمعينَ قِصَّتي وتسمعينَ شكاتي؟!

لم يبقَ في يدي، يا بُنَيَّتي، من حُلايَ إلا قليلٌ سأبيعُه كما بعتُ سابقَهُ، فماذا يكونُ شأني وشأنُكِ بعدَ اليومِ؟!

محالٌ أن أعودَ إلى أبي فأقصَّ عليه قِصَّتي؛ لأنه لم يبقَ لي ممَّا يُعَزِّيني عن شقاءِ العيَش وبَلائِه، إلا أنَّ أهلي لا يعرفُونَ شيئًا عَن جريمتي، فهُم يبكونَني كما يبكُونَ مَوْتاهُمُ الأعزَّاءَ؛ ولأنْ يبكُوا مماتي خيرٌ لي ولهُم مِن أن يبكُوا حَياتي.

وكذلكَ ظلَّت تلكَ البائسةُ المسكينةُ تحدِّثُ نفسَها تارةً، وطفلتَها أُخرى بمثل هذا الحديثِ المحزنِ الأليم، حتَّى غَلَبَها صبرُها على أمرها، فأرسَلَتْ مِن جَفْنَيْها قطراتٍ حارَّةً مِنَ الدموع هي كلُّ ما يملِكُ الضعفاءُ العاجزونَ ويقدرُ عليه القانِطونَ اليائسونَ.

دارتِ الأيام دَوْرَتَها وباعَتِ الفتاةَ جميعَ ما تَملِكُ يَدُها، وما يحملُ بَدَنها وما تشتَمِلُ عليه غُرفَتُها من حلي وثياب، وأثاثٍ ورياش، ولم يبقَ لها إلا قميصُها الخَلَقُ وملاءَتُها وبُرقُعُها، ولم يَبْقَ لِطفلَتِها إلا أسمالٌ بالياتٌ تنمُّ عَن جِسمِها نَميمَةَ الوجهِ عَن السريرة. فكانَتْ تَقضي ليلَها شَرَّ قضاءٍ حتى إذا طارَ غُرابُ الظلام عَن مَجثَمِهِ أسبلت بُرقُعَها عَلى وجَهها، واتَّزرَتْ بمئزَرها، وأنشأَت تطوفُ شوارِعُ المدينة، وتقطَعُ طُرُقَها، لا تَبْغي مَقصَدًا ولا تريدُ غايةً سِوى الفِرار بنفسِها مِن هَمِّها، وهَمُّها لا يزالُ يُسايرُها ويَترَسَّمُ مواقعَ أقدامِها.

وأحسبُ أن عَجوزًا مِن عجائز المواخير رأَتْها فأَلمَّتْ ببعض شأنها فاقتَفَتْ أثرَهَا حتى دَخلَت غرفتَها، فوَغلَتْ عليها، وسألتها ما خَطْبُها؟ فأنِسَتِ الفتاةُ عندَ رؤيتها، وكَذَا يأنسُ المصدورُ بنَفَثاته، والبائسُ بشَكَاتِهِ، فأصرَحَتْ لها بسِرِّها وألقَتْ إليها بخَبيئَةِ صَدرها، ولم تَترُكْ خَبَرًا من أخبار نَعيمِها، ولا حادِثًا مِن حوادثِ بُؤسِها لم تحدثها بِهِ؛ فعرفتِ الفاجرَةُ محنَتَهَا، ورأَتْ بعينِها ذلكَ الماءَ مِن الحُسْن الذي يجولُ في أديم وجهها جَولانَ الرَّاح في زُجاجَتها، وعَلِمَتْ أنّها إن أحرَزَتْها في منزلِها فقد أحرَزَتْ غِنَى الدهر، وسَعَادَةَ العُمر. ومَا هُو إلا أن أرسَلَتْ إليها بعضَ عَقاربِها. وما هيَ إلا عَشيَّةٌ أو ضُحاهَا حتَّى بَلَغَتْ بها الغايَةَ التي لا مَفرَّ لها ولا لأمثالِها مِنْ بُلُوغِها.

عاشَتْ تلكَ البائسَةُ في منزلِها الجديد، عَيْشًا أشقَى مِن عَيْشِها الأوّلِ في منزلِها القديم؛ لأنها ما كانتَ تستطيعُ أن تَصلَ إلى لُقمَتِها - وهيَ كلُّ ما حَصلَتْ عَليه في حياتها الجديدةِ - إلا إذا بَذَلَتْ راحَتَها وشَرَّدَتْ نَوْمَها، وأحرَقَتْ دِماغِها بالسَّهرَ، وأحشاءَها بالشَّراب، وصَبَرَتْ على كلِّ مَن يسوقُهُ إليها حَظُّها مِن سِباع الرِّجالِ وذِئابهم، على اختلافِ طَبائعهم، وتَنوُّعِ أخلاقهم؛ لأنها لم تَرَ بُدًّا مِن ذلك.. فاستَسْلَمَتِ استِسلامَ اليائس الذي لم تترُكْ له ضَائِقَةُ العَيْشِ إلى الرَّجاءِ سَبيلًا.

ولو أن الدهرَ وَقَفَ معَها عندَ هَذا الحدِّ لهانَ الأمرُ ولألَفِتِ الشقاءَ ومَرَنَتْ عليه كما يألفُه ويَمْرُنُ عليه كلُّ مَنْ سارَ في الطريقِ التي سارَت فيها، ولكنَّه أبى إلا أن يَسقيها الكأس الأخيرةَ مِن كئوسِ شقائه، فساقَ إليها ذئبًا مِن ذئاب الرِّجالِ كانَ يَنقِمُ عَليها شَأنًا مِن شُئونِ شَهواتِه ولذَّاتِه، فَزَعَمَ أنها سَرَقَتْ كيسَه في إحدى لياليهِ التي قَضاهَا عِندَها، ورَفَعَ أمرَها إلى القضاءِ، واستعانَ عليها ببعضَ أترابها الساقِطَاتِ اللواتي كنَّ يَحْسُدْنها وينفُسْنَ عليها حسنَها وبهاءَها حتى أدانَها.

جاء يومُ الفصل في أمرها فَسِيقَتْ إلى المحكمةِ، وفي يَدها فتاتُها، وقد بلغَتِ السابعَةَ مِن عُمرها، فأخَذَ القاضي ينظرُ في القضايا ويحكُم فيها بما يشاءُ حتى أتى دورُ الفتاةِ، فما وَقَفَتْ بين يَدَيْه، ووقَعَ بصرُها عَليه، حتى شَدَهَتْ عن نفسِها وألَمَّ بها منَ الحيرةِ والدَّهْشَةِ ما كادَ يذهبُ برُشدِها ذلك أنها عَرَفَتْهُ وعَرَفَتْ أنَّهُ ذلكَ الفتَىَ الذي كان سَبَبَ شقَائِها وعِلَّةَ بلائِها، فنظرَت إليه نظرَةً شرزاء، ثم صَرَخَتْ في وجهِهِ صَرْخَةً دَوَّى بها المكانُ دويًا وقالت:

رويدكَ يا مولاي القاضي، ليسَ لكَ أن تكونَ قاضِيًا في قضِيَّتي! فكلانا سارقٌ وكلانا خائنٌ، والخائِنُ لا يقضي على الخائِنِ، واللِّصُّ لا يَصلُحُ أن يكونَ قاضِيًا بينَ اللُّصوصِ.

فعَجِبَ القاضي والحاضرونَ لهذا المنظر الغَريب، وغَضِبَ لهذِهِ الجرأةِ العجيبةِ، وهَمَّ أن يدعُو الشُّرطِيَّ لإخراجِها، فحَسرت قِناعَها عن وَجهِها، فنظرَ إليها نَظرَةً ألَمَّ فيها بكلِّ شيءٍ، فشَعَرَ بالرِّعدَةِ تتمشّى في أعضائِه، وسَكَنَ في كُرسِيِّهِ سكونَ المُحْتَضَرِ في سَرير الموتِ، وعادَت الفتاةُ إتمامِ حَديثِها فقالت:

أنا سارِقَةُ المالِ، وأنتَ سارقُ العِرْضِ، والعِرضُ أثمنُ مِنَ المالِ، فأنتَ أكبَرُ مني جنايَةً، وأعظَمُ جُرمًا.

إنَّ الرجُلَ الذي سرقتُ مَالَهُ يستطيعُ أن يُعَزِّيَ نفسَه عنهُ باستردادِه أو الاعتياضِ عنهُ، أمَّا الفتاةُ التي سرقتَ عِرضَها فلا عزاءَ لها؛ لأنَّ العِرْضَ الذاهبَ لا يعودُ.

لولاكَ ما سرقتُ، وما وصلتُ إلى ما إليه وصلتُ، فاترُكْ كرسِيَّكَ لغيرك، وقِف بجانبي ليُحاكِمَنا القضاءَ العادلُ عَلى جريمةٍ واحِدةٍ أنتَ مُدَبِّرُها، وأنا المُسَخَّرَةُ فيها.

إن شريعةً تعلمُ أننا شركاءُ في جريمةٍ واحِدةٍ، ثم تأتي بنا إلى هذا المكانِ، فتُوقِفُ

أحدَنا في أشرفِ المواقِفِ، وتُوقِفُ الآخرَ في أدناها لشريعةٌ ظالِمَةٌ ليس بينها وبينَ العدلِ نَسَبٌ مَوصولٌ، أو زِمامٌ غيرُ مُنقضبٍ.

رأيتُكَ حينَ دخلتَ هذه القاعَة وسمعتُ الحاجبَ يصرخُ لمقْدَمِكَ ويستنهضُ الصفوفَ للقيام لكَ، ورأيت نَفسي حينَ دخلتُ والعيونُ تتخطّاني والقلوبُ تَقْتَحِمُني فقلت: يا للَعَجَب!! كَم تكذبُ العناوينُ، وكم تخدعُ الألقابُ، وكم يعيشُ هذا العالَمُ في ضلالةٍ عمياءَ، وجهالةٍ جَهلاء!!

بخ بخ لأولئك الذين مَنحوكَ هذه الشهادةَ؛ شهادةَ العِلم والفَضل والأخلاقِ والآداب، ومَرْحَى مَرْحَى لأولئكَ الذينَ أقعدوكَ هذا المقعدَ، وَوَضعُوا بينَ يدَيْكَ هذا القانونَ، وأوْقَفُوا أمامَكَ هذا الشرطيَّ يأتمرُ بأمرِكَ وينزلُ على حُكمِكَ.

إن تحتَ هذهِ الثياب التي تَلبسُونها، معشرَ القُضَاةِ نُفوسًا ليستَ بأقلَّ مِن نفوسِنا شَرًّا، ولا أخبَثَ منها مَذْهبًا، وربَّما لا يكونُ بينَنا وبينَ الكثير منكُم فرقٌ إلا في العناوينِ والألقاب، والشمائلِ والأزياء.

أتيتَ بي إلى هُنا لتَحْكُمَ عَليَّ بالسجن، كأن لم يَكْفِكَ ما أسْلَفْتَ إليَّ من الشقاءِ حتَّى أردتَ أن تجيءَ بلاحِقٍ لذلك السابقِ.

ألم أُحسِنْ إليكَ بساعةٍ من ساعاتِ السرور فتَرْعَاها؟! ألَستَ إنسانًا ذا شعورٍ وإحساسٍ فتَرثي لشَقائي وبَلائي؟!

إن لَم تكُن عِندي وسيلةٌ أَمُتُّ بها إليكَ، فوَسيلتي عندَكَ ابنتُكَ هذه، فهي الصِّلَةُ الباقيةُ بيني وبينَك.

فرفَعَ القاضي رأسَه ونَظَرَ إلى ابنتهِ الصغيرة نظرَةَ رَحمَةٍ وإشفاق وقَد قَرَّرَ في نفسِه ألا بُدَّ لهُ مِن أن يُنصِفَ تلكَ البائسَةَ وينتصفَ لها مِن نفسِه، غير أنه أراد أن يَخلُصَ من هذا الموقفِ خُلوصًا جَميلًا، فأعلن أن المرأة قد أُصيبَت بدَخْلٍ في عَقلها، وأن لابُدَّ مِن إحالتِها على الطبيب؛ فصَدَّق الناسُ قولَه، ثم قامَ من مجلَسِه بنَفسٍ غيرِ نفسِه، وقلبٍ غيرِ قلبه.

وما هي إلا أيامٌ قلائلُ حتى استقالَ مِن منصبِهِ بحُجَّةِ المرض، ولم يَزَلْ يسعَى سَعْيَهُ حتى ضَمَّ إليه ابنتَهُ، واستْخلَصَ أُمَّها مِن قرارتها، وهاجَرَ بها إلى بلدٍ لا يَعرفُهما فيه أحدٌ، فتزوَّجَ منها وأنِسَ بعِشرتها، واحترفَ في دار هِجرتِهِ حرفَةً أن أدلَّ عليه إذا ذكرتَها

لذاكرتُها، ولا يزالُ حتى اليوم يُكفِّرُ عن سَيِّئاتِهِ إلى زَوجَتِهِ بكلِّ ما يستطيعُه من صُنوفِ الرعايةِ، وأنواعِ الكَرامَةِ، حتى نسيا ما فاتَ، ولم يبقَ أمامهما إلا ما هو آتٍ.

***

الحسد

لو عرفَ المحسودُ ما للحاسِدِ عندَه مِن يَد،وما أسدَى إليه مِن نعمةٍ لأنزَلَهُ مِن نفسِه منزلةَ الأوفياءِ المُخلصين، وَلَوَقَفَ بينَ يدَيْه تلكَ الوقفةَ التي يقفُها الشاكرونَ بينَ أيدِي المُحسِنين.

لا يزالُ صاحبُ النعمةِ ضالًّا عَن نعمتِه، لا يعرفُ لها شأنًا، ولا يُقيمُ لها وَزنًا، حتَّى يَدُلَّه الحاسدُ عَليها بنُكرانها، ويُرشِدَهُ إليها بتحقيرِها، والغَضِّ منها، فهوَ الصديقُ في ثيابِ العَدُوِّ، والمحسِنُ في ثيابِ المُسيءِ.

أنا لا أعجبُ لشيءٍ عَجَبي لهذا الحاسِدِ، يَنقِمُ عَلى مَحسُودِهِ نِعَمَ اللهِ عليه، ويتمنَّى لَو لَم تَبْقَ له واحِدَةٌ مِنها وَهو لا يَعلَمَ أنه في هذهِ النقمةِ، وفي تلكَ الأمنيَةِ قد أضافَ إلى مَحسودِهِ نِعمَةً هي أفضلُ مِن كلِّ ما في يَدَيْهِ من النِّعَمِ.

وجهُ الحاسِدِ ميزانُ النعمةِ ومقياسُها، فإن أردتَ أن تَزِنَ نعمةً وَافْتُكَ فَارْمِ بخيرِها في فؤادِ الحاسِدِ، ثم خَالِسْهُ نَظرةً خفيفَةً، فحيثُ تَرى الكآبَةَ والهَمَّ فهناكَ جَمالُ النعمةِ وسَناؤها. ليسَ بينَ النِّعَم التي يُنعِمُ بها الله على عِبادهِ نِعمَةٌ أصغَرُ شأنًا، وأهونُ خَطرًا مِنْ نِعمَةٍ ليسَ لها حاسِدٌ. فإنْ كنتَ تريدُ أن تَصْفُوَ لكَ النِّعَمُ فَقِفْ بها في سَبيلِ الحاسدِينَ، وأَلْقِها في طريقِ الناقمينَ، فإنْ حاولوا تَحقيرَها وازدراءَها، فاعْلَمْ أنَّهم قَدَ مَنحوكَ لَقَبَ «المحسُود»، فَلْيَهْنَأْ عيشُكَ ولْيَعْذُبْ مَوْرِدُكَ.

إن أردتَ أن تعرفَ أيُّ الرجلَيْنِ أفضلُ، فانظُرْ إلى أكثرهما نقمةً على صاحِبه، وكَلَفًا بالغَضِّ منه، والنيل من كرامَتِه، فأعْلَمْ أنه أصغرُهما شأنًا وأقلُّهما فَضْلًا.

قد جَعَل الله لكلِّ ذنب عُقُوبةً مُستَقِلَّةً يَتَألَّمُ لها المذنبُ عندَ حلولِ أجَلِها، فالشاربُ يَتَألَّمُ عندَ حلولِ المَرَضِ، والمقامِرُ يتألم يومَ نزولِ الفَقْرِ، والسارِقُ يتألَّمُ يومَ دُخولِ السجنِ.

أما الحاسدُ فعُقوبَتُهُ حاضِرَةٌ دائمةٌ، لا تُفَارِقُهُ ساعةً واحِدَةً.

إنه سَيَتألَّمُ لمنظر النِّعمة كلَّما رآها، والنعمةُ موجودٌ من الموجوداتِ الثابتَةِ التي لا يُلِمُّ بها إلا التَنقُّلُ مِن مظهر إلى مظهر، والتحوُّلُ من مَوقفٍ إلى موقفٍ، فهيهاتِ أن يَفْنَى أَلَمُهُ، أو يَنقضي عَذَابه حتى تَقَرَّ عينهُ التي تُبصِرُ، ويَسكُنَ قلبُه الذي يَنبضُ.

الحسدُ مَرَضٌ منَ الأمراضِ القلبيَّةِ الفاتِكَةِ. ولكلِّ داءٍ داوءٌ، ودواءُ الحَسَدُ أن يسلكَ الحاسدَ سبيلَ المحسودِ، ليبلغَ مَبلَغَه من تلكَ النعمةِ التي يحسدُه عَليها، ولا أحسبُ أنه يُنفِقُ مِنَ وَقتِهِ ومَجهودِهِ في هذهِ السَّبيل أكثرَ ممَا يُنفِقُ مِن ذلكَ الغَضِّ من شأنِ مَحسودِهِ، والنيلُ مِنه. فإن كانَ يحسدُه على المال، أو الأدبَ فَلْيَتَأَدَّبْ، فإن بلغَ من ذلكَ مأرَبَهَ فذاك، وإلا فَحَسْبُه أنه مَلأ فراغَ حياتِهِ بشُئونٍ لولاها لقضاها بينَ الغَيْظِ الفاتِكِ، والكَمَدِ القاتِلِ.

***

الــوفـــاء

يا صاحب النظرات

تزوَّجتُ منذُ سنةٍ من زوجٍ صالحةٍ طيبةِ القلب والسريرةِ، فاغتبطتُ بعشرتها برهةً منَ الزمانِ، وقدَ عَرَضَ لها في هذهِ الأيام رَمَدٌ في عينَيْها فذهَبَ ببصرها فأصبَحَتْ عَمياءَ، وأصبَحْتُ أعمى بجانبها، وقدَ بدَا لي أن أُطَلِّقَها وأتزوَّجَ مِن غيرِها.. فماذا ترى؟

«إنسان»

***

أيها الإنسان..

لا تَفْعَلْ، فإنك إن فعلتَ كان عليكَ إثمُ الخائنينَ وجُرْمُ الغادرينَ، وكُن اليومَ أحرَصَ علي بَقَائِها بجانبِكَ منكَ قبلَ اليوم لِتَسْتَطيعَ أن تَدَّخِرَ لنفسِكَ عندَ اللهِ مِنَ المثوبَةِ والأجْرِ ما يَدَّخِرُ أمثالُكَ من الصابرينَ المُحْسنينَ.

لا تَقُلْ إنها عمياءُ فلا خيرَ لي فيها، ولا غِبطَةَ لي بها، فإنكَ ستجدُ بينَ جنبَيْكَ مِن

لَذَّةِ المُروءَةِ والإحسانِ والجودِ والإيثار ما يحسُدُكَ عليه الناعمونَ بالحُورِ الحِسانِ، في مَقَاصيرِ الجنان.

اجلِسْ إليها صباحَكَ ومَسَاءَكَ، وحَادِثْها مُحادَثَةَ الصديق صَديقَهُ، بل الزوج زَوْجَهُ وتلطَّفْ بها جُهْدَكَ وَرَوِّحْ عن نفسِها ما يُساورها مِنَ الهموم والكُروب وقُلْ لها: لا تَجزَعِي ولا تحزَني؟ فإنما أنا بَصَرُكِ الذي به تُبصرينَ ونُورُكِ الذي به تَهتدينَ.

أعيذُكَ أيها الإنسانِ بالله ورحمتِه، والعهدِ وزمامِه، ألا تجعَلَ لهذا الخاطِر السيِّئ- خاطِرِ الطلاقِ والفِراقِ - سَبيلًا إلى نَفسِكَ، فإنها لم تُسِئْ إليكَ فتُسيءَ إليها، ولم تَنْقُضْ عهدَكَ فتنقُضَ عهدَها، فإن كنتَ لابدَّ ثائرًا لنفسِك فاثأَرْ مِنَ القَدَرِ إنِ استَطعتَ إليه سَبيلًا.

إنَّ عَجزًا منَ الرجُل وضُعفًا أن يغضبَ فيمدَّ يَدَهُ بالعقوبَةِ إلى غير مَنْ أذنَبَ إليه، ويَعتديَ عليه.

إن لم يكُن احتفَاظُكَ بزَوْجِك وإبقاؤكَ عليها عَدْلًا يسألكَ الله عنه فَلْيَكُن إحسانًا تحاسِبكَ الإنسانيةُ فيه.

إنك قَد خَسِرْتَ بَصَرَها، ولكنَّكَ ستربَحُ قلبَها، وحَسْبُ الإنسانِ من لَذَّة العيشِ وهَناءَتِهِ في هذهِ الحياةِ قَلبٌ يخفقُ بحبِّه، ولسانٌ يهتِفُ بذكرِه.

إنها أسعدَتْكَ برهةً مِنَ الزمانِ، فَلْيَخْفُقْ قلبُك رحمةً بها، بقَدَرَ ما خَفَقَ سُرورًا بعِشرَتِها.

لا أحسبُ أنها كانَت تاركَتَكَ، أو غادِرَةً بكَ، لو أنَّ هذا السهمَ الذي أصابَها قد أصابَكَ مِن دونها، فَاحْرِص الحِرْص كلَّه على ألَّا تكونَ امرأةٌ ضعيفةٌ أسبَقَ منكَ إلى فضيلةِ الصِّدق والوفاءِ.

إلى مَنْ تَعْهَدُ بها بعدَ فِراقِكَ إياها؟! وأيُّ موطن مِنَ المواطِن هَيَّأْتَهُ لمقامِها؟! وماذا أعدَدْتَ لها مِنَ الوسائِل التي تَستعينُ بها على عَيْشِها، وتأنسُ بها في وَحشَتِها ووَحْدَتِها؟!

كيفَ يهنأُ لكَ عيشٌ، أو يغمضُ لكَ جفنٌ، إذا أظلَّتَ الليلُ فذكرتَها وذكرتَ أنها تُقاسِي في وحدَتها مِنَ الوَحشَةِ ما لا قِبَلَ لها باحتِماله، وأنها ربَّما طَلَبَتْ جُرعَةَ ماءٍ فلا تجدُ مَنْ يقدِّمُها إليها، أو كسرَةَ خُبز فلا تجدُ مَنْ يدلُّها عليها، أو ربَّما قامَتْ من

مَضْجَعِها في سُكونِ الليل وهُدُوئِه تتلَّمسُ الطريقَ إلى حاجَةٍ من حاجاتها فأخطأ تقديرُها فصَدَمَها الجدارُ في جبينِها صَدَمةً أسالَتْ دَمها حتَّى امتزَجَ بدَمِعها؟!

أيها الإنسان...

إن لم تكُن عادِلًا ولا وَفيًّا ولا مُحسِنًا فارحَمْ نفسَكَ من هذا الخيالِ الذي لابدَّ أنَّه سيُسَاوِرُكَ، ويَفتُّ في عَضُدِكَ ويُزعِجُكَ من مَرَقَدِكَ، فإنْ لَم تكُن هَذا ولا ذَاكَ، فغيرُكَ أخاطِبُ؛ لأني لا أُحسِنُ إلا مخاطَبَةَ الإنسان.

إني محدِّثُكَ عَن صديق لي مِن كرام الناس وأوفيائِهم تزوَّجَ امرأةً حسناءَ فاغتَبَطَ بها برهَةً مِنَ الزمانِ، ثم أصابَها الدهرُ بمثل ما أصابَ به زوجَكَ، ولم يترُكْ لها من ذلكَ النور الذاهب إلا كما تترِكُ الشمسُ من الشفق الأحمر في حَاشِيَةِ الأُفُقِ. فلم يُقنِعْهُ مِنَ الوفاءِ لَها أن استبقاها واستَمْسَكَ بها، بل كان يحرصُ جُهْدَهُ عَلى ألَّا تعلَمَ أنه يُنكِرُ مِن أمرها شَيئًا، فكانَ يعتبُ عَليها في بعضِ الأحايينِ في أشياءَ لا يؤاخَذُ بها عادةً إلا الناظِرونَ المبصرونَ، يريدُ بذلكَ أن يُلقِيَ في رُوعِها أنه لا يزالُ يَعُدُّها ناظِرَةً مُبصِرةً وأنه لا يَرَى شَيئًا جَديدًا طَرأَ عَليها، رحمةً بها وإبقاءً على ما كانَت تحبُ أن تحاوِلَهُ مِنَ الاعتِدادِ بنفسِها والإدلالِ بمزاياها.

ولقد قرأتُ جُملةً صالحةً من نوادِرِ العرب في آدابهم، ومَكارم أخلاقِهم ورِقَّةِ شُعُورهم ولُطفِ وجدانهم، فلم أرَ بينَها نادِرَةً أوقَعَ في النفس، ولا أجمَلَ أثرًا في القلب، مِنَ قَولِ أبي عُيَيْنَةَ الكاتب المعروفِ في عهدِ الدولةِ العباسيةِ، وكانَ كفيفَ البصرَ: اختلفتُ إلى القاضي أحمد بن أبي دؤاد أربعينَ عامًا فما سمعتُه مرَّةً يقولُ لغُلامِهِ عندَ تَشييعي، خُذْ بيدِهِ يا غُلام، بل يقولُ أخرُجْ معهُ يا غُلام.

فإن كنتَ تريدُ أن يُسَجَّلَ لكَ مِنَ الوفاءِ في صَفحاتِ القلوبَ، ما سُجِّلَ لأحمدَ بن أبي دؤاد في صفحاتِ التاريخ، فلا تُطَلِّقْ زوجَك، ولا تَنقِمْ منها أمرًا قد خَرَجَ حُكمُهُ من يَدِها. وإن أبَيْتَ إلا أن تأخُذَ لنفسِكَ حَظَّها من لذائذ العيش فَاعْلَمْ أنه ما مِن لذَّةٍ يتمتَّعُ بها الإنسانُ في حَياتِهِ إلا وَيشوبُها الكَدَرُ، أو يُعقِبُها الألَمُ، إلا لذَّةُ البرِّ والإحسانِ.

خبايا الزوايا

جلسَ قاضي التحقيق ليلَة أمس على كُرسيِّ قَضائِه، وَوَقَفَ عَن يمينِه رجلٌ مِن ذوي الأسنانِ[1] قَذِرٌ «دميمٌ» المنظر، تَسنَحُ شَعراتُهُ البيضُ في بادِيَةِ رأسِهِ ولحيتِهِ سنوحَ الشَّرَر الأبيض في الدخانِ الأسودِ، وتَتَمَشَّى في أديمِ وجهه غبرةٌ قاتمةٌ مَنْ رآها عَلِمَ أنها نسيجُ دخانِ الحشيشة، الذي ينفُثُه مِن فيه صباحَهُ ومَساءَهُ وغدوَهُ ورواحَه. ووقفَ عَن يسارِه صِبْيَةٌ سِتَّةٌ نُحُلُ الأبدانِ جُوَّعُ الأكبادِ. لم يترُكْ لهمُ الدهرُ - آكلُ الناس شاربهم- إلاهَيكَلًا مِنَ العظم تلمعُ في رأسِه عينانِ جَائِلتانِ، لا تَستقرَّانِ في مِحجَرَيْهما إلا إذا استقرَّ الزئبقُ الرَّجراجُ في قرارٍ مَكين.

نظرَ إليهم قَاضِ التحقيق نَظراتٍ تُمازجُها الرحمةُ، وتُخالِطُها الشفَقَةُ، والقُضَاةُ لا يرحمون ولا يُشفِقونَ، لولا أنَّ مِنَ المناظِرِ مناظرَ تَستهوي القلوبَ القاسِيَةَ، وتذيبُ الأفئدَةَ المُتحَجِّرَةَ، وأنشأَ يسألُها واحدًا فواحِدًا ما شأنُهم؟ وما خَطبُهم؟ وما مَصيرُهم؟ فكانَ جوابُهم جَوابًا واحِدًا خلاصَتُه أنَّ هذا النَّمرَ اللبسَ الإنسانِ رَأي خَلَّتَهم[2] مِن حيثُ يَخفى مكانُها فثَغَرَ[3] فيها ثغرةً انحَدَرَ منها إلى أعراضِهم، فعَبَثَ بها ما شاءَ وشَاءَ العابثونَ، فكانُوا في دارِهِ الضُّروعَ التي يَحتَلِبُها: حتى إذا استنفَذَ دُرَّتَها ألحَّ على دِمائِها فاستَنزَفَها، ثم قالوا إنه كانَ يديمُ مطالَ الجوعِ في بُطونهم فإذا عَلِمَ أنهم هَلَكُوا أو كادوا طَفِقَ يُعَلِّلُهم باللُّقمَةِ بعدَ اللُّقمَةِ، والمُضْغَةِ بعدَ المُضْغَةِ، ويَرمقُهمُ العيشَ تَرميقًا لا إبقاءَ عليهم، بل عَلى ما يَصِلُ إلى يَدِهِ مِنَ المالِ مِن طَريقِهم. وَزَعَموا أنه كانَ يُريبُه منهُم في بعضِ الأحيانِ تمرُّدُهم عليهِ واحتِفاظُهُم بأعراضِهم مِن دُونه فيملأُ أدمغتَهم بِدُخانِ الحشيشةِ ليسرِقَ عُقولهم، ويحلَّ عُقدَةَ إبائِهم، ويتركَهم لا يدرونَ ما يأتونَ وما يَدَعُونَ. وما وَصَلُوا مِن شَكواهم إلى هذا الحدِّ حتى سَقَطَ منهُمُ اثنانِ بينَ يَدي القاضي. فَراعَهُ مِن أمرهم ما رَاعَهُ، ثم عَلِمَ أنه الجوعُ فأمرَ لهُم بخبزٍ وأدمَ

(١) جمع سن: وهو العمر.

(٢) الخلة: الحاجة.

(٣) ثغر الشيء: ثلمه وفتحه.

فازدَحموا عليهِ يتَنَاهَبُونَهُ ويَزدَردُونَهُ ازدِرادَ الوَحْشِ فريسَتَهُ. وقد وَقَفَ ذلكَ الذئبُ المستأنِسُ ينظرُ إليهم نظرةً شَزْراءَ كتلكَ النظرةِ التي يَرمي بها الصَائِدُ صَيْدَه إذا أفلَتَ من حِبالَتِهِ. بذلك حدَّثني مَنْ رأى هذا المنظرَ بعينِه، فارتَعْتُ لسماع حَديثِه الارتياعَ كلَّه، وحسبتُ أنه يحدِّثني عَن حادثةٍ وقعَتْ في مَبدأ الخليقةِ في مَغارةٍ من مُغاور الجنِّ أو شفعةٍ من شَفعاتِ الجبالِ، وقلتُ له: أتعلمُ، أيها الرجُلُ، أنك تحدِّثني عَن إنسانٍ؟ قال: لا تعجَلْ، فما حدَّثتُك إلا عَن رجُل حَمَّار لا يفارقُ وجهَه صورةُ حماره ليلَه ونهارَه، وربما سَرَتْ إليهِ تلك النتيجةُ من هذهِ المقدِّمةِ. فكيفَ بك لو علمتَ أن هذهِ الرذيلةَ لا يترفَّعُ عنها في هذا البلدِ كثيرٌ من الأتقياءِ والصالحين، والأشرافِ والمستورين؟ قلتُ: لا تحدِّثْني عن شيءٍ، فلم يَبْقَ في قلبي مُتَّسعٌ، لاحتمالِه أكثرَ مما احتملتُ، والأمرُ لله وحدَه. ليسَت مسألةُ الزوايا وخباياها أمرًا يُستهانُ به، أو تُغضي العيونُ عليه فإننا نريدُ أن نُعِدَّ لوطنِنا رجالًا ذوي شجاعةٍ وإقدام، وعزَّةٍ وأَنَفَةٍ، من الذين إذا عَظُمَ الخطبُ كانوا حماةَ الديارِ، وإذا اشتَدَّ البأسُ لا يُوَلُّونَ الأدبار.

***

القمار

لا أستطيعُ أن أعتقدَ ما يسمُّونَهُ الجنونَ الفرعيَّ، ويريدونَ منه أن يكونَ الإنسانُ مَجنونًا في شأنٍ واحِدٍ من شئونِه، عاقِلًا في باقيها. وعِندي أنَّ الرجُل إما أن يكونَ عاقِلًا أو مجنونًا، ولا ثالثَ لهُما.

العقلُ قوَّةٌ يقتدرُ بها المرءُ عَلى ضَبْطِ نفسِه عَن شهَواتِها، فموقِفُهُ أمامها موقفٌ واحِدٌ، فإما أن يغلبَها جَميعًا أو تغلبَهَ جَميعُها.

أما ما يراهُ الرائي أحيانًا مِن استهتار الرجُل في بعضِ الشهواتِ استهتارًا يستَهلِكُ نفسَهَ وعقلَه، وزُهدَهُ في بعضِ زُهدُ الإعفَّاءِ القانِعينَ؛ فذلك لأنه رَغِبَ في الأولى فاسترسَلَ وراءَ رَغبتِه، ولم يَدْعُهُ إلى الأخرى داعٍ من شهواتِ قلبه ونَزَعاتِ نفسِه، ولو دَعاهُ لخَفَّ إليه وَلَبَّاهُ. ولن يُسمَّى الرجُلُ زاهِدًا أو عَفيفًا إلا إذا أمسَكَ نفسَه مِن شهوَةٍ تَدعُوه إليها فيدفعُها، وتثورُ ثَائِرتُها بينَ جنبيه فيَقْمَعُها.

لا تَقُلْ إن السِّكِّيرَ عاقِلٌ إن رأيتَه غيرَ فاسِق ولا عاهِر، وَاعْلَمْ أنه يُؤثِر الفسقَ ولا تجذُبُهُ إليه جَواذِبُهُ، ولَو آثَرَهُ لكانَ موقفُه مِنَ المواخير موقِفَهُ من الحاناتِ. ولا تقل إنَّ الفاسِقَ عَاقِلٌ إن رأيتَه غيرَ سارقٍ ولا مختلس، فإنه لا يحبُّ السَّرِقَةَ ولا الاختلاسَ، ولو أنها أحبُّهما لكانَ في التسلُّلِ إلى أعماقِ الدور والقصورِ، أبرَعَ منهُ في التسلُّلِ إلى مكامِنِ الفسق والفُجور. ولا تَقُلْ إن المقامرَ عاقِلٌ إن رأيتَه لا شاربًا ولا فاسِقًا، فإنَّ القمارَ قدِ استَهلَكَ شهوتَهُ واستَخْلَصَها لنفسِه، ولم يَدَعْ فيها فَضلَةً لِسواها، ولوَلا ذلك لكانَ أكبرَ السارقينَ، وأفسَقَ الفاسِقين.

ولو كنتَ من المصانِعينَ، الذين يُزخرفُونَ لأرباب الرذائل رذائِلَهم حتَّى يُصوِّروها في نظرهم فضائلَ بما يُلبِسُونَها مِن أثواب التأويل ويَصبُغُونَها من ألوان التعليل، لَمَا استطعتَ أن تُصانِعَ المقامرَ؛ لأن حالَهُ مِنَ الجهل الفاضح، والغَبَاوَةِ المُستَحْكَمَةِ، أبعدُ الحالاتِ عَن عُذر المعتَذرينَ، وتأويل المُتأوِّلينَ.

ما جلسَ المقامرُ إلى مائدةِ القمار، إلا بعدَ أن استَقَرَّ في ذهنِهِ أنَّ الدرهَمَ الذي في يدِه سيتحوَّلُ بعدَ هنيهةٍ مِنَ الزمن إلى دينار، ويعودُ بِهِ إلى أهله فَرِحًا مُغتبطًا. وأحسَبُ أن العقولَ العشرةَ مُجتمِعَةً ومُتفرِّقَةً تعجزُ عن إدراكِ هذه العقيدةِ ومثارِها.

إن كانَ يؤمِلُ الربحَ؛ لأنه يَرَى عَن يمينِه رجُلًا قد رَبح، فلِمَ لا يخافُ الخسرانَ؛ لأنه يَرَى في بعض مواقِفِهِ أحَدَ الرابحينَ ضاحِكًا، فَلِمَ لا يُبكيه مَنظرُ أصدقائِهِ الخاسرين، وهم يَتَساقَطون حوالَيْهِ تَساقُطَ جُنودِ المعركةِ تحتَ القذائفِ المُنْطَلِقَةِ؟

ما أشبَهَ المقامرَ الَّذي يطلبُ مِنَ الدينار الواحدِ مائةَ دينار بالكيميائيِّ الذي يطلبُ من القصدير فِضَّةً، ومنَ النحاس ذَهَبًا يتاجرُ بالأحلام في سُوقِ الأوهام، فيربحُ ربحًا مَقلُوبًا ويكسبُ كَسبًا معكُوسًا. وما أشبَهَهُما جميعًا بذلكَ الرجُل الذي عَلِمَ أنَّ في صحراءَ مِن صحاري أواسِطِ أفريقيَا كَنزًا دَفينًا لا تُعرَفُ له بُقعَةٌ مُعَيَّنَةٌ، وليسَ عليهِ دليلٌ، فَحَمَلَ فأسَه على كَتِفهِ ومَشى في تلكَ الصحراءِ يحفِرُ الحفرةَ التي تَستنفذُ قوَّتَه وتَستهلكُ مَتْنَهُ.. وتَبلُغُ مِن نفسِه ما لا يبلُغُ كَرُّ الغداةِ مَرُّ العَشِيِّ.. حتى إذا بَلَغَ قرارَتها.. وعَلِمَ أنه لم يَعثُرْ بضالَّتِهِ.. وتركَها وبَدأ يَحفِرُ غيرَها بجانِبها.. فلا يكونُ نصيبُه مِنَ الأُخرى أوفرَ مِن نصيبه منَ الأُولى.. وهكذا حتى أدرَكَهُ الموتُ، وهو في بعضِ تلك

الحُفرَ.. فكانَ هو نفسُه الكنزَ الدفينَ.. إلا أنه كنزٌ لا يطمَعُ فيه طامعٌ ولا يرغَبُ فيه راغِبٌ.

إن كنتَ لم تَسمَعْ في حياتِك باجتماع النقيضيْن وتَلاقي الضِّدَّيْن، فَاعْلَمْ أنَّ المقامِرَ في آنٍ واحدٍ أجشَعُ الناس، وأزهَدُ الناس، فلولا حُبُّه المالَ لَما هانَ عليه أن يبذُلَ راحتَهُ وشَرَفَهُ وسعادَتَهُ وحَياتَهُ في سبيلِه! ولولا زُهدُه فيه لما أقدَمَ باختياره على تَبديدِه عَلى مَائِدَةِ القِمار لا لغايةٍ يطلُبُها ولا لمأربٍ يَسعَى إليه.

أنا لا أُريدُ أن أنصَحَ لِلْمُقامِر بتَرْكِ القمار؛ لأني أعتقدُ أنَّ مَنْ يَملِكُ عَقْلًا مثلَ عقلِه، وفَهْمًا مثلَ فَهْمِهِ، لا يستطيعُ أن يَفهَمَ كلمةً ممَّا أقولُ، ومَنْ عَجَزَتْ حوادِثُ الدهر وعبَرُ الأيامِ عَن أن تردَّ عليه ضالَّةَ عَقلِهِ وتهديهِ السبيلَ إلى نفسِه لا تنفَعُه كلمة كاتب، ولا مَوْعِظَةُ واعِظٍ. وإنما أريدَ أن أقولَ للذين لم يُقَدَّرْ لهم أن يَخطُوا خُطوَةً واحدةً في هذه الطريق الوَعْرَةِ حتى اليوم: لا تقامروا جدًّا ولا هَزلًا، فإنَّ هَزْلَ القمار يجرُّ إلى جِدِّهِ، ولا تَمُرُّوا بمعاهِدِ القمار قَصْدًا ولا عَفْوًا، فإنَّ مَنْ حام حَولَ الحِمَى يُوشِكُ أن يَقَعَ فيه، ولا تُصاحِبُوا المقامرينَ بحالٍ من الأحوال؛ فإنهم لا يَرضونَ عَنكُم حتَّى تَتَّخِذُوا مِلَّتَهم، فإن فعلتُم خَسِرْتُم مَالَكُم وشَرَفَكُم وعِزَّتَكم وكرامَتَكم مِن حيثُ لا تجدونَ مِن رحمةِ القلوب ورَأفتِها ما يُعوِّضُ عليكُم ما خَسِرْتُم. فَارْحَمُوا أنفُسَكُم إن كنتُم راحمين، واتَّقوا الله إن كنتُم مؤمنين.

الأوصياء

مرضَ فلانٌ مَرَضَ الموتِ فلم يحفِلْ بالمنيَّةِ؛ لأنه اقتطَفَ زهرةَ الحياةِ جميعَها ولأنَّ الثمانينَ قد ألَحَّت عليه بصُبحِها ومَسائِها، ولَيلِها ونَهارِها، فلم تترُكْ له خَيطًا من خُيوطِ الأمل، ولا شُعاعًا من أشعَّةِ الرجاءِ لولا أنَّ بينَ يدَيهْ وَلَدًا صَغيرًا في السابعةِ مِن عُمرِه قَد ماتَتْ أُمُّهُ منذُ عهدٍ قريب. والشيوخُ الكبارُ يحنُّونَ إلى أبنائِهم الصغار حَنينَ الإبل إلى أعطانِها، فنظرَ إليه وهو يحومُ حولَ فراشِه، نَظرةً طويلةً لم يَسترجِعْها إلا مُبَلَّلَةً بالدمع المنسَجم، ثم زَفرَ زَفرةً حَرَّي خُيِّلَ لرائِيها أنها الزفرةُ الأخيرةُ، وأنشأَ يقولُ: أي بُنَيَّ، مَنْ له بقلب يرعاكَ مثلَ قلبي، وعينَ تسهَرُ مثل عَيْني، وروح تُرفرِفُ فوقَ رأسِكَ مثلَ رُوحي، ونفسٍ تَضمُّ جَوانِحُها عليكَ مثلَ نفسي؟

أي بُنَيَّ كأني برَكْب الموتِ، وقَدَ نَزَلَ بي، وحَلَّ بساحَتي، وكأني به، وقد احتَمَلَني مِن فضاءِ القصرِ إلى مَضيقَ القبرِ، ومِن نُورِ الحياةِ، إلى ظُلمَةِ الموتِ وكأني بِكَ، وقد طَفِقْتَ تَنشُدُني فلا تَجدُني، وتُفَتِّشُ فلا تراني، فَفَزعتَ وارتَعْتَ، ثم صرختَ فَصُعِقْتَ، ولم تَجِدْ بجانِبكَ مَنْ يمسحُ دمعَكَ ويخفِّفُ حَزَنَكَ.

مَن لي بصديق أثِقُ بوُدِّهِ وإخلاصِه، ورَحمتِهِ وحَنانِه، فأَكِلُ إليهِ أمرَكَ وأعتمِدُ عَليه في تأديبكَ وتخريجكَ، وإبلاغِكَ ما أرجُو لكَ منَ السعادةِ في مُستقبَلِ دَهرِكَ؟!

فما أتمَّ نجاءَه حتى دَخَلَ عليه صديقُه الوحيدُ الذي كانَ يأنسُ بهِ ويستخلِصُه لنفسِه، وقد سَمعَ آخِرَ نجواه، فقال له: هَوِّنْ عليكَ يا مولايَ فأنا صديقُكَ الذي تَنشُدُه، وأنا والدُ وَلَدِكَ مِن بعدِكَ، وخليفتُكَ بعد اللهِ عليه، ثم تهافَتَ على فراشِه وظَلَّ يبكي لبكائِهِ، وينشِجُ لنشيجِهِ، فاستنارَ قلبُ الرجل بنور الأمل وقال: أحمدُكَ اللَّهُمَّ قد رحمتَ ولدي وحفظتَ بَيتي.

وما هي إلا أيامٌ قلائِلُ حتى كَتَبَ الشيخُ كتابَ الوصيَّةِ بيدِه، ثم أجابَ دعوةَ ربِّه تاركًا في يدِ ذلكَ الصديق الكريم مجدَهُ وشرفَهُ، ومالَهُ وَوَلَدَهُ.

اتَّخذَ الشيخُ ذلكَ الرجُلَ صَديقًا له في الأعوام الأخيرةِ مِن أعوام حياتِه بعدَما رآهُ يُكثِرَ الاختِلافَ إليه، ويُطيلُ اللبثَ بجانِبه، ويُلازِمُ الوقوفَ عندَ أمره ونَهْيِه، ويَخفُّ لقضاءِ حاجاتِه. ذلكَ إلى ما كانَ يراهُ مَتجَمِّلًا بِهِ مِن صلاحٍ مَملوءةٍ بالرَّكعاتِ والسَّجداتِ، والتَّسبيحاتِ المُتواليات، وعِفَّةٍ حتى في حَضرَتِهِ.. فاستَخْلَصَهُ لنفسه.. وأنزَلَهُ مِن قلبِهِ المنزلةَ التي لا ينزل معهُ فيها غيرُ ولدِه.. وأصبَحَ آثَرَ الناس عندَهُ الأجَل، فأوصاهُ بما أوصَى، وعَهِدَ إليه بما عَهِدَ.

هذا هو تاريخُ ذلكَ الصديق في حياةِ الشيخ، أما تاريخُه بعدَ مماتِه فأُسمِعُكَ منهُ ما تَهوى لهُ الأفلاكُ عَجَبًا، وتَخُرُّ له الجبالُ هَدًّا.

لم تكُن صلاتُه إلا رياءً ونِفاقًا، وركوعُه وسُجودهُ إلا كَيْدًا ومُداهَنَةً، وعِفَّتُهُ وزَهادَتُهُ إلا حبالًا نَصَبَها ليعَلَقَ بها عقلُ الشيخِ، وقد عَلِقَ، فَيسلبَهُ مالَهُ وَولَدَهُ، وقَدَ فَعَلَ. وما كانَ اختِلافُهُ إليه، ولا تردُّدُه عَليه إلا طَمَعًا في هذا المصير الذي صار إليه. فلمَّا عَلِمَ أنْ قَدْ تَمَّ له مِن أمرِهِ ما أرادَ، أطلَقَ يَدَهُ في مال الصغير يعبثُ به عَبَثَ النَّكْباءِ بالعُود، ويبتاعُ بِهِ لنفسِه ما شَاءَ أن يبتاعَ مِن قُصور ودُور وبَساتينَ وَضياع، فَنَبَهَ ذِكْرُهُ بعدَما كانَ خامِلًا، ونَبَتَ ريشُه بعدَما كان عاريًا، وأصبَحَ صاحِبَ السلطانِ المطلَقِ في ذلكَ القصرِ يُذِلُّ مَنْ يشاءُ ويُعِزُّ مَنْ يشاء.

أما شأنُه مع الوَلَدِ فقد عَلِمَ أنه سيبلغُ عمَّا قليل أشدَّه، ويملِكُ رُشدَهُ وأنه سيقطَعُ عَليه لذَّتَهُ، ويقفُ موقِفَ المُعترضِ سبيلَه، ويحاسِبُهُ على القليل والكثير، والصغير والكبير، فلم يُرَ بُدًّا مِن أن يُعِدَّ لذلكَ اليوم عُدَّتَهُ. فَعَمَدَ إلى الولدِ فقطَعَهُ عَن المدرسةِ؛ لأنه لا يحبُّ أن يَنشأَ مُتَعَلِّمًا، ثم أَغرَى به مَنْ ساقَهُ إلى مَواطِن الفِسق وَجامع الفُجُور، لأنَه لا يُحبُّ أن يَنشأَ عاقِلًا. وما زالَ يُنفِقُ عَليه وعَلى الموكَلينَ بإفسادِهِ مِن وراءِ حِجاب حتى عَلِقَ الشرابُ برأسِه عُلُوقَ السِّلالِ[1] بالصُّدور، فأصبَحَ بينَ الحاناتِ والمواخير كالطائر بين الأغصانِ لا يُرسِلُ الساقَ إلا مُمسكًا ساقًا.

فكأنما وَكَل بعَقلِه مِقراضًا يَبْضَعُ له في كلِّ يوم منهُ بضعَةً حتى كادَ يأتي عليه. فما بَلَغَ السنَّ التي يرشُدُ فيها القاصرونَ حتى استَحال الوصِيُّ على القاصِر قَيِّمًا على المعتوهِ، ولم يبذُلْ في سبيل الوصولِ إلى ذلك أكثَرَ من لُقَيْمَاتٍ أَلْقَاها مِن فتاتِ تلكَ المائِدَةِ إلى أعضاءِ المجلسِ الحسبي، فأدخَلُوهُ تلك الجَنَّةَ الزهِرةَ بغيرِ حساب.

---

(١) السِّلال: مرض السل.

شَرَّعَ اللهُ شريعَةَ الحَجْر على السفهاءِ والمَعتُوهينَ، وإقامةَ القُوَّامِ عليهم رحمةً بهم، فاستحالَتْ على يَدِ المجالسِ الحسبيَّةِ نقمةً عليهم، وأصبَحَ اللِّصُّ الذي يجهلُ صِناعَةَ فَتْحَ الأقفالِ ويتَّقي مَغَبَّةَ تَسَلُّق الجدرانِ قادرًا على أن يسرقَ ما يشاءُ تحتَ رايةِ هذهِ الشريعةِ المقلوبةَ مِن حيثُ يأمنُ على نفسِه الوقوفَ أمامَ مَحكَمَةِ الجنايات، وجَرَّ الأغلالِ الثِّقَالِ في غَياباتِ السجونِ. وانتقلَتِ الثرواتُ العَظيمَةُ مِن أيدي أصحابها مَخَافَةَ أن يُسْرفُوا فيها إلى أيدي آخرينَ يُبَدِّدُونَها تَبديدًا، ويمزِّقونَ أديمَها تمزيقًا، مِن حيثُ لا يكونَ بينَهم وبينَ المُوَرِّثِ صِلَةُ نَسَبٍ، أو وَشيجَةُ رَحِم، حتَّى أصبَحَ السعيُ إلى جَمْع المالِ وادِّخَارِهِ للوارثينَ في هَذا العصر عَمَلًا منَ الأعمالِ الباطِلَةِ، وضَرْبًا مِن ضُروبِ الخرقِ الواضِح، والجهلِ الفاضِح.

فمن لي إن أنا دَبَّرتُ المالَ وجَمَعْتُه أن لا يكونَ خَليفَتي عليهِ مِن بَعدي لَصًّا مِن أولئكَ اللصوص الذين تمنحُهُم المجالسُ الحسبيَّةُ، ما تَمْنَحُهُم الشرائعُ الإلهيَّةُ؟! ومَنْ لي أن أعيشَ إلى أن أُدركَ وَلَدي فأتولَّى أمرَ تربيتِهِ بنفسِي قبلَ أن يَظفَرَ بِهِ في حَداثَتِهِ ظفرُ جارح من أظفار أولئكَ الأوصياءِ فيُميتَ نفسَه، ويقتُلَ عقلَه. ويُفسِدَ عليه حياتَه، ويُلبسَهُ مِنَ الفضيحة والعارِ ما يُقلقُ نفسي في عالَمِها، ويُزعِجُ عِظامي في مرقَدِها. فلقد حدَّثني مَنْ قَصَّ تلكَ القِصَّةَ أن ذلكَ الوصيَّ لمَّا عَلِمَ أنْ قَد تَمَّ له من الحَجْر على ذلكَ الغُلام ما أرادَ، عَمَدَ إلى تَزويجه مِن فتاةٍ حسناءَ مِن بناتِ الأشرافِ ما كانَ يعنيهِ أن يُزَوِّجَه مِنها لولا أنَّ لهُ في ذلكَ مأربًا مِنَ المآرب الفاسِدَةِ. فإنها ما كادَت تخلعُ ثوبَ عُرسِها حتى أنشأ يختلفُ إليها، ويُكثِرُ ازديارَها في الجناحِ الذي تَسكُنُه مِنَ القصر، بما لَهُ على زوجِها وعَليها مِن حَقِّ الولايةِ والرعايةِ، وبحُجَّةِ النظرِ في شئونها ومَرافِقَها.

ثم ما زال يختِلُها عَن نفسِهاويُزَيِّنُ لها ما يُزَيِّنُهُ الشيطانُ للإنسانِ حتَّى عَلِقَتْ بحبالَتِه، كما عَلِقَ بها غيرُها من قبلِها، فكرهَتْ زوجَها، وبَرَمَتْ به فرابَهُ مِن أمرِها ما رابَهُ، فَرَصَدَها ليلةً مِنَ اللَّيالي حتَّى عَرَفَ سِرَّها وموضِعَ هَواها، فشَكَا فلم يَجِدْ سامِعًا، ثم بَكَى فلم يجدْ راحمًا فكانَ يَقضي كثيرًا مِن لياليه في غُرفَةٍ مِن غُرَفِ القصر واجمًا مُطرقًا مُسلمًا رأسَه إلى رُكبَتَيهِ، ودمعُه إلى خَدَّيْه، لا سميرَ له، ولا مُؤنِسَ إلا رنَّاتُ الضحكاتِ التي تَنهَلُّ عليه من مخدع زوجِهِ. فكانَ يثِبُ تارَةً وثبَةَ الأسدِ فيثيرُ في القصر ثائرةً شعواءَ تَضِجُّ لها جَوانبُهُ، فيتسارَعُ إليهِ الخَدَمُ

فيضربونَ على يَدِهِ وفَمِهِ، وأُخرى يعودُ إليه بَلَهُهُ وخَبَلُهُ، فينظرُ إلى هذه المناظرِ المؤلمةِ نَظَرَ الضاحِكِ اللَّاعِب.

مرَّت على تلكَ الحوادِثِ سنواتٌ استأْثَرَ فيها ذلكَ الوصيُّ بتلكَ الدائرَةِ الواسعَةِ وألَحَّ عليه بكَلْكَلِهِ، حتَّى اجتزَّ وَبْرَها، ثم استكْشَطَ جِلْدَها فلم يَبْقَ مِنها إلا هيكلٌ عظمِيٌّ قَائِمٌ. فلَّما علِمَ أن قد قامَتِ قيامَةُ الناس عليهِن وأنَّ قِصَّتَهُ معَ الغُلام وزَوجَتِهِ، قد ملأَتْ مَسْمَعَ الخافِقيْنِ، وأن نجمَه الثاقِبَ قد مالَ إلى الأفولِ، عَمَدَ إلى حِيلَةٍ شيطانيَّةٍ خَتَم بها تلكَ الروايةَ الغَريبَةَ بهذا الفصْلِ المُحزن الأليم.

تَفَتَّحَ للغُلام بعدَ انقباضِه، وابتَسَمَ إليه بعدَ تقطيبه، وابتاعَ لهُ جميعَ ما اقتَرَحَهُ عَليهِ من ثوب فاخِرٍ، ومَركَب فارهٍ، ومزاهِرَ وعِيدانٍ وكئوسٍ ودِنانٍ، ثم خَلا به في ساعةٍ من ساعاتِ نَشوَتِهِ وارتياحِهِ فقال له: أيُّها الصَّديقُ، قد آن أوانُ استِقلالِكَ بشأنِكَ وانفرادِكِ بأمرِكَ، فاكتُب إلى المجلس الحسبيِّ رقعَةً تطلُبُ فيها رَفْعَ الحَجْر عنكَ، واكتُبْ توقيعَكَ على هذهِ «المخالصَةِ» براءَةً لِذِمَّتي. فاستُطيرَ الغُلامُ فَرَحًا وسُرورًا، وما لبثَ أن كتَبَ الأولى ووقَّع على الأُخرى، ثم أوْعَزَ إلى المجلس الحسبيِّ بتلبيَةِ طَلَبِهِ فلَبَّاهُ، وقَضَى برَفْعِ الحَجْرِ عنهُ. فاستقبَلَ تلكَ النعمةَ استقبالَ الظامِئِ كأسَ الشراب، وكانَ لابُدَّ له مِن أن يشرَبَ حتَّى يبشَمَ، فَفَتَّشَ بينَ يدَيْهِ عن مالٍ يُنفِقُهُ فلم يَجِدْ. وكان الرجُلُ قد وَكَّلَ به عَونًا من أعوانِهِ يداخِلُهُ ويتَحيَّنُ فُرصةَ حاجَتِهِ إلى المالِ فيمنحُه ما يريدُ، فكانَ يُعطيهِ المالَ باليمينِ، ويأخُذُ منهُ صَكَّ البَيعِ باليسار. وما زالَ هَذا يُعطي وذاكَ يأخُذُ حتَّى أصبَحَ نصفُ «الدائرة» بعد عامَيْنِ مُلكًا لعَوْنِ الوَصِيِّ غَدًا بثمنٍ لا يُساوِي عُشرَ مِعشارِها، بل بغير ثَمن. وهَل ابتاعَها مُبتاعُها إلا بمالِها، وأنفقَ عليها إلا ثَمَرتَها؟

هنالكَ قامَ الوصيُّ وقَعَد، ونادَى في الناس بصَوْتٍ يُشبهُ صوتَ الحقِّ ونَغمةٍ تُشاكِلُ نغمةَ الصِّدق: أيها الناس، قد كنتُ أنذَرْتُكُم بمصير هذا الغُلام إن صارَ أمرُه إلى نَفسه، فكذَّبتُم قولي، وسَفَّهتُم رأيي، وما زلتُم تَقُولُونَ وتتَقَوَّلونَ حتى أحرَجْتُم صَدري، ودَفَعْتُموني إلى الغَدْر بذلكَ العهدِ الذي أخذَهُ عَليَّ ذلك الصديقُ الكريمُ أن أتولَّى شأنَ وَلَدِهِ مِن بَعدِهِ، ولا أتخلَّى ساعةً واحِدَةً عَن رعايَتِهِ وتَعَهُّدِهِ، فكانَ ما كانَ ممَّا تَعلمونَ مِن تبديدِ ثروَتِهِ وتَمزيقِها. فها أنتُم تَرَوْنَ بأعينِكُم شُؤمَ رأيِكُم وجَريرَةَ سَعيِكُم.

ثم أعادَ كَرَّتَهُ عَلى الغُلامِ وسَعَى سَعْيَهُ في المجلس الحسبيِّ فأعادَ سِيرَتَهُ الأُولى ووضَعَ في عُنقِهِ غِلًّا لا فَكاكَ له مِن بعدِه إلى يومَ يُبعَثُونَ.

ليتَ شِعري، هَل يعلَمُ ذلكَ المقبورُ في لحدِه ما صَنَعَتْ يَدُ الحَدَثَانَ بمالِهِ وَوَلَدِهِ، وأن المالَ قَد ورثَهُ غيرُ وارثِهِ، واستأثَرَ بهِ غيرُ صاحِبِه؟! وأن وَلَدَهُ قَد أصبَحَ بعد ذلك الملكَ الكبيرَ، والجنَّةَ والحرير، يطلبُ المُضغَةَ فتعوزُه، والجُرعَةَ فتَلتوي عليه؟ وأنه يبيتُ الليالي ذواتِ العَدَدِ مُطَّرحًا في زوايا أعَدَّ عُدَّتَهُ للوقوفِ بينَ يدَي الله تعالى في ذلكَ اليوم المشهودِ؟ يومَ تُكشَفُ الهناتُ، وتُفضَحُ العَوراتُ.. فيُمسِكُ وَلَدَهُ بيُمناهُ وَوَصِيَّهُ بيُسراه، ثم يُناجي ربَّه ويقول:

«اللَّهُمَّ أَعِني عَلى هذا الكاذب الذي خَتَلَني وخَدَعَني وخَفَرَ ذِمَّتي وخاسَ بعَهدي وخانَ أمانتي، وأفسَدَ وصيتِّي، وخُذْ لولدي بحقِّه من هذا الظالم الذي سَرَقَ مالَه، وهَتَكَ عِرضَه، وعَذَّبَ نفسَه، ونَغَّصَ عيشَه. فأنتَ أعدَلُ الحاكمينَ وأرحَمُ الراحمين».

***

العام الجديد

في مثل هذا اليوم من كلِّ عام يقفُ رَكْبُ العالَم السائِر بمنزِلَةٍ من منازِلِ الحياةِ، فينزلُ عَن مطاياهُ ليَستريحَ فيها ساعَةً مِن وَعْثاءِ السَّفَرَ بعدَ أن نالَ منهُ الأينُ والكَلالُ، وأضناهُ سُرَى الليل وسَيْرُ النهار، ثلاثَمائةً وخَمْسَةً وسِتيِّن يومًا.

هنالكَ يجتمعُ السَّفْرُ في صعيدٍ واحِدٍ فيتعارَفُونَ ويتَصافَحُونَ، ويَتَفَقَّدُ بعضُهم بَعضًا، فيجدونَ أنَّ فلانًا ماتَ جُوعًا، وفُلانًا ماتَ ظَمأً، وآخرَ افترسَهُ سَبُعٌ، وآخرَ قَتَلَهُ لِصٌّ، وآخرَ ماتَ غِيلَةً، وآخرَ سَقطَ عَيًّا، وآخرَ طارت به قنبُلَةٌ، وآخرَ هوتْ به طيَّارَةٌ، وآخرَ اجتاحَهُ بركانٌ، وآخرَ تردَّى عليه مَعدَنٌ. ثم يعودونَ إلى جرائِدِ الإحصاءِ فيَدَوِّنُونَ فيها حاضِرَهم، كما دوَّنُوا ماضيهم، ثم يوازنونَ بينَ هذا وذاكَ فيجدونَ أنَّ الحاضِرَ شَرٌّ، وأنَّ ميادينَ الحروب لا تزالُ مُلَوَّثةً بالدماءِ، ومَصانعَ الموتِ لا تزالُ تَقْتَنُّ

obeikandl.com

في عَدَدِهِ وتَستكثِرُ مِن أدواتِه، وأنَّ جُذورَ الشرِّ القديمةَ لا تزالُ ناشبةً بنُفُوسِ البَشَرِ، حتَّى ما يَتَمَنَّى أحَدٌ أن تقعَ عينُه على أحدٍ، وأنَّ سُحُبَ البغضاءِ القاتمةَ لا تزالُ مُخَيِّمَةً على المجتمعِ الإنسانيِّ مِن أدناهُ إلى أقصاهُ شُعُوبًا وَقبائِلَ وأجناسًا وأنواعًا، ومَذاهِبَ وأديانًا، ومَنازِلَ وأوطانًا، فيبغضُ الرجُلُ صاحبَه لأنه يخالِفُهُ في جنسِه، فإن عَرَفَ أنَّه يوافِقُهُ أبغَضَهُ؛ لأنه يخالِفُهُ في دينِه، فإن وافَقَهُ فيهِ أبغَضَهُ؛ لأنه ينطِقُ بغيرِ لُغَتِه، فإن نَطَقَ بها أبغضَهُ لأنَه لا يشارِكُهُ في وَطنِه، فإن كانَ مشاركًا له أبغضَهُ لأنه يزاحِمُهُ في حِرفَتِه، فإن بَعُدَ عَن طريقِ مُزاحَمَتِهِ أبغَضَهُ؛ لأنه يُخالِفُهُ في رأيِه، فإن لم يُخالِفْهُ أبغَضَهُ لأنه يُخالِفُهُ في رأيِه، فإن لم يُخالِفْهُ أبغَضَهُ لأنه لا يُحاكِيهِ في لَوْنِه، فإن لم يَجِدْ شَيئًا مِن هَذَا ولا ذَاكَ أبغَضَهُ؛ لأنهُ شخصٌ سِواهُ! كأنَّ قضاءً حَتمًا على الإنسانِ أن يبغضَ كلَّ صورةٍ غيرَ الصُّورةِ التي يَراها كلَّ يومٍ في مِرآتِه.

فإذا فَرَغُوا مِنَ النظرِ في جرائِدِ حِسابِهم، والموازَنَةِ بينَ حاضِرِهم وماضِيهم، أضافُوا إلى سيِّئَاتِهم الماضِيَةِ سَيِّئَةَ الغِشِّ والكَذِب. فتناسَوْا كلَّ هذا وَوَضَعَ كلٌّ منهُم يَدَهُ في يدِ أخيه مُهَنِّئًا لهُ بالعيدِ السعيدِ داعِيًا لهُ بدَوامِ الغِبطةِ والهناءَةِ، ثم تَنادَوا للرَّحيلِ؛ لِيَستقبلُوا المرحَلَةَ الآتيةَ بعدَ قَطْعِ المرحَلَةِ الماضِيَةِ.

عَلامَ يهنِّئُ الناسُ بعضُهم بَعضًا؟ وماذا لَقُوا مِنَ الدُّنيا فَحَرِصُوا على البقاءِ فيها؟ واغتبطوا المراحِلَ التي يَقطعُونَها منها؟ وهل يوجَدُ بينَهم شخصٌ واحدٌ يَستطيعُ أن يزعَمَ أنَّه أصبَحَ سَعيدًا كما أمسَى؟ أو أمسَى سَعيدًا كما أصبَحَ؟ أو أنه رأَى بَرْقَ السعادَةِ قَدْ لَمَعَ في إحدى لَيالِيه ولم يَرَ بجانِبِهِ ما يَرَى في الليلةِ البارقَةِ مِن رُعُودٍ قاصِفَةٍ، وَرياحٍ عاصِفَةٍ، وصواعِقَ مُحرِقَةٍ، وشُهُبٍ مُتطايرَةٍ؟!

بِأَيَّةِ نعمةٍ مِنَ النِّعَم، أو صَنيعَةٍ مِنَ الصنائعِ، تمنُّ يَدُ الحياةِ عَلى إنسانٍ لا يَفلتُ مِن ظُلمَةِ الرَّحِمِ إلا إلى ظُلمَةِ العَيْشِ، ولا يفلتُ مِن ظُلمَةِ العَيْشِ إلا إلى ظُلمَةِ القَبْرِ، كأنَّما هوَ يونُسُ، الذي التقمَهُ الحوتُ فمشَى في ظُلُماتٍ بعضُها فوقَ بعضٍ! وأيَّةُ يدٍ مِنَ الأيادي أسْدَتْها الأيامُ إلى رجُلٍ يظلُّ فيها مِنَ مَهدِهِ إلى لَحْدِهِ حائِرًا مُضطربًا، يفتِّشُ عَن ساعةِ راحَةٍ وسلامٍ تَهدأُ فيها نفسُه، ويثلجُ صدرُه، فلا يعرفُ لها مَذهبًا ولا يجدُ إليها سَبيلًا إن كان غَنيًّا اجتمَعَتْ حولَه القلوبُ الضَّاغِنَةُ[١]، واصطَلَحَتْ عَليه الأيدي الناهِبَةُ[٢]، فإما قَتَلَتْه، وإما أفْقَرَتْهُ؟!

(١) الضاغنة: الحاقدة. (٢) الناهِبَة: السارقة.

وإن كانَ فَقيرًا عَدَّ الناسُ فَقرَهُ ذَنبًا جَنَتْهُ يَداه، فتتناوله الأَكُفُّ بالصَّفْعِ، والأرجُلُ بالرَّكل، والألسُنُ بالقذف، حتى يموتَ الموتَةَ الكُبرى بعدَ أن ماتَ الموتَةَ الصُّغرى.

وإن كانَ عالمًا وَلَعَ الحاسِدونَ بذَمِّهِ وهَجْوِهِ، وتَفَنَّنُوا في تَشويهِ سُمْعَتِهِ وتسويدِ صَحيفَتِهِ ولا يَزالونَ بهِ حتَّى يُعطِيَهُمُ العُهودَ والمواثيقَ التي يَرضَوْنَها أن يعيشَ عالمًا كجاهِلٍ وَحَيًّا كَمَيِّتٍ، وأن يكتُمَ علمَهُ في صَدرِهِ، فلا يُفضِي بهِ إلى لسانٍ ولا قَلَمٍ، حتى يُدرِكَهُ الموتُ.

وإن كان جاهِلًا اتَّخذَهُ العالِمونَ مَطِيَّةً يَركَبُونَها إلى مَقاصِدِهم وأغراضِهم مِن حيثُ لا يُهادِنُونها ولا يَرفقُونَ بها حتى يَعقروها[1]، وإن كانَ بَخيلًا ازدَرَتْهُ القلوبُ، واقتَحَمَتْهُ العيونُ وتقلَّصَتْ لهُ الشفاهُ، وبَرَزَتْ له الأنيابُ، وانقبَضَتْ لهُ الأسِرَّةُ، والتَهَبَتْ لهُ الأنظارُ، وأرسَلَتْ إليه الأغصانُ أَلْسِنَةَ نيرانِها حتَّى تُحرِقَهُ.

وإنْ كانَ كَريمًا مُحسِنًا عاشَ مُتَرقِّبًا في كلِّ ساعة من ساعات ليلِهِ ونهارِهِ شرَّ الذينَ أحسَنَ إليهم إما لأنه أذاقَهُم جُرعَةً باردَةً فاستعْذَبُوها فاستَزادُوهُ فلَم يَفْعَلْ، فهُم يَنْتَقِمُون مِنهُ، أو لأنهم مِن أصحاب النُّفُوسِ الشرِّيرَةِ الذين يُخَيَّلُ إليهم أنَّ المحسنَ يريدُ أن يَبتاعَ مِنهم نفسَه بما يُسدي، وهم يأبون إلا يَتَناوَلُوا منهُ الإحسانَ بلا مُقابل فهُم يَنْقِمُون عليه إن عَرَفَ كيفَ يفلتُ من أيديهم.

لا سعادَةَ في الحياةِ إلا إذا نَشَرَ السلامُ أجنِحَتَهُ البيضاءُ على هذا المجتمع البشريِّ، ولن ينتشرَ السلامُ إلا إذا هَدأَتْ أطماعُ النفوس، واستقرَّت فيها مَلَكَةُ العدلِ والإنصاف، فعرفَ كلُّ ذي حَقٍّ حَقَّهُ، وقَنَعَ كلٌّ بما في يَدِهِ عمَّا في يَدِ غيره، فلا يحسدُ فقيرٌ غنيًا، ولا عاجزٌ قادرًا، ولا مَحدودٌ محدودًا، ولا جاهلٌ عالِمًا؛ وأشعرتِ القلوبُ الرحمةَ والحنانَ على البائسينَ والمنكوبينَ فلا يهلكُ جائعٌ بينَ الطاعمينَ ولا عارٍ بينَ الكاسِينَ؛ وامتلأتِ النفوسُ عِزَّةً وَشَرفًا، فلا يبقَى شيءٌ من تلكَ الحَبائِلِ المنصوبَةِ لاغتيالِ أموالِ الناس باسم الدين مرَّةً والإنسانيَّةِ أخرى؛ ولا تَرَى طبيبًا يدَّعي عِلْمَ ما لَم يعلَمْ ليسلبَ المريضَ روحَه ومالَهُ، ولا مُحاميًا يخدَعُ مُوَكِّلَهُ عن قضيَّتِهِ ليسلبَ منه فوقَ ما سَلَبَ منهُ خَصْمُهُ، ولا تاجِرًا يَشتري بعشرَةٍ ويبيعُ بمائة، ثم يُنكِرُ بعدَ ذلك أنه لِصٌّ خَبيثٌ، وكاتبًا يَضربُ الناسَ بعضَهم ببعض حتَّى تسيلَ دِماؤهُم فيمتَصُّها كما يضربُ القادحُ الزندَ ليظفرَ الشَّرَرِ المتطايرِ منهما.

---

(١) حتى يعقروها: حتى يصيبوها بالجراح.

وما دامتَ هذه المطالبُ أحلامًا كاذبةً وأمانيَ باطِلَةً، فلا مَطمَعَ في سلام ولا أمان، ولا أمَلَ في سَعادَةٍ ولا فَرْقَ بينَ أمس الدهر ويومِهِ ولا بينَ يومِهِ وغَدِهِ، ولا فرقَ بينَ مُغفَلاتِ أيّامِهِ ما عَرَفْتَ، وما ذاقَ أحَدٌ من نَعْماته غير ما ذُقتَ، وَلْيَفْرح بالعام الجديد مَنْ حَمَدَ ما مَضى مِن أيامِهِ وسَالِفِ أعوامه.

***

سحر البيان

رأيتُ في إحدى رواياتِ شكسبير، وهي الروايةُ المعروفةُ بروايةِ «يوليوس قيصر» موقفًا لبطلَيْن مِن أبطالِ الفَصاحة، وفارسَيْن مِن فرسانِ البيانِ. وقد وَقَفَ كلٌّ مِنهما مِن صاحِبِهِ مَوقِفَ اللاعبِ مِن اللاعِبِ، وَوَقَفَ الشعبُ الرومانيُّ بينَهما موقِفَ الكُرَةِ مِن أقدامَ اللاعبين.. تعلُو بها حِينًا وتَسفُلُ أحيانًا، فلا تَثْبتُ صاعِدَةً ولا تَستَقِرُّ هابطَةً، فعلمتُ أنَّ العامَّةَ عامَّةٌ في كلِّ عصر، والشعبَ شعبٌ في كلِّ عَصْر، وأنَّ سوادَ تلأُمَّةِ تحتَ صَرْحِ فرعوْنَ مثلُه تحتَ عَرش قَيْصَرَ، وأنَّ رأسَ التاريخ اليسوعيِّ، مثلُه في ذَنَبَ التاريخ المحمَّدي، تدنُو بِهِ كَلِمةٌ، وتنأى به أُخرى، وتَجذُبُهُ دمعٌ وتَدفَعُهُ ابتِسامَةٌ، وتطيرُ بلُبِّهِ الشِّعريَّاتُ والخيالاتُ طيرانَ الريحِ الهوجاءِ بذَرَّاتِ الهَبَاءِ.

عَلِمَ بروتسُ الشريفُ الرومانيُّ أنَّ يوليوسَ قَيْصَرَ قدِ استعبَدَ الشعبَ الرومانيَّ وأذَلَّ نفسَهُ ذُلًّا.. مَلَكَ عليهِ حواسَّه ومشاعِرَهُ حتَّى ما يكادَ يشعرُ بمرارته، وكذلك الذُّلُّ إذا نَزَلَ بالنُّفوس سَلَبَها كلَّ شيءٍ حتى الشعورَ بنُزُولِهِ فيه. وعَلِمَ أنَّ حياةَ ذلك الشعب بموتِ ذلكَ القيصر.. فهانَ عليه أن يقتلَ صَديقَهُ وسيِّدَهُ، افتداءً لأُمَّتِهِ وَوَطَنِهِ، فَطَعَنَهُ طعنَةً نجلاءَ، سَلَبَتْهُ نفسَه في لحظَةٍ واحِدَةٍ، فهاجَ الشعبُ الرومانيُّ على القاتِلِ وأعوانِهِ، هِياجَ الأمواج الثائِرَةِ على السُّفُنِ الماخِرَةِ. فَوَقَفَ الرجُلُ خَطيبًا أمامَ ذلك الشعب الهائج المُحتَدِمِ وقفَةَ المُستَبْسِلِ المُستَميتِ، وكان لابُدَّ لهُ في هذا الموقِفِ مِن أحَدِ المصيرينِ، إما نَصْرٌ يعلُو بِهِ إلى مَدارِكِ الأملاك، أو خذلانٌ يَهوي به إلى مَقَرِّ

obeikandi.com

الأسماكِ ومِن أحدِ المخرجين: إما مخرجُه مَرفُوعًا على محفَّةِ الأبطالِ، أو محمولًا على أعناقِ الرِّجالِ، فبعد لأي ما استطاعَ بعضُ الزعماءِ أن يسَكِّنَ ثائِرَةَ الثائرينَ ويَستَدْرجَهُم إلى سَماع دفاعِ القاتِلِ عَن نفسه، أو التَّفكُّهِ بمَنْظَرِهِ المُضْحِكِ، وهو يتلمَّسُ في هذه الظلمةِ الحالِكةِ المخرَجَ مِن جَريمَتِهِ.

***

الخطبة

بروتس «وهو على منبر الخطابة»: أيُّها الرومانيون، أتعِدُونَني بالصبر قَليلًا على سماع ما أقولُ مِن حُلو الكلام وَمُرِّهِ إكرامًا لموقِفي وإكرامًا للعَدلِ؟

أنا لا أُريدُ أَن أخدَعَكُم، ولا أعبثُ بعُقُولِكُم وأهوائِكُم، بَل لأُريدُ منكُم أن تنظُروا إلى قضيَّتي نَظرَ الحَذِرِ المتيقِّظِ الذي لا يُعطي هوادَةً ولا يُلقي قِيادًا؛ لأني لا أعتقدُ أن في زاويةٍ مِن زواياها كَمينًا أخافُ أن تَقَع عليهِ العيونُ.

أيها الرومانيون، إنْ كانَ بينكُم صديقٌ لـ«قيصَر» يحبُّه ويذوبُ حُزنًا عليهِ فَلْيَسْمَحْ لي أن أقولَ له: أيها الصديقُ الكريمُ، إن بروتسَ قاتِلَ قيصَر كان يحبُّه أكثرَ مِنك.

أيها القوم، واللهِ لو كَذَّبْتُ الناسَ جَميعًا ما كَذَّبْتُكُم، فاعْلَمُوا أني ما قتلتُ قيصَر؛ لأني كنتُ أبغضُهُ، بل لأني كنتُ أحِبُّ روما أكثرَ منه. كان قيصرُ طمَّاعًا فقتلتُه، ففي ساعةٍ واحِدةٍ منحتُه دَمعي وقَلبي وخَنجَري.

أنا لا أصدِّقُ أن بينكُم مَنْ يحزنُ لموتِ قيصَر، فأنتُم رُومانيُّونَ، والرومانيُّ لا يحبُّ أن يعيشَ ذليلًا.

مَنْ مِنكُم يكرهُ أن يكونَ رُومانيًا؟ مَن منكُم يكرهُ أن يكونَ حُرًّا؟ مَنْ منكُم يحتقرُ نفسَه؟ مَنْ منكُم يَزدري (١) مصلحَةَ وطنِهِ؟ إن كانَ بينكُم واحِدٌ مِن هؤلاءِ فَلْيَتَكَلَّم؛ لأَنَّه هُو الذي يَحقُّ لهُ أن يَثأرَ لنفسِهِ مِني؛ لأني لم أُسِيءْ إلى أحدٍ سِواه.

(١) يزدري: يحتقر.

obeikandi.com

الشعب: لا، لا، ليسَ فينا واحدٌ مِن هؤلاءْ.

بروتس: إذن أنا لم أُسِئ إلى أحدٍ منكُم.

وهنا دَخَلَ أنطونيوس صديقُ قيصرَ ورأسُ الناقمينَ على قَتَلتِهِ والطالبينَ بثأرهِ هو وآخرونَ يحمِلونَ على أيديهم جُثَّةَ قيصرَ؛ لتأبينِه[1] في هذا المجمعِ الحاشِدِ. فاستأنَفَ بروتُس الكلامَ وقال:

ها هي جثةُ قيصرَ، وها هُو صديقُه أنطونيوس جاءَ ليُؤَبِّنَهُ فاستَمعوا له واعْلَموا أن قيصرَ المذنبَ غيرُ قيصرَ الماجِدِ[2]. وقَد سمعتُم ما قيلَ عن الأوّلِ فاسمَعُوا ما يُقال عن الثاني، واسمَحُوا لي أن أقولَ كلمةً أختَتِمُ بها خطابي.

أيها الرومانيون، إن الخنجرَ الذي ذبحتُ به قيصرَ في سَبيل روما لا يزالُ باقيًا عِندي لذَبْحِ بروتسَ في سَبيلِ قيصَر إذا أرادَتْ روما ذلكَ.

• تأثير الخطبة

الشعب: لَيحْيَ بروتس.

أحدُ الناس: أنا أقترحُ أن نحمِلَه على الأكفِّ إلى مَنزِله.

آخر: انصُبُوا له تمثالًا.

آخر: امنحُوه عرشَ قيصرَ.

آخر: إنه أفضلُ مِن قيصرَ.

آخر: إن قيصرَ كان ظالمًا.

آخر: إنه كانَ الظلمَ بعينِه.

آخر: لتهنأْ روما بالخلاصِ منه.

آخر: ألا نسمَعُ تأبينَ أنطونيوس؟

آخر: نعم، نسمعُه؛ لأن بروتس أمرَ بذلك.

وهنا نزلَ بروتس والقلوبَ طائرةٌ حولَه، والعيونُ حائمةٌ عليه. ثم وَقَفَ على أثره أنطونيوس فرَمَقَهُ الشعبُ بين الغَضَبِ والحِقدِ. ولَولا إشارةٌ من بروتس ما استَطاع أن يثبتَ في موقِفِه لحظةً واحدةً، أخَذَ يتلو كلمةَ التأبينِ المشهورةِ التي هي آيةُ الآياتِ في اللغةِ الإنكليزية فصاحةً وبيَانًا.

(١) لتأبينه: لرثائه والبكاء عليه.

(٢) الماجد: الحائز على المجد.

• القصيدة

أنطونيوس: أيها الرومانيون...

أحد الناس: اسمعُوا ما يقولُ أنطونيوس.

آخر: لا... لا نسمَعُه.

أنطونيوس: اسمعُوني إكرامًا لبروتس.

أحد الناس: ماذا يقولُ هذا الرجلُ عَن بروتس؟

آخر: لا يقولُ شيئًا.

آخر: إذن نسمَعُه.

أنطونيوس: أيها الأصدقاء، إنني ما جئتُ هنا الساعةَ؛ لأرثيَ قيصرَ بل لأدفِنَ جثَّتَه.

أيها القوم، ما مِن أحدٍ من الناس إلا ولَه في حياتِه أعمالٌ حَسَنَةٌ وأُخرى سيِّئَةٌ.

أما حسناتُه فتموتُ بموتِه، وأما سيئاته فتبَقَى مِن بعدِهِ إلى يومَ يُبعَثُونَ. كذلك كان قيصرُ في حياتِه ومماتِه. وكذلك كانت سيِّئاتُه.

أيها القوم، ما كنتُ لأستطيعَ أن أقفَ مَوقفي هذا بينَكُم ولا أن أقولَ كلمةً مما أريدُ أن أقولَ لولا أن بروتسَ قاتلَ قيصرَ أمَرَني بالوقوفِ وأمَرَني بالكلام، وها أنتُم أولاءِ تَرَوْنَ أنني قَد أطعتُه، وأذعَنْتُ له؛ لأنه رَجُلٌ شريف.

أيها القوم، يقولُ الشريفُ بروتس إن قيصرَ كان رجُلًا طمَّاعًا، وأنا لا أستطيعُ أن أُخالِفَهُ فيما يقولُ؛ لأنه رجُلٌ صادِقٌ لا يكذِبُ.

أنا لا أستطيعُ أن أقولَ إن قيصرَ كان رجُلًا قانِعًا مُعتَدِلًا؛ لأنَّ الشريفَ بروتسَ يقولُ غيرَ هذا.

كلُّ ما أستطيعُ أن أقولَهُ إن الفدية[1] التي افتدَى بها أعداؤنا أسراهم الذين جاء بهم إلى رُوما قَد مَلأَتِ الخزنَةَ العامَّةَ حتى فاضَتْ بها.

كلُّ ما أستطيعُ أن أقولَهُ إني رأيتُ قيصرَ بعَيْنَيَّ يبكي لبكاءِ الفقراءِ ويحزَنُ لحُزنهم، ويبيتُ الليالي ذواتِ العَدَدِ ساهرًا لا يغمضُ له جَفْنٌ حَدْبًا[2] بهم، وعَطْفًا عليهم.

---

(١) الفدية: ما يُدفع لقاء تحرير الأسير.

(٢) حدبًا: عطفًا ورفقًا.

كلُّ ما أستطيع أن أقولَه إني عرضتُ بنفسِي تاجَ المُلْكِ على قيصَر في «لوبر كال» عدَّةَ مراتٍ فأباهُ(١) زُهدًا فيه، وتَعَفُّفًا عَنه.

كنتُ أستطيع أن أقول إن الطمَعَ لا يسكُن قَلبًا مثلَ هذا القلب ولا يخالطُ فؤادًا مثل هَذا الفؤادِ، لَولا أنَّ بروتَس يقولُ إن قيصرَ رجُلٌ طَمَّاعٌ وأنا لا أستطيعُ مخالَفتَه؛ لأنه رجُلٌ شَريفٌ.

أيها الرومانيون، إنكُم أحبَبْتُم قيصرَ قبلَ اليوم حُبًّا جَمًّا، فما الذي يمنعُكُم اليومَ مِنَ البكاءِ عليه.

إن لم تَبكُوهُ لِصفاتِهِ الكريمةِ، فَابْكُوه؛ لأنكُم كنتُ تُحبُّونَه، ابْكُوهُ؛ لأنه كانَ بالأمس ينطقُ بالكلمةِ فتَدوي في صُدور العظماءِ دَوِيَّ الرعدِ في آفاق السماءِ، فأصبَحَ اليومَ مطَّرحًا مَهينًا في ظِلِّ هذا الحائطِ، ولا يجدُ بينَ الناس مَن يأبَهُ لَهُ، ولا مَنْ يَعطفُ عليه.

أَيُّها العقلُ الإنساني، كيفَ حالَت حالُك، وتغيَّرت آيتُكَ(٢)؟ وكيفَ انتقْلتَ مِنَ الصدور الإنسيَّةِ، إلى الصُّدور الوحشيَّة؟ وكيفَ ضَلَلْتَ سبيلَكَ، وعَمِيتْ عليكَ مذاهبُكَ، فَحَسِبْتَ الخيرَ شَرًّا، والشرَّ خَيرًا واختَلَطَ عليكَ الأمرُ، فلم تَستطعْ أن تميِّزَ بينَ الحسناتِ والسِّيئاتِ والمكارمِ والجرائم.

أَيُّها الرومانيون، عَفوًا إن هَذَيْتُ(٣) بينَكُم، أو أسأتُ إليكُم، واعْلَمُوا أنَّ الحزنَ قَد قَسَمَ فُؤادي قسمَيْن: قِسم عَلى هذا المنبر، وقسم في ذلك النعشِ.

أَيُّها الأصدقاءُ، إن بينَ جَنبيَّ قَلبًا يخفقُ بحبِّكُم، والعطفِ عليكُم، والرأفَةِ بكُم، ولولا مخافَةُ أن تنفجر صُدورُكم حُزنًا وجَزَعًا لقلتُ لكم: إن قيصر قُتِلَ مَظلُومًا.

إنني أعتقدُ أنَّ بروتسَ ورفَاقَهُ قومٌ شُرَفَاءُ عُظمَاءٌ، لذلكَ أُحِبُّ أن أُسِيءَ إلى نفسِي وإلى قيصرَ وإليكُم قبل أن أقولَ إنهم أخطأوا في قَتْل قيصرَ. وهنا صمتَ أنطونيوس وأرسَلَ من جفنَيْهِ بِضْعَ قطراتٍ مِنَ الدموعِ.

• الانقلاب:

أحد الناس «يقول لصاحبه»: يلوحُ لي أن فيما يقولُ الرجُلُ شيئًا معقولًا.

آخر: إنك إن أمعنت النظرَ وجدتَ أن قيصرَ قُد أُسيء إليه.

(١) أباه: رفضه. (٢) آيتك: علامتك.

(٣) هذيت: تكلمت كلامًا غير واضح.

آخر: لقد أثَّرَ في نفسي زُهدَهُ في تاجِ المُلْك.

آخر: لقد أحزَنَني عَليه أنه كان يَبكي رحمةً بالفُقراء.

آخر: إن الذي يَرثي لبؤس البؤساءِ لا يكونُ طمَّاعًا ولا ظالمًا.

آخر: إذًا فسيكونُ لمقتَلِ قيصرَ شأنٌ غيرُ الشأنِ الأول.

آخر: لابدَّ مِن عقابِ القاتل.

آخر «يقول لجليسه»: انظُرْ إلى أنطونيوس فهو يَبكي وينتَحِب.

آخر: ليسَ في رومةَ رجلٌ أشرَفُ مِن أنطونيوس.

أنطونيوس: أتأذنونَ لي أن أفارقَ مَوقفي هذا لحظةً؛ لأقِفَ قليلًا بجانِبِ جثَّةِ القتيل؟

الشعب: نعم... نعم.

فنزل أنطونيوس ومشَى حتَّى وَصَلَ إلى جثَّةِ قيصر، وهو لا يزالُ في ملابِسه التي قُتِل فيها، ولا تزالُ طعناتُ الخناجرِ ظاهِرَةً في قبائِه ثم قال:

أنطونيوس: مَنْ كان يملكُ منكُم دُموعًا فَلْيُعِدَّها لهذا الموقِفِ العظيم، فإنه موقفٌ يحتاجُ إلى كلِّ ما في عُيونِكُم مِن دُمُوع.

إنكم تعرفونَ جَميعًا هذا القباءَ[1]، ولكنَّكم لا تعرفونَ مِن تاريخه شيئًا. أنا أعلَمُ أن قيصرَ لبسَهُ أوَّلَ ما لبسَهُ في مساءِ اليوم الذي انتصَرَ فيه على «الدقي» ذلكَ الانتصارَ العظيمَ الذي نالتَ به رُوما فَخْرَ الأبدِ.

ثم وضع يده على أحد الثقوب التي في القباء وقال: في هذا القباءِ الشريفِ مُزِّقَتْ جُثَّةُ هذا الفاتحِ العظيم.

ومن هذا الثُّقب مرَّ خنجرُ بروتس إلى صَدرَ قيصرَ. ومِن هذا الثقب أطلَّ دَمُ قيصرَ؛ ليرَى بعينِه وَجْهَ الضارب، وأحسَبُ أنَّ جميعَ أفرادِ النوعِ الإنساني قد مَرُّوا بخاطِرِ قيصرَ واحِدًا واحِدًا قبلَ أن يَمُرَّ بخاطِرِه صديقُه: «بروتس».

عَرَفَ قيصرُ أن قاتلَه هو صديقُه، وصنيعَةُ إحسانه، فَفتَرَتْ همَّتُه، وعَجزَ عَن المقاوَمَةِ؛ لأنَّ الطعنَةَ التي أصابَتْهُ في جِسمه، لم تكُن بأَقَلَّ مِنَ الطعنةِ التي أصابَتْهُ في

(١) القباء: ثوب يلبس فوق الثياب.

قَلبه، ولم يكُن منظرُ المُدى[1] والخناجر، أبشَعَ في نظره مِن منظَر الخيانَةِ والغَدْر، هنالِكَ عَجزَ قيصرُ عَن أن يقولَ شيئًا غيرَ الكلمةِ التي وَدَّعَ بها قاتِلَهُ الوَدَاعَ الأخيرَ: «وأنت أيضًا يا بروتس؟».

وهنالكَ تحتَ تمثالِ «بومباي» وُجِدَ قيصرُ قتيلًا وقَد لُفَّ وَجهه بقبائِهِ حتَّى لا تتألَّمَ نفسُه مرَّة ثانيةً بمنظَرِ كُفرِ النعمةِ ونُكرانِ الجميل.

ها أنتم تبكُون على قَيصر، فشُكرًا لكُم على هذه الدموعِ الكَريمةِ التي طهَّرتُم ما لَوَّثَتْ به يد الظلم تُربَةَ هذهِ الأرضِ منَ الدِّماءِ.

إنكُم تبكُونَ لَمنظر قباءِ قيصرَ المُمَزّقِ، فكيفَ بكُم لَو شاهدتُم ما تمزَّقَ مِن جُثَّتِهِ؟

ثم دنا وكشَفَ القباءَ عَن جسمه، وقال:

إن في كلِّ جُرح مِن هذه الجروح لِسانًا يشكُو إليكُم، فاستَمِعُوا له فهوَ أنطَقُ مِن لسانِ الرِّثَاءِ.

أحد الناس: يا لَهُ مِن مَنظرٍ فَظيع!

آخر: وارحْمَتَاهُ لقَيصرَ!

آخر: إنَّ يومًا يقتل فيه قيصرُ لَيَوْمٌ شَرُّهُ مُستَطيرٌ!

آخر: يا للدَّنَاءَةِ والسَّفالَةِ!

آخر: يا لَلْغَدْرِ والخِيانَةِ!

آخر: الانتِقام... الانتِقام.

الشعب «وهو يضجُّ ضَجيجًا عظيمًا»: حَرِّقُوا القَتَلَة، مَزِّقُوهم، لا تُبقوا على أحدٍ منهُم.

أنطونيوس: مَهلًا. مَهلًا أنا لا أُريدُ أن أُشعِلَ بينكُم فِتنَةً عمياءَ ولا أُريدُ أن تُطالبوا القَتَلَةَ بالدِّماءِ التي أراقُوها، فإنني لا أزالُ أعتقدُ أنهم قومٌ شُرَفَاءُ وربَّما كانوا يَعرفُون أسبابًا لقَتلِهِ لا نَعرفُها، وإنما أريدُ أن أقولَ لكُم: إن قيصرَ كانَ يحبُّكُم حُبًّا جَمًّا فهو يَستحقُّ رثَاءَكم لهُ وبُكاءَكُم عليه.

لَولا أني أُؤثِرُ البَقَاءَ عليكُم، ولولا أني أُحبُّ تخفيفَ ما أَلَمَّ بقلوبِكُم من الحزنِ

(١) المدي: جمع مدية وهي شفرة كبيرة يذبح بها.

على فقيدِكُم، لَتَلَوْتُ عليكُم وَصيَّتَهُ، لِتَعْلَموا أنَّ الرجُلَ كانَ يحبّكُم وأنه ما كانَ خليقًا أن يُقتَلَ بينكُم، وفيكُم عَينٌ تطرفُ وعِرقٌ ينبضُ.

الشعب: اقرأ الوصيَّة.

أنطونيوس: إني أخافُ على صُدوركم أن تنشَقَّ حُزنًا عَلى القتيل الشهيدِ.

الشعب: نريدُ سَماعَ الوصيَّة.

أنطونيوس: إنه يُعطي كلَّ فَرْدٍ مِن أفرادِ الشعب الرومانيِّ خَمسةً وسبعينَ فَرَنكًا، ويُوصِي بجميعِ غاباتِهِ ومُتَنَزَهاتِهِ للأُمَّةِ.

أحد الناس: يا لَهُ مِن رجُلٍ كريم!

آخر: يا لَهُ مِن رجُلٍ شريف!

آخر: وَيْلٌ للقَتَلةِ!

آخر: الثورة.. الثورة.

آخر: سنُحرِقَ منزلَ بروتسَ.

ثم خرج الشعبُ يتدفقُ في شوارع روما تدفُّقَ الأمواج الثائرَةِ في القامُوسِ المحيط.

أنطونيوس «في موقفه وحده»: أيَّتها الفتنةُ العمياءُ قَد أيقَظْتُكِ من مَرقدِكِ فارفَعي رأسَك وامْضِي في سَبيلِكِ، واشتَعلي حتَّى يُحرِقَ لسانُكَ أديمَ السماء وَوَجْهَ الغبراء.

وهكذا استطاعَ أنطونيوس في موقِفٍ واحِدٍ أن يستعبدَ الشعبَ الرومانيَّ لنفسِه قبلَ أن يَفيقَ من استعبادِ قيصرَ لهُ. وكذلك الأممُ الضعيفةُ الجاهلةُ لا مَفرَّ لها مِن إحدى العبوديتين: إما العبوديةُ لحَمَلَةِ التيجان، أو لحَمَلةِ البيان.

الكبرياء

حضرة السيد الفاضل

لي في البلدةِ التي أسكنُها كرامةُ الحاكِ لأني أشغُلُ وظيفةً عاليةً فيها، وقد بَدَا لي أنْ أختَلِفَ إلى المسجدِ لصَلاةِ الجُمُعَةِ، فاختَلَفْتُ حتَّى فاجأني يَومًا منَ الأيامِ لمن يكُن في الحسبانِ.

حَدَثَ أن صُعلوكًا يعرفُني، ويعرفُ مَقامي، تمادَى في وَقَاحَتِهِ وسُوءِ أدبه، حتَّى وَقَفَ بجانبي في الصلاةِ، فاشمأزَّت نفسِي مِن هذا الأمر اشمِئزازًا عَظيمًا، وحاوَلْت أن أحتَمِلَهُ فلم أستَطِعْ، فخِفْتُ إن أنا طردتُه أن يؤاخِذَني الناسُ به. فهَلْ تعرفُ مُسَوِّغًا شَرعِيًّا يفرِّقُ بينَ درجاتِ الناسِ في مواقِفِ الصَّلواتِ؟

«سائل»

يا مولانا الحاكم...

رُحماكَ بهذا الصُّعلوكِ[1] المسكينِ الواقِفِ بجانِبَكَ، لا تَضِنَّ عليهِ بمِزْقَةٍ[2] من ظِلِّكَ الظليل أن تمتَدَّ إليه فتَقِيَهُ أشعَّةَ التَّصَعْلُكِ الحارَّةَ التي يَتَلَظَّى[3] فيها، ولاَ تَحرمْهُ نفحَةً مِن نفحاتِكَ العَطِرَةِ التي تَهُبُّ مِن بينِ أردانِكَ[4] عَلَّهُ يجدُ فيها روحَ الحياةِ، ويتنسَّمُ منها نسيمَ السعَادةِ والهناءَةِ، فيهدأَ ساعةً منَ الزمانِ عن الشعورِ بمصائبِهِ ورَزاياهُ، وأحسِنْ كما أحسَنَ اللهُ إليكَ، إن الله يحبُّ المحسنين.

لِيُفرِخْ[5] رَوْعُكَ وَلْيثلجْ صدرُك، واعْلَمْ أنَّ هذا المسكينَ الواقِفَ بجانبكَ لا يستطيعُ مَهما نالَ منهُ العَدَمُ، وبرَّحَ به الشقاءُ، أن يَقْتَطِعَ قطعةً مِن سعادَتِك أو يَفْتَلِذَ[6] فلذَةً مِن شَرَفِكَ، فتَرفُكَ كالمصباح تستمدُّ منه المصابيحُ، ونورُه نورُه، وبَهاؤُهُ بَهاؤُهُ.

لا تَظلِم الرجُلَ ولا تَقُلْ إنه وَقِحُ الوَجْهِ، أو سَيِّءُ الأدب. فإني بما أعلمُ مِن أخلاقِ

---

(١) الصعلوك: الفقير البائس.
(٢) المذقة: القطعة الصغيرة من الشيء.
(٣) يتلظى فيها: يتحمل حرها.
(٤) أردانك أطراف ثوبك.
(٥) ليفرخ: ليهدأ.
(٦) يفتلذ: يقتطع.

obeikandl.com

هؤلاءِ البائسينَ وطِباعِهم وآمالِهم التي تعتلجُ بها صُدورُهُم وتهتفُ بها أحلامهم- أعتقدُ أنه ما وَقَفَ بجانبِكَ إلا طَمَعًا في دَورَةِ الفَلَكِ التي عَلَتْ بكَ، وأنزلَتْكَ منازلَ العُظَماء، أن تدورَ به كذلك فتنزلَ بهِ منزلَتَكَ، وتعلُو به إلى مَقَامِكَ، فاغفِرْ له جَهْلَهُ وقُصورَهُ، فمثلُكَ مَنْ يَقيلُ[1] العثرةَ ويَسترُ الزلَّةَ.

إنك تريدُ مِني أن أَلتَمِسَ لكَ من أبوابِ الشريعةِ الإسلامية بَابًا يُسَوِّغُ[2] لكَ طَرْدَ هذا الصُّعلوكِ المجترئ عليكَ مِن مَوقِفِهِ الذي اختارَهُ لنفسِهِ بجانبِكَ فاسمَعْ ما أُلقي عَليك. إن الذي وقفتَ بينَ يَدَيْهِ في مَصلاكَ أعظَمُ شَأنًا وأجَلُّ خَطرًا، من أن يَحفِلَ[3] بثوبِكَ اللامعِ، وجبينِكَ الساطعِ، وردائِكَ المُطرَّزِ، وقَميصِكَ المُحَبَّرِ[4]، وأن يعرفَ لكَ مِنَ الفَضلِ والشرَفِ أكثرَ ممَا تعرفُ لصاحِبِكَ. فما كانَ له أن يأمُرَكَ بالتقَدُّمِ عليهِ في موقِفِ الصلاةِ، ولا أن يأمُرَهُ أن يقفَ منكَ موقِفَ العَبْدِ مِنَ السيِّدِ، والمحكُومِ مِنَ الحاكِمِ. إن للجُمْعَةِ والجماعَةِ فَضائِلَ كثيرةً، وحِكَمًا جَمَّةً، أرادَها الشارعُ منهما. وإنَّكَ لَن تجدَ بين هذهِ الحِكَمِ، وتلكَ الفضائِلِ، حِكمَةً أغْلَى، ولا فضيلةً أنفَسَ مِن خُلُقِ التواضُعِ الذي يشعُرُ به العظيمُ عندَما يَرَى أنه قد وَقَفَ مِنَ الفقيرِ في ذلكَ الموقِفِ المقدَّسِ مَوقفَ الأخِ من أخيهِ والكُفءِ من كَفيئِه.

إن كنتَ تريدُ، يا مولانا الحاكِم، مِن اختِلافِكَ إلى المسجدِ ألا تترُكَ للفقيرِ موقِفًا مِنَ المواقِفِ يملِكُ فيه الخيارَ لنفسِه، حتى مَوقِفَه بينَ يدَيْ ربِّه، فخيرٌ لكَ أن تستَصْحِبَ معَكَ عندَ ذَهابِكَ شُرْطَتَكَ وأعوانَكَ؛ لتأمُرَهُم فيه بما يُرضيكَ مِن طَرْدِهِ وإقصائِهِ والتنكيلِ به جَزاءً عَلى وَقَاحَتِهِ وسُوءِ أدَبِه. فإن تَمَّ لكَ مِن ذلكَ ما أردتَ، فَاحْذَرْ أن تَنطِقَ بعدَ ذلكَ بكلمةِ العبوديَّةِ، بعدَما نَطَقْتَ بكلمةِ الألوهِيَّةِ، حتَّى لا تجمَعَ على نفسِك بينَ رذيْلَتي الظُّلمِ والرِّيَاءِ.

فإن كنتَ تريدُ الصلاةَ للصَّلاةِ فَاعْلَمْ أنَّ اللهَ لا يَقبلُها منكَ ولا يُجزلُ لكَ ثوابَها، حتَّى تقفَ بينَ يدَيْه موقِفَ مَنْ خالَطَتِ الخشيةُ قلبَه، ومَلَكَتْ عليهِ السكينةُ سَمْعَهُ وبَصَرَهُ، فلم يَعُدْ يُبصرُ شَيئًا مما حَوْلَه، ولا يعلمُ أواقِفٌ هوَ في صُفوفِ المُلوكِ، أو في زُمرَةِ[5] الصَّعاليكِ؟

---

(١) يقيل العثرة: يمنعها.
(٢) يسوغ: يبرر.
(٣) يحفل: يهتم.
(٤) المحبر: المخطط.
(٥) زمرة: جماعة.

أيُّها العظماء...

ليسَت العظمةُ التي تَعرفونَها لأنفُسِكُم إلا مِنحَةً منَ الفقراءِ إليكُم. فلَولا تواضُعُهم بينَ أيديكُم ما عَلَوْتُم، ولَولا تصاغُرُهُم في حَضرَتِكم ما استَكْبَرْتُم. فلا تجزُوهُم بالإحسانِ سُوءًا، ولا تجعَلُوا الكُفرَ مكانَ الشُّكرِ، تَستَدفِعُوا النِّقَمَ، وتَستديموا النِّعَمَ.

أيُّها العظماء...

ما هذهِ القصورُ التي تَسكُنونها، ولا هذه الدورُ التي تَغمرونَها، وهذهِ الأرديَةُ التي تَجُرُّونَ أذيالَها، إلا ألوانٌ وأصباغٌ لا علاقَةَ بينَها وبينَ حَقائقِ نُفُوسِكم، ولا صِلَةَ لها بجواهِرِ أفئدتِكُم وقُلوبكُم. وما هو إلا أن تطلعَ عليها شمسُ الحقيقةِ حتى تذهبَ بها ذَهابًا بألوانِ السَّحاب وأصباغِ الثياب، فإذا أنتم عُراةٌ مُجَرَّدُونَ، لا تَشفَعُ لكُم إلا فضَائِلُكُم، ولا تَنفَعُكُم إلا مواهِبُكم ومَزاياكُم.

أيُّها العظماء...

لا عُذْرَ لكُم في الكبرياءِ في جَميع حالاتِكُم وشُئونِكُم، فإن كنتُم من أرباب الفضائِل فَحَرِيٌّ بالفاضِل أن لا يُنَمِّوَ وَجْهَ فضيلَتِه بِرَذِلَةِ الكبرياء، أولا، فما تحمِلُ الأرضُ على ظَهرها أسمَجَ وَجْهًا، ولا أصلَبَ خَدًّا من جَهَلَةِ المتكبّرينَ. فانظُروا أينَ تنزِلونَ، وفي أيِّ مقامٍ تُقيمون؟

الانتحار

قرأتُ في بعض الصُّحُفِ أن رجُلًا من تُجّار المسلمينَ انتَحر لا لِضيقِ يَدٍ، أو شِدَّةِ مَرَضٍ، أو بؤس حالٍ، بَلْ لأنه حَزِنَ على وفاةِ صديق له فَقَتَلَ نفسَه.

إن الرجُلَ المؤمنَ يعتقدُ ولا شَكَّ بسُوءِ عاقِبَةِ المُنْتَحِر، فكيفَ هانَ عليه وَهو في آخر يومٍ من أيام حَياتِهِ، أن يَضمَّ إلى خِسارةِ دُنياهُ، خِسارةَ آخِرَتِهِ، وهي العزاءُ الباقي لهُ عَن كلِّ ما لا قاهُ في حَياتِهِ من شَقَاءٍ وعَناء[1]؟!

إن الانتحارَ نزعَةٌ فاسِدَةٌ وعادَةٌ مُستَهْجَنَةٌ، رَمَتنا بِها المَدنيَّةُ فيما رَمَتْنا به مِن مفاسِدِها وآفاتِها[2]. ولقد كُنَّا نعجبُ قبلَ اليوم مِن تهالُكِ الشرقيِّينَ عَلى حُبِّ تقليدِ الغربيِّينَ حتى فيما يُؤذيهم في شَرَفِهم وكَرَامَتِهم.. وكُنا إذا أَرَدْنا المبالَغَةَ في تَمثيل هذا التهالُكِ، قُلنا: يوشِكُ أن يقتلَ الشرقيُّ نفسَه إذا عَلِمَ أَنَّ تلكَ عادَةٌ مِنَ العاداتِ الغربيَّةِ، فقد صارَ قريبًا ما كان بَعيدًا، وأصبَحَ مألوفًا ما كُنَّا نَعُدُّهُ فرضًا مِنَ الفروض.

الانتحارُ مُنتهى ما تَصِلُ إليه النفسُ مِنَ الجُبنِ والخَوَرِ[3]، وما يَصلُ إليه العقلُ مِنَ الاضطرابِ والخَبَلِ[4]. وأحسبُ أن الإنسانَ لا يُقدِمُ على الانتحارِ، وفي رأسِه ذَرَّةٌ مِنَ العقلِ والشُّعور. حبُّ النفسِ غريزةٌ رَكَّبها الله تعالى في نفسِ الإنسانِ؛ لتكونَ ينبوعَ حياتِهِ وعِمَادَ وُجُودِهِ، والمنتحرُ يُبغِضُ نفسَه أشدَّ ممَّا يُبغِضُ العَدُوُّ عَدُوَّهُ. فهو شاذٌّ في طَبيعتِه، غريبٌ في خُلُقِهِ، مُعانِدٌ لإرادةِ الله تعالى في بَقَاءِ الكونِ وعُمرانِهِ. ومَنْ كان هذا شأنَه كانَ بلا قلبٍ ولا عَقل.

لا عُذْرَ للمنتحر في انتحاره مَهما امتَلأ قلبُه بالهَمِّ ونفسُه بالأَسَى، ومهما أَلَمَّتْ به كوارثُ الدهر، وأزَمَتْ به أزمات العَيْش، فإن ما قَدِمَ عَليه أَشَدُّ مما فَرَّ مِنه، وما خَسِرَهُ أضعافُ ما كسبَه. ولو كانَ ذا عقل لَعَلِمَ أن سكراتِ الموتِ تجمَعُ في لحظةٍ جَميعَ ما تَفَرَّقَ مِن آلام الحياةِ وشَدائِدِها في الأعوام الطِّوالِ، وأنَّ قضاءَ ساعةٍ واحِدةٍ فيما أَعَدَّ

(١) عناء: تعب.
(٢) أمراضها.
(٣) الخور: الضعف.
(٤) الخبل: فساد العقل.

الله لقاتِلِ نفسِهِ مِنَ العذاب الأليم أشدُّ مِن جَميع ما يشكُو مِنه، وما يكابِدُهُ مِن مصائِبِ حياتِهِ وأرزائِها لَو يُعَمَّرُ ألفَ سَنةٍ.

ما أكثرَ همومَ الدُّنيا، وما أطوَلَ أحزانَها! لا يفيقُ المرءُ فيها مِن همٍّ إلا إلى هَمٍّ، ولا يرتاحُ من فاجعَةٍ إلا إلى مثلها. ولا يزالُ بَنوها يترجَّحونَ فيها ما بينَ صِحَّةٍ ومَرَضٍ، وفَقَرٍ وغِنًى، وعِزٍّ وذُلٍّ، وسَعادَةٍ وشقاءٍ، فإذا صَحَّ لكلِّ مَهموم أن يمقتَ حياتَه، ولكلِّ مَحزون أن يقتُلَ نفسَه، خَلَتِ الدُّنيا مِن أهلِها، واستَحال المقامُ فيها، بلِ استحالَ الوُفُودُ إليها، وتبدَّلَت سُنَّةُ الله في خَلْقِهِ، ولن تَجدَ لِسُنَّةِ الله تَبديلًا.

ما سُمِّي القاتلُ مُجرمًا إلا؛ لأنه قاسِي القلب مُتَحَجِّرُ الفؤادِ، وأقسَى منه قاتِلُ نفسِهِ؛ لأنه ليسَ بينَه وبينَها منَ الضَّغِينَةِ والمَوْجدَةِ ما بَيْنَ القاتِلِ والمقتولِ، فهو أكبرُ المجرمينَ، وأقسَى القاتلين.

يخدَعِ المنتحرُ نفسَه إن ظنَّ أنَّه مُقتَنعٌ بفَضل المَوتِ عَلى الحياةِ، وأنَّه إنما يَفعَلُ فِعلتَهُ عَن رَويَّةٍ وبَصيرَةٍ، فإنه لا يكادُ يَضَعُ قَدَمَهُ في المأزَقِ الأوَّلِ مِن مآزِقِ الموتِ حتَّى يثوبَ[1] إلى رُشدِهِ وهُداهُ ويُحاولَ التَّخلُّصَ ممَّا وَقَعَ فيه لَو وَجَدَ إلى ذلكَ سَبيلًا.

إن ألقَى نفسَه في الماءِ تَخبَّطَ وبَسَطَ يَدَه إلى مَنْ يرجُو الخلاصَ عَلى يَدِهِ وَوَدَّ لَو يَفْتدي نفسَه بكلِّ ما تَملكُ يمينُهُ، وإن حَبَسَ نفسَه في غُرفَتِهِ ليموتَ مُختنقًا بالغَاز وَدَّ لَوْ سَقَطَ عَليه سَقْفُ الغُرفَةِ ليستنشقَ نَسمَةً مِن نسماتِ الهواءِ ولَو عاشَ بعدَ ذلكَ كسيرَ اليَدِ والرِّجْلِ فاسِدَ السَّمْعِ والبَصَرِ.

إن فكرةَ الانتحارَ نَزْغَةٌ[2] مِن نَزَغاتِ الشيطانِ، وخَطْرَةٌ مِن خَطراتِ النفس الشرِّيرَةِ، فمَنْ حَدَّثَتْهُ نفسَه بقَتْلِ نفسِهِ فلْيَتَرَيَّثْ[3] ريثما يَتَبَيَّنُ كيفَ يكونُ صبرُه عَلى احتمالِ سَكراتِ الموتِ، وآلامِ النَّزْعِ، ومَاذَا يكُونُ حديثُ الناس عنهُ بعدَ مَوته، وهل يمكنُ أن يوجَدَ بينَهم عاذِرٌ له أو مُشفِقٌ عَليه أو مُقتَصِدٌ في النيل منهُ والسخريةِ بِهِ؟ وليعرضْ على مخيَّلَتِهِ قبلَ ذلكَ أشكالَ العذاب وأنواعَ العِقاب التي أعَدَّها الله في الدارِ الآخِرَةِ لأمثالِه. إني لا أظنُّه بعدَ ذلكَ فاعِلًا إلا إذا كانَ وَحْشًا في ثوب إنسانٍ، أو بطلًا من أبطال المارستان[4].

---

(١) يثوب: يعود. (٢) نزغة: وسوسة.

(٣) فليتريث: فليتمهل.

(٤) المارستان: اسم مستشفى الأمراض العقلية في الأزمان الماضية.

الحياة الشعرية

لولا الحياةُ الشعريةُ التي يَحياها الناسُ أحيانًا لَسَمُجَ في نظرهم وَجْهُ الحياةِ الحِسيَّةِ ومَرَّ مَذاقُها[1] في أفواهِهِم، حتَّى ما يغتبطُ حَيٌّ بنعمَةِ العيش، ولا يكرهُ ميتٌ طَلَعةَ الموتِ.

لذلكَ تَرى كلَّ حيٍّ يهربُ مِنَ الحياةِ الحسيَّةِ جِدَّ الهَرَب، لاجئًا إلى الحياةِ الشِّعْرِيَّةِ مِن أيِّ بابٍ مِن أبوابها، لأنَّهُ يَرَى في هذهِ ما لا يَراهُ في تلكَ مما يُريحُ فؤادَهُ، ويُثلجُ صَدرَهُ، وينفي عَن نفسِهِ السآمَةَ والضَّجَرَ من صُنُوفِ المناظِرِ وأفانينِ المشاهِدِ، وغرائِبِ المُؤْتَلِفَاتِ، وعجائِبِ المُختَلِفاتِ.

لَولا حُبُّ الحياةِ الشعريَّةِ مَا وُجِدَ في الناسِ كثيرٌ مِن المولعينَ بتخديرِ أعصابهم كشاربي الخمرِ ومُدَخِّني الحشيشِ وآكلي الأفيون. وهي وإن كانَت في نظرهم حَياةَ سعادةٍ يَتَخَلَّلُها شقاءٌ، إلا أنها خَيْرٌ عِندَهم مِن حياةِ شَقاءٍ لا تَتَخَلَّلُها سعادةٌ. ولَولا حبُّ الحياةِ الشعريةِ ما وُجِدَ في الناسِ هذا الجَمُّ الغفيرُ مِنَ الشعراءِ المُتخيِّلينَ والعابِدينَ المُتَبتِّلينَ.

لا يجدُ السِّكِّيرُ لذَةَ العيشِ وهَنَاءَتَهُ إلا إذا أسلَمَ نفسَه إلى كأسِ الشرابِ فنَقَلَتْهُ مِن هذا العالَمِ البسيطِ المحدودِ إلى عالَمَ واسعِ النِّطاقِ، شاسع[2] الأطرافِ يَرَى فيه كلَّ ما تَشتَهي نفسُه أن تراهُ. فإن كان قبيحَ الوَجْهِ مُشَوَّهَ الخلقَةِ تخيَّلَ أنه شِرْكُ الأبصارِ، وفِتنَةُ النُّظَّارِ، وأنَّ القلوبَ مُحَلِّقَةٌ على جمالِه تحليقَ الأطيارِ علَى الأشجارِ. وإن كانَ فَقيرًا مُعدَمًا لا يَملِكُ فِلسًا واحِدًا تَوَهَّمَ أنَّه جالسٌ على عَرشِ المَلِكِ والصَّوْلجَانُ في يمينِه، والتاجُ فوق رأسِهِ واعتَقَدَ أنَّ عَبيدَ اللهَ تعالى جَميعًا عبيدُه، وجُنُودَ المَملَكَةِ بأسرهم جُنُودُه، حتَّى ذلكَ الجنديُّ الذي يسحبُهُ عَلى وَجهِهِ إلى غُرفَةِ السِّجنِ ليقضيَ فيها ليلَته. وجملةُ القولِ إن عينَه لا تَقعُ على ما يُحزنُهُ مِنَ المنظوراتِ، وإن أُذُنَه لا تسمَعُ ما يُنَفِّرُهُ مِنَ المسموعاتِ، حتَى ليَرَى الجمالَ الباهِرَ في وَجهِ العجوزِ الشمطاءِ، ويسمَعُ

(١) مرَّ مذاقها: أصبح مرًّا.

(٢) شاسع الأطراف: بعيدها.

في صوتِ الرعدِ القاصِفِ ألحانَ الغناء. ولا يشعرُ المتعبِّدُ بنعيم الحياةِ إلا إذا جنَّ الليلُ، وأوَى إلى مَعْبَدِهِ، وخَلا بنفسه، فتخيَّلَ أنَّ له أجنحةً مَن النور كأجنحَةِ الملائكَةِ يطيرُ بها في جوِّ السماءِ فيَرَي الجنَّةَ والنارَ، والعرشَ والكُرسيَّ، ويسمعُ صريرَ القلم في اللوحِ، ويقرأ في أُمِّ الكتابِ حديثَ ما كانَ وما يكُون.

ولا يستفيقُ الشاعر مِن هُمومُ الحياةِ وأكدارِها ومَصَائِبِها وأحزانها إلا إذا جَلَسَ إلى منضَدَتِهِ، وأمسَكَ بيرَاعِهِ، فطارَ بِهِ خيالُهُ بينَ الأزهارِ والأنوار، وتَنَقَّلَ به بينَ مسارحِ الأفلاكِ ومَسابحِ الأسماك، ووقَفَ تارَةً على الطُّلولِ الدوارِسِ، يبكي أهلَها النازحينَ وقُطَّانها المُفارقِينَ. وأُخرى على القبورِ الدوائِرِ، ينَدبُ جسومَها البالياتِ، وأعْظَمُها النَّخِرَاتِ.

ليسَ الأمل إلا بابًا مِن أبواب الحياةِ الشِّعريَّةِ، ولا يوجدُ بينَ قلوبِ البشرِ قلبٌ لا يَخفُقُ بالآمالِ العِظام والأماني الحسان؛ فالأملُ هوَ الحياةُ الشعريَّةُ العامَّةُ التي يَعيشُ في ظِلِّها الناسُ جَميعًا، أذكياءَ وأغبياءَ، فُهَمَاءَ وبُلَدَاءَ. والأمَلُ هوَ السَّدُّ المنيعُ الذي يقفُ في وَجهِ اليَأس، ويعترضُ سبيلَهُ أن يَتَسَرَّبَ إلى القلوب، ولَوَ تَسَرَّبَ إليها لَضَاقَتْ بالناسِ هَذِهِ الحياةُ وثَقُلَ عِبؤها على عواتِقِهم[1]، فطَلَبوا الخلاصَ مِنها ولو إلى الموتِ، طَلَبًا للتغييرِ والانتِقالِ، وشَغَفًا بالتحوُّلِ مِن حالٍ إلى حالٍ.

يقولونَ: أشقَى الناس في هذه الحياةِ العُقلاءُ، ويقولون: ما لَذَّةُ العيش إلا للمجانين!

أتَدري لماذا؟ لأن نصيبَ الأولينَ منَ الحياةِ الشعريَّةَ أضعفُ مِن نصيبِ الآخرينَ. وذلكَ أنَّ عَقْلَ العاقِلَ يَحُولُ بينَه وبينَ استمرار الطيرانِ في فضاءِ الخيالاتِ الذهنيَّةِ والمغالَطاتِ الشِّعريَّةِ، فلا يَرَى سِوى ما بينَ يَدَيْه مِنَ الحقائِقِ الملموسَةِ ولا يسمَحُ له علِمُهُ بأحوالِ الدُّنيا وشُئونها، ومعرفَتُه أنَّ المصائِبَ والآلامَ مِن لوازِمها التي لا تُفارقُها، يُؤمنُ مِنها في طَبيعَتِها مِن دوام السُّرور واستمرار الهناءَة، فلا يطلبُ سَعَةَ العيش مِن وراءِ الأمَلِ كبقيَّةِ المؤمِّلينَ، ولا يَتَلَذَّذُ بتصديقِ ما لا يكونُ تَلَذُّذَ المجانين.

والحقَّ أقولُ، لَولا الحياةُ الشعريَّةُ التي أَحياهَا أحيانًا في هَذِهِ الكلماتِ التي أكتُبُها، لأحبَبْتُ، زاهدًا في هذهِ الحياةِ الحسيَّةِ، أن تطلعَ الشمسُ من مَغربها إيذَانًا بانقِضَاءِ العالَم وفَنائِهِ، ولتمَنَّيْتُ حُبًّا في الانتِقالِ من حالٍ إلى حالٍ أن أنتقلَ ولوَ إلى رحَمةِ الله.

---

(١) عواتقهم: أكتافهم.

رباعيات الخيام

وقفتُ برباعياتِ عُمر الخيَّام يومًا منَ الأيَّام كما يقفُ مُسافرٌ ضَلَّ بهِ سبيلُهُ في فَلَواتِ الأرض ومَجاهِلِها بوادٍ مُعشِب أريض في وَسَطِ فَلاةٍ جرداءَ عندَ مُنقَطع العُمرانِ، فما خطوتُ فيه بعضَ خطواتٍ حتَّى رأيتُ ما شَاءَ الله أن أرَى مِن أنوار بيضاءَ، وَوُرُودٍ حَمراءَ، وألوانٍ منَ النباتِ، مُشتَبهاتٍ وغير مشتبهاتٍ، وغُدرانٍ مُطَّرِدَةٍ متسلسلةٍ تنبسطُ في تلكَ الديباجَةِ الخضراءِ تَبَسُّطَ النجوم البيضاءِ في الدِّيباجَةِ الزرقاءِ، وأسراب منَ الحمائمِ والعصَافير والبلابل والشَّحارير، تتطايَرُ مِن فَرْعٍ إلى فَرْعٍ، وتنتقل من غُصن إلى غُصن، وتجتمعُ لتفترق، وتفترقُ لتجتمعَ، وتتقاتَلُ مَرَّةً، وتتلاءَمُ أُخرى، وتصعَدُ حتَّى تلامِسَ بأجنحَتِها جِلْدَةَ السماءِ، ثم تهبطُ حتَّى تُصافحَ صَفحَةَ الماءِ، ولا تزالُ تُغرِّدُ في صُعُودها وهُبُوطِها تَغريدًا مختلفَ النغماتِ، مُتنوِّعَ النبراتِ، فيتألَّفُ من ذلكَ الاختلافِ والتنوُّعِ نَغَمٌ لذيذٌ لا أعرفُ لهُ شَبيهًا إلا تلكَ الصورَةَ الخياليَّةَ التي أتخيَّلُها في نَغَمِ الحُورِ الحِسانِ، في فَراديسِ الجِنان.

فلم أزَلْ أتقَلَّبُ في أعطافِ تلكَ الغلائلِ الخَضراءِ، وأجَرُّ ذيولَ تلكَ الجداولِ البيضاءِ، وأقلِّبُ طَرفي فلا أرَى رَائحًا ولا غادِيًا، وأتَسَمَّعُ فلا أسمَعُ هاتِفًا ولا داعيًا، حتى وَقَفَ بي الحظُّ على دوحَةٍ فَرعاءَ، مائلَةٍ على رأس بعضِ الجداول، وقَدِ اضطجَعَ في ظِلِّها على قَطيفَةٍ مِن ذلكَ العُشب الناعِم رَجُلٌ هانِئٌ، باسِمٌ، يقرأُ تارَةً سُورَةَ الجمالِ في وَجْهِ فتاةٍ جالِسَةٍ بينَ يَديْه، ويُقَبِّلُ أخرى ثغرَ الكأس التي تَتلألأُ في يَمينه، ويَترَنَّمُ بينَ هَذَا وذاكَ بمقطُوعاتٍ شِعريةٍ بديعةٍ، يمثِّلُ فيها جمالَ الطبيعَةِ وهُدوءَها وسَعادَةَ الوَحدَةِ وهَنَاءَتَها، ويطيرُ بأجنحَةِ خيالِهِ في عالَمٍ بَديعٍ مِن عَوالِمِ الغَيْب، تاركًا هَذَا العالَمَ الحافلَ بالهُمومُ والآلام، طاردًا عَن نفسِهِ كلَّ خاطِرٍ من خواطِرِ الشُّرورِ والآثام؛ ليستكمِلَ لَذَّتَهُ في الحياةِ التي يَحياها بينَ ظِلِّهِ ومائِه، وكأسِهِ وفتَاتِه.

فإنْ مَرَّ بخاطِرِه ذِكْرُ الملوكِ والأمراءِ ومَا يَنعمونَ بهِ مِن عِزٍّ وسُلطانٍ، ولَذَّةٍ واستِمتاعٍ، قال: ما لي وللمَلِكِ والسُّلطان، والحاشِيَةِ والجُند، والقُصُورِ الشَّمَّاءِ،

والجنان الفيحاء، هنالكَ المحنةُ والشَّقاءُ، والفتنةُ الشَّعواءُ، والهُمومُ والأَرزاءُ، والدِّماءُ والأشلاءُ، والعَويلُ والبُكاءُ، وهُنا الراحةُ والسُّكونُ في ظِلالِ الوحدَةِ والانفرادِ، حيثُ لا سَيِّدٌ ولا مَسُودٌ، ولا عابدٌ ولا مَعبودٌ، وبينَ هذَيْنِ الثغرَيْن: ثغر الفتاة، وثغر الكأس، وذَيْنكَ الصَّديقين: هذا الكتاب المفتوح، وذلكَ الغُصن المُطِلِّ، كلُّ ما يتَمَنَّى السُّعداءُ لأنفُسِهم مِن غِبطَةٍ في الحياةِ وهَنَاءَةٍ.

وإن ذَكَرَ الآخرةَ ومَا أعَدَّ اللهُ فيها مِنَ العذاب للمُسرِفينَ عَلى أنفُسِهم قال: إن مِنَ العَجز أن أبيعَ عاجلَ السعادةِ المَعْلُومَ بأَجَلِها المجهولَ. أنا اليومَ موجودٌ، فلابُدَّ أن أستمتعَ بمتعَةِ الوُجودِ، أما الغَدُ فلا عِلْمَ لي بِه، ولا بما قُدِّرَ لي فيه، وَعَسيرٌ عَليَّ أتصوَّرَ أننا- معشرَ الأحياءِ الناطقين- قِطَعٌ مِنَ المعدنِ الصامتِ تُدفَنُ اليومَ في باطنِ الأرضِ لينبَشَ عنا النابشونَ غَدًا.

ثم يعودُ إلى نفسِه مُستَغفرًا الله مِن ذنبِهِ في شَكِّهِ وَارْتيابه فيقول: اللَّهُمَ إنك تعلَمُ أني ما كَفَرْتُ بكَ مُذْ آمَنْت، ولا أضمرتُ لكَ في قَلبي غيرَ ما يُضمِرُ المؤمنونَ الموحِّدونَ، فاغفِرْ لي آثامي وذُنُوبي، فإني ما أذنبتُ عِنادًا لكَ، ولا تَمَرُّدًا عليكَ، ولكنَّها الكأسُ غَلَبَتني على أمري، وحَلَتْ بيني وبينَ عَقلي. وأنتَ أجَلُّ مِن أن تُقاضيني مُقاضاةَ الدائِنِ غَريمَه؛ لأنك كريمٌ، والكريمُ يمنَحُ العَطيَّةَ مَنْحًا، ولا يُقرضُها قَرْضًا، وَيُسبغُ نِعمَتَهُ الوارِفَةَ الظليلةَ حتى عَلى العُصاةِ والمجرمينَ.

وأحيانًا يَستشعرُ قلبُه الرحمةَ بالعِبادِ فيَبكي أحياءَهم وأمواتَهم، ويقولُ مخاطبًا فتاتَه: رُوَيْدًا أيَّتُها الفتاةُ في خُطاكِ عَلى هذهِ الأعشاب النابتةِ، فلعلَّ جُذورَها مُمْتَدَّةٌ إلى كَبِدِ فتَاةٍ مِثلِكِ كانَ لها قَلْبٌ مثلُ قلبكِ، ووجدانٌ مثلُ وجدانِكِ، وجَمالٌ ورُواءٌ مثلُ جمالِكِ ورُوائِكِ، ثمَّ ضَرَبَ الدهرُ ضرباتِه فإذا أنتِ في غِلالةِ هَذهِ الأشعَّةِ البيضاءِ، وإذا هيَ في دُجُنَّةِ تلكَ الأعماقِ السوداءِ، فارْفُقي بها، واسْكُبي هذهِ الفَضلَةَ مِن كأسِكِ عَلى تُربَتِها عَلَّها تتسرَّبُ إليها فتُطفِئُ ذلك اللاعِجَ الذي يَعتَلِجُ بين جَوانِحِها.

ثم يتخيَّلُ أحيانًا كأَنَّهُ واقِفٌ بينَ يَدَيْ رجُلٍ خزَّافٍ يُحرقُ حَمأَتَه في تَنُّوره[1] فيقولُ له: رحمةً أيها الخزَّافُ بهذهِ النارِ، فقد كانَت بالأمسِ إنسانًا مثلَكَ، وستكونُ أنتَ في مستقبلِ الأيام حمأةً مثلَها؛ وربَّما ساقَكَ القَدَرُ إلى يَدِ خزافٍ تحتاجُ إلى رَحمَتِهِ ورِفْقِهِ، فارْفُقْ بها اليَومَ يَرْفُقْ بكَ خَزَّافُكَ غدًا.

---

(١) الحمأة: الطين؛ والتنور: الفرن.

وآونةً يلبسُ ثوبَ الواعِظِ المُنذِرِ فينعي على السُّعداء سعَادَتَهم ويُذَكِّرُهم بما آلَتْ إليهِ حالُ الملوكِ السالِفينَ، والأَقيالِ[1] الماضِينَ، مِن خرائِب دُورِهم وعُمرانِ قُبورهم، وغُروبِ شموسِهم، وعَفاءِ آثارهم.

ثم يَنتقلُ من ذلكَ إلى البكاءِ عَلى نفسِه، وتَرَقُّب ذلك اليومِ الذي تَصوحُ[2] فيه زهرتُه، وتَنطفِئ جُذوَتُه، وتضعفُ مُنَّتُهُ، ويمحُو نهارُ مَشيبه ليلَ شبابه، فيزحفُ إلى قبرِهِ خُطوةً خُطوَةً حتى يتردَّى فيه، فيعودَ كما كانَ سِرًّا مَكتومًا في ضَمائِرِ الأقدارِ، وذَرَّةً هائِمَةً في مجاهِلِ الأكوانِ.

وهكذا ما زالَ ينتقلُ مِن عِبرَةٍ بَليغَةٍ، إلى عِظَةٍ بَديعَةٍ، ومِن خَيالٍ جَميلٍ إلى تَشبيهٍ رَقيق، ومِن وَصف ناطِق، إلى تمثيل صَادِق، حتى أصبَحْتُ أعتقدُ أَنَّ هذه النفسَ التي تَشتَمِلُ عليها بُرْدَةُ هذا الشاعرِ الجليل مِرآةٌ صافيةٌ قد تمثَّلَ فيها هَذا الكونُ بأرضِه وسمَائِه، ولَيلِهِ ونَهاره، وناطِقِهِ وصامِتِهِ، وصَادِحِه وبَاغِمِه، وأنَّ فَخَارَ الأعرابِ بمُتَنَبِّيها ومَعَرِّيها، والفَرنسيةِ بلا مَرْتِينها وفِكتورها، والسكسون بشكسبيرها، ومِلتونها، والطليانِ بدانتها، والألمان بغوتها، والرومان بفرجيلها، واليونان بهرميرها، ومصرَ القديمة ببنتاؤورِها، ومصرَ الحديثةِ بأحمَدِها، لا يقلُّ عن فَخارِ فارِسَ بخيَّامِها.

(١) الأقيال: الأسياد.
(٢) تصوح: تيبس.

إلى تولستوي[1]

قِفْ ساعةً واحدةً نُودِّعْكَ فيها قبلَ أن ترحَلَ لِطَيَّتِكَ، وتَتَّخذَ السبيلَ إلى دار عُزلَتِكَ، فَقَد عِشنا في كَنَفِكَ على ما بينَنا وبينَكَ مِن بُعدِ الدار، وشَطِّ المزار، عَهدًا طَويلًا كُنا فيهِ أصدِقَاءَكَ، وإن لم نَرَكَ، وأبناءَكَ، وإن كانَ لنا آباءٌ مِن دُونِكَ. وعزيزٌ عَلينا أن تفارِقَنا قبلَ أن نَقضيَ حقَ عشرتِك بدَمعَةٍ نَذرِفُها بينَ يَديكَ في مَوقِفِ الوَداعِ.

حدَّثنا الناسُ عنكَ أنكَ ضِقْتَ بهذا المجتمع الإنسانيِّ ذَرْعًا بعدَ أن أعجزَكَ إصلاحُه وتقويمُهُ فأبغَضْته، وعفت النظرَ إليه، وأبغَضْتَ لبُغضِهِ كلَّ شيءٍ حتى زوجَكَ وَولَدَكَ، ففرَرْتَ بنفسِك منهُ إلى غابٍ تسمَعُ زئيرَ سِباعِهِ، أو دير تأنسُ برَنَّةِ ناقوسِه، وأسجَلْتَ أن لا تعودَ إليه، وأن تقْطَعَ كلَّ صِلَةٍ بينَكَ وبينَه إلى الأبَدِ. فعَذَرْنَاكَ، ولم نَعتُبْ عَليكَ، ولم نُسَمِّكَ جَبانًا ولا رعديدًا، ولا مُوَلِّيًا ولا مُدبرًا؛ لأنك قاتَلْتَ فأبْلَيْتَ، حتّى لم يبقَ في غِمدِكَ سيفٌ، ولا فوقَ عاتِقِكَ رُمحٌ، ولا في كِنانَتِكَ سَهْمٌ، والعَدُوُّ كثيرٌ عَدَدُهُ، صَعْبٌ مراسه، وافِرَةٌ قُوَّتُهُ، والشجاعةُ في غير مَوضِعِها جنونٌ، والوقوفُ أكثرَ مِن ثمانينَ عامًا أمام عَدُوٍّ لا أملَ في بُراحِهِ، ولا مَطمَعَ في زيالِهِ، عِنادٌ. وهل يكونُ إن أنتَ ثَبَتَّ في مَوقِفِكَ حتى سَقطتَ قَتيلًا في المعركَةِ إلا مصير أولئِكَ الفلاسِفَةِ العُظماءِ مِن قبلِكَ الذين قاتلُوا حتَّى قُتلوا فهُدِرَتْ دِماؤهم، واغتُمِضَتْ عيونُهم قبل أن يَرَوْا مَنظرًا مِن مناظِر الصَّلاحِ والاستِقَامَةِ في المجتمعِ البشريِّ يُعزُّونَ بِهِ أنفسَهم عَن أنفسِهم، ويُرَوِّحُونَ به ما يجدونَ بينَ جَوانِحِهم مِن أَلَمِ النَّزْعِ، وفي أفواهِهِم مِن مَرارَةِ المَوْتِ؟

ماذا لقيتَ مِنَ الدُّنيا؟ وما الذي أفدْتَ مِنها؟ وأينَ وَقَعَ عِلْمُكَ وفَضْلُكَ؟ ولِسانُكَ وقَلَمُكَ؟ وقوَّةُ عارِضَتِكَ، ومَضَاءُ حُجَّتِكَ، مِن آثامِ الناسِ وشُرورِهم وقسوةِ قُلوبِهم وأفئِدَتِهم، وظُلمِ أَلْسِنَتِهم وأيديهم؟

(١) كتبت هذه المقالة على أثر ما جاء في الأخبار أن تولستوي ترك منزله هائمًا على وجهه ليعتزل الناس في أحد الأديرة، أو في أحد الغابات، كذا في طبعة ١٩١١م.

قلتَ لقيصرَ: أيها الملكُ، إنكَ صنيعةُ الشعب وأجيرُه، لا إلَهُهُ ومَعبودُه، وإنكَ في مَقعَدِكَ فوقَ عرشِكَ لا فَرْقَ بينَكَ وبينَ ذلكَ الأكَّار في المزرَعةِ، وذلكَ العامِل في المصنع، كلاكُما مأجورٌ على عَمل يعمَلُه، وكلاكُما مأخوذٌ بإتِّقانِ ما يعمِل. فكَما أنَّ صاحِبَ المصنع يسأَلُ العامِلَ هَل وفي عَمَلَهُ ليُوفيَ له أجرَه، كذلك يسأَلُكَ الشعبُ: هل قمتَ بحمايةِ القانونِ الذي وَكَلَ إليكَ حراسَتَهُ فأنْفَذْتَهُ كم هُو مِن غير تَبديلِ ولا تأويل؟ هل عَدَلْتَ بينَ الناس وآسَيْتَ بينَ قَوِّيهم وضعيفَهم، وغَنيهم وفَقيرهم، وقريبهم وبعيدهم؟ هَل استطَعْتَ أن تستخلصَ عقلَكَ من يَدَيْ هَواكَ، فلم تَدَعْ للحُبِّ ولا للبُغضِ سُلطانًا على نفسِكَ يَعدِلُ بكَ عَن منْهَجِ العَدِلِ ومَحَجَّتِهِ؟ وهل أصممْتَ أُذنَكَ عَن سماع كلماتِ المَلَقَ والمُداهَنَةِ والمدحِ والثناء، فلم تُفسد على الناس فَضَائلَهم، ولم تقتُلْ عِزَّةَ نفُوسهم، ولم يذهَبْ بهم الخوفُ من ظُلمكَ، أو الطمَعُ في ضُعفِكَ، مذهبَ الزُّلْفَى إليك بالكَذِب والنَّميمَةِ، والتجسسِ والتَّسَقُّطِ، وذِلَّةِ الأعناقِ وصَرْعِ الخُدود؟ فإن وَجدَكَ الشعبُ عندَ ظَنِّهِ وَرَآكَ أمينًا على العهدِ الذي عهدَ إليكَ بِهِ أبقَى عليكَ وأبقَى لكَ عرشَكَ وتاجَكَ، وحفظَ لكَ يَدَكَ التي اصطنَعْتَها عندَه، وأحسَنَ إليكَ كما أحسَنْتَ إليه، أولا كانَ له مَعَكَ شأنٌ غيرُ هذا الشأنِ، ورأيٌ غيرُ ذلكَ الرأي.

فما سَمعَ منكَ هذه الكلماتِ حتَّى أكبرَها وأعظمَهَا؛ لأنه لم يَجدْ بينَ الكثيرينَ الذين يُعاشرونَهُ مَن يُسمِعُهُ مِثلَها، فَحَقَدَ عليكَ وأضمَرَ لكَ مِن الشرِّ ما يُضمِرُ أمثالُهُ لأمثالِكَ، واستَعَانَ عَلى مُطارَدَتِكَ بأُولئكَ الذينَ أذلَّ نفوسَهم وأفسَدَ ضمائرَهُم بظُلمِهِ وجُوره مِن قبلُ لبُعدِهم عَنْ مُقاتَلَةِ الحقِّ ومُصارعَتِهِ في مَواقِفِ خوفِهِ وقَلَقِهِ.

وقلتَ للغرندوق الروسي: ليسَ منَ العدلِ أن تَملكَ وحدَكَ - وأنت نائمٌ في سَريرِكَ، بينَ رَوْضِكَ ونَسيمِكَ وظِلِّكَ ومَائكَ - هذه الأرضَ التي تَضُمُّ بينَ أقطارِها مليونَ فَدَّانَ، ولا يملِكُ واحِدٌ من هؤلاءِ الملايين - الذين يفلحُونها ويحرُثُونها، ويبذُرونَ بذُورَها ويستنبتُون نباتها، ويسوقون ماشِيَتَها، ويَتَقَلَّبُونَ بينَ حَرِّها وبَردْها وأجيجها وثلجها - شِبرًا واحِدًا فيها، فاعْرِفْ لهم حَقَّهم وأحسِن القِسمَةَ بينَكَ وبينَهم، وأشْعِرْ قلبَكَ الخَجَلَ من منظرِ شَقَائِهم في سَبيلِ سَعادَتِكَ، ومَوتِهم في سَبيلِ حَياتِكَ، واعْلَمْ أن الأرضَ لله يُورِثُها مَنْ يشاءُ.

ثم لَم تَقْنَع بما بَذَلْتَ لهُ منَ العِظَةِ والنَّصيحَةِ حتَّى ضَرَبْتَ له مَثَلًا من نفسِكَ،

فَعَمَدتَ إلى أرضكَ فَجَعَلْتَها قِسمَةً بينَكَ وبينَ القائمينَ عليها مِنَ الزارعينَ. ثم عَمَدْتَ إلى فأسِكَ فَحَمَلْتَها، وماشيتَكَ فأخذتَ بزمامِها، ولم تَزَلْ سائرًا حتَّى بلغتَ مزرعَتَكَ الصغيرةَ التي استَبْقَيْتَها لنفسِكَ فضربتَ مَعَ الضاربينَ، وخُضْتَ مع الخائضينَ لتُعَلَّمَ ذلك الجبَّارَ بِفعلِكَ ما لم تستَطع أن تُعَلِّمَهُ إيَّاهُ بقولِكَ. فَسخِرَ منكَ، ورَثَى لعَقلِكَ، وألَّفَ من أحاديثك رواية غريبة يروّح بها عن نفسِهِ - في مُجتَمَعاتِ أُنسِهِ ولَهْوِه- ما يُساوِرُهُ من السآمَةِ والضَّجَرِ.

وقلتَ للكاهن: إن المسيحَ عاشَ مُعَذَّبًا مُضْطَهَدًا؛ لأنه لم يرضَ أن يُقِرَّ الظالمينَ على ظُلمِهِم، وأنه أبى أن يُخفِيَ المصباحَ الذي في يَدِهِ تحتَ ثوْبِهِ، بل رَفَعَهُ فوقَ رأسِهِ غيرَ مُبالٍ بنقمَةِ المُلوكِ على ذلكَ النور الذي يَكشِفُ سوآتِهم، ويهتِكُ أستارَهم، وأنتَ تزعُمُ أنك خليفَتُه، وحامِلُ أمانَتِه، والقائمُ بنَشْرِ آياته، والمترسِّمُ مَواقعَ أقدامِهِ في خُطواتِهِ، فما هذهِ الجلسةُ الذليلةُ التي أراكَ تجلِسها تحتَ عُروشِ الظالمين؟ وما هذهِ اليَدُ التي تبسُطُها إليك بالموَدَّةِ والإخاءِ كأنما تريدُ أن تَعقِدَ بينَك وبينَهم عَهدًا أن يَظلموا ما شاءوا ويسلبُوا ما أرادُوا باسمِكَ واسمِ الكتاب الذي تحمِلُهُ في يَدِكَ؟ وما هذهِ السلطةُ التي تزعَمُها لنفسك أن تُدخِلَ الجنَّةَ مَنْ تشاءُ، وتخرِجَ مِنها مَنْ تَشاء؟ وما هذهِ القصورُ التي تَسكُنها، والديباجُ الذي تلبسُه؟! أين الانقِطاعَ عنِ الدُّنيا وزُخرفِها إلى عبادَةِ الله والانكِماشِ في طاعَتِهِ.

ذلك ما قلتَ للكاهِنِ، فكانَ جوابُه أن أرسَلَ إليكَ كتابَ الحِرمانِ، وهو يَعلَمُ أنك لا تعترفُ له بالقُدرَةِ على إعطاء ولا مَنْع، ولكنَّه أرادَ تشويهَ سُمعَتِكَ والغَضَّ مِن كرامَتِكَ، وإغراءَ العامَّةِ بكَ، فكانَ ذلكَ كلَّ ما أفَدْتَ مِن نَصيحَتِكَ وعِظَتِكَ.

وأبكاكَ منظرُ المنفيِّينَ في سيبريا، وما يلاقون مِن صُنوفِ العذابِ ويُعالجونَ مِن أنواعِ الآلام، فصرخَت صَرخَةً دَوَّى بها الملآن: الأعلى والأدنَى، وقلتَ: أيها الناسُ إنَّ الشرَّ لا يَدفعُ الشرَّ، وإن الأشقياءَ مَرْضَى فعالِجُوهم ولا تَنْقِمُوا مِنُهم، فالتربيةُ الصالحةُ تمحُو الجرائِمَ، والانتقامُ يُلهِبُ نارَها، واجْعَلُوا المدارسَ مكانَ السُّجُون، والمعلمينَ مكانَ السَّجَّانينَ. فلم يسمَعْ صرخَتَكَ سامِعٌ، ولا بَكَى لبكائِكَ بَاكٍ، وما زالَ القُضَاةُ يحكُمونَ والجندُ يُصادرونَ، والسَّجَّانونَ يُعَذِّبونَ، والمسجُونونَ يَصرُخُونَ.

وأزعجَكَ منظرُ الدماءِ المُتَدفِقَةِ في معارِكِ الحروب، وبكاءُ النساءِ المُعولاتِ خَلْفَ أزواجِهنَّ وأولادِهنَّ وإخوتهنَّ، وهُم سائرونَ إلى حرب لا يعرفونَ لهم مَصْدرًا

ولا مَوردًا، وقد حَمَلَ بعضُهم لبعض ضَغَائِنَ وسخائم[1] لا سببَ لها إلا ذلكَ الوَهْمُ الذي غَرَسَهُ في قلوبهم قُساةُ السياسةِ فَخَيَّلَ إليهم أنَّهم أعداءٌ وهُم أصدقاءُ، فَخَلَعُوا ثوبَ الإنسانِ ولَبِسُوا فَروَةَ السَّبُع، وأنشَبَ كُلٌّ مِنهُم ظفرَهُ في صَدر أخيه كأنَّهُ يُفَتِّشُ عَن قلبه؛ ليُنْتَزِعَهُ مِن مكانِه، ذلك القلبُ الذي لو شقَّ عن سُوَيْدائِهِ[2] لوَجَدَ لنفسِهِ فيه مكانًا عَليلًا لولا جورُ[3] السياسةِ وضلالُها.

فما أغنَى عنكَ بكاؤكَ وحنينُك، ولا أجدَى[4] عليكَ عَويلُكَ وأنينُكَ، فالحربُ لم تَزَلْ باقيةً، مَصَانعُ الموتِ لم تكْتَفِ بما أعَدَّتْ مِن المُهلِكاتِ لمعاركِ الأرضِ حتى أصبَحَتْ تُعِدُّ مثلَها لمعاركِ السَّمَاءِ.

فَهنيئًا لكَ أيها الرجُلُ العظيمُ ما اخترتَ لنفسِكَ مِن تلكَ العُزلَةِ الهادئةِ المُطمئنَّة. لقد نجوتَ بها من حَياةٍ لا سَبيلَ للعاقِلِ فيها إلا أن يسكُتَ فَيَهلِكَ غيظًا، أو يَنطِقَ فيموتَ كَمَدًا.

ربَّما استطاعَ الحكيمُ أن يُحيلَ الجهلَ عِلمًا، والظُّلمَةَ نُورًا، والسوادَ بياضًا والبحرَ بَرًّا، والبَرَّ بَحرًا، وأن يَتَّخِذَ نَفَقًا في الأرضِ أو سُلَّمًا في السماءِ، ولكنَّه لا يستطيعُ أن يُحيلَ رذيلةَ المجتمعِ الإنسانيِّ فضيلةً، وفَسَادَهُ صَلاحًا.

ما دام الإنسانُ لا يَنتهي عَن ظلم الإنسانِ حتَّى يخافَهُ، وما دامَ لا يُحسنُ إليه إلا إذا أراد أن يتَّخِذَهُ عَبْدًا يعبُدُه مِن دونِ الله، وما دامَ للأثرَةِ[5] هذا السلطانُ الأكبرُ على أفرادِ المجتمع، ومِن أكبرَ كباره إلى أصغرَ صِغاره، فإنسانُ اليومَ هُو بعينِه إنسانُ الغاباتِ والأحراشِ بالأمس، لا فَرْقَ بينَه وبينَه سِوى أنه قد أوَى اليومَ بشُروره ومفاسِدِه إلى بيتٍ منَ الزجاجِ يفعلُ فعلاتِه مِن ورائِه، ولكنَّ الزجاجَ شَفَّافٌ لا يَكتُمُ ما وراءَه.

(١) سخائم: جمع سخيمة، وهي الحقد.
(٢) سويدائه: أعماقه.
(٣) جور: ظلم.
(٤) أجدى عليك: نفعك.
(٥) الأثرة: الأنانية.

وارحمتاه(1)

في ذلك الأقليم القاحِل في تلكَ الصحراءِ المُحرقَةِ طائفةٌ مِن فقراءِ المسلمينَ وبَائِسيهم، لا يُملِكونَ مِن الحَوْلِ غيرَ قلوب يَملؤها اليقينُ بالله، والثقةُ به، ولا مِن الحياةِ غيرَ ألْسِنَة تهتفُ بها صباحِها ومَسائِها، وبُكورها وأَصائِلِها، بالدُّعاءِ إلى اللهِ تَعالى أن يَتَوَلّى أمرَها، ويُسَدِّدَ خُطاها، ويُيَسِّرَ لها السبيلَ إلى القضاءِ النافِذِ، يريدُ أن يَسْلُبَها ما أبقَتِ الأيامُ في يَدِها، وما أبقَتْ في يَدِها سِوى لُقَيْماتٍ غيرِ سَائِغَةٍ، وجَرَعاتٍ غيرِ هَنيئَةٍ، وظِلٍّ غيرِ ظَليل.

وَارَحْمَتَاهُ لجماعةِ المسلمينَ في طَرَابُلْسَ، إنهم عاجزونَ عَن أن يُعِدُّوا لِعَدُوِّهم الزاحفِ عَليهم بقَنَابِلِه وقَذَائِفِه غيرَ أجسام ستُصبحُ عمَّا قريبُ أشلاءَ مُبعثَرةً تحتَ كلِّ كوكب، وقلوب لا تزالُ تنبضُ -حتى تسمَعَ طلقاتِ المدافعِ والبنادِقِ فتسكنَ، وأرواحَ ستطيرُ في آفاقِ السماءِ طيرانَ ذلكَ الدخانِ في أجوازِ الفضَاءِ.

وارَحْمَتاهُ لَهم، إنهم يَستغيثون فلا يجدونَ مُغيثًا، ويَستصرخُونَ فلا يَسمعونَ مُجيبًا، وقَدَ تَقَطَّعَتْ بهم الأسبابُ، وأَعْوَزَتْهُمُ الوسائِلُ، وسُدَّتْ في وُجُوهِهم السُّبُلُ، فلَمْ يبقَ لهم مِنها إلاَّ سَبيلُ الموتِ، وفي الموتِ راحَةٌ للبائسين والمنكوبينَ من شَقَاءِ الحياةِ وبلائِها، لولَا أنهم يتركونَ مِن بَعدِهم بينَ يَدَيْ ذلكَ العَدُوِّ الظالم أرامِلَ ضُعفَاءَ، وأيتامًا صِغارًا، وشيُوخًا كِبارًا، لا يعلمونَ ماذَا أضمَرَ لهُم القَدَرُ في صَدرِهِ مِنَ نَعيم أو شَقَاءِ.

كأنِّي أَراهُم وَقَدَ غَلَتْ في صُدُورهم حَمِيَّةُ الدين والوَطَن ودارَت فيِ رُءوسِهم سَكرَةُ العِزَّةِ العربيَّةِ، فأبَوْا إلا أن يَزحفُوا إلى الموتِ الأحمَرِ زَحْفَ المُستَقْتِلِ المُستَبْسِلِ الذي يعلَمُ أن بابَ الحياةِ السعيدةِ الأبديةِ لا يُفتَحُ إلا بَيْنَ يَدَي الأرواحِ التي احتَقَرَتْ أجسادَها وازدَرَتْها، فتجرَّدَتْ مِن أثوابِها الرَّثَّةِ الباليةِ وأَلْقَتْها مِن ورَائِها.

وكَأنّي أرَى الرجُلَ مِنهم، وَقَدَ دَخَلَ إلى بيتِه ليُعِدَّ عُدَّتَهُ، ويُوَدِّعَ أهلَهُ الوَداعَ الأخير؛ فبكَتْ أُمُّهُ وناحَتْ زوجُه وصاحَ وَلَدُه، فبَكَى لبُكَائِهم، ورَنَّ لرَنينِهم، لا جَزَعًا من

(١) كتبت أثناء الحرب بين إيطاليا وطرابلس الغرب كذا في طبعة ١٩١١م.

الفِراق؛ لأنه فِراقٌ يُعزِّيه عَنه لقاءُ اللهِ تعالى، ولا خشيةً مِنَ الموتِ؛ لأنه يعلَمُ أن الحياةَ الذليلةَ أحقرُ مِن أن يَضِنَّ بها صاحبُها بل لا تَرحمُ صَغيرًا، ولا تَعطفُ عَلى كبير، أو أن يَهلِكُوا مِن بعدِه جُوعًا وفَقرًا، لأنه لم يترُك لهُم قُوتًا يَتبَلَّغُونَ به، ولا عِمادًا يَعتَمِدُونَ عليه. فإذا عَلِمَ أن موقفَه بينَ أهلِه مَوقِفٌ جَلَلٌ يَكادُ يغلبُ فيه عَلى صَبْرِه، نَظَرَ نَظرةً في السماءِ أرسَلَ فيها إلى رَبِّهِ جَميعَ ما تَهتِفُ به نفسُه القَريحَةُ مِن وَجْدٍ ورَحمةٍ وبُكاءٍ وحَنين، وأمل ورَخاءٍ ثم انفتَلَ مِن بين أيديهم، ومَضَى لسَبيلِه لا يَلوي على شيءٍ ممَّا وَرَاءَه، حتى يبلغَ ساحَةَ الحرب، فلا يزالُ يقرعُ بابَ الحياةِ الأخرى حتى يفتَحَ لَهُ.

هنالكَ تنوحُ النائحاتُ، وتَبكي الباكياتُ، وتطيرُ النفوسُ، وتُصعَقُ القلوبُ، وترنُّ المنازِلُ والدُّورُ بالنَّحيبِ والتَّعدادِ.

وهنالكَ تَرَى المرأةَ المسلمةَ المخبَّأَةَ التي لم تَرَ في حياتِها وَجْهَ الشمس إلا مِن كُوَّةِ بيتِها، برزةَ الوجهِ، عَارِيَةَ الرأس حَيْرى مُولَّهَةً هَائِمَةً في الطُّرُقِ والمذاهِب، تُسائِلُ الغادينَ والرائِحينَ ما فعَلَ اللهُ بولَدِها أو زَوْجِها أو أخيها، فإما بقيَتْ في حَيرتِها بياضَ يومِها وسَوادِ ليلِها، وإما عادَتْ إلى بيتها بالثِّقْلِ القاتِلِ، والحُزنِ الدائم.

وهناك تَرَى الشيوخَ الكبارَ والأطفالَ الصِّغارَ، والعاجزينَ والضُّعفاءَ لائذينَ بالتِّلالِ والآكام، يحاولونَ أن يَتَّقُوا بها صَواعِقَ الحرب وشُهُبَها فلا تَقيهم، أو عائذينَ بالمضايق والشِّعاب يَفِرُّونَ إليها مِن وُجُوهِ الخيل وسَنابِكِها فلا تَحميهم.

وهناكَ تَرَى أولئِكَ القومَ الذين يُسمُّونَ أنفسَهم مُجاهِدينَ، أو فاتِحين، أو قُوَّادًا عِظامًا، أو سُوَّاسًا كِبارًا، يَمشُونَ بينَ بيوتِ المسلمين ومَجامِعِهم مِشيَةَ الفَرِحِ المُختالِ، وينظرونَ إلى أولئكَ المساكين الذين سَرَقُوا حرِّيَتهم واستقلالَهم، وانتَهَبُوا أرواحَهم وأموالَهم، نَظَرَ السيِّدِ إلى مَولاهُ الذي مَلَكَ ولاءهُ بمالِه، واستَعْبَدَهُ بفَضْلِه، وإحسانِه. وربَّما رَمَوْا إليهم في تلك الساعَةِ بلُقَيْماتٍ كتلكَ التي يُلقيها سَيِّدُ الكَلْبِ إلى كَلبه، أو الرّاعي إلى ماشِيَتِه؛ ليُشهِدُوا العالَمَ الإنسانيَّ أجمعَه عَلى كرمِهم وسَخائِهم، وعَطفِهم ورَحْمتِهم، وأنهم ما سَفَكُوا الدماءَ ولا قَطَعُوا الأوصالَ، ولا أَيَّمُوا النساءَ، ولا يَتَّمُوا الأطفالَ، ولا انتهَكُوا الحُرُماتِ إلا خِدمَةً للإنسانيةِ العامَّةِ وإجلالًا لشأنها.

لا أحسبُ أنَّ مُسلمًا دخَلَ الإيمانُ قلبَه فملأهُ رحمةً وإحسانًا، وعَطفًا وحَنانًا، يستطيعُ أن يَتَّخِذَ لجنبه في ظُلمَةِ الليلِ مَضجَعًا، أو يجدَ لنفسِه في ضَحوَةِ النهارَ قرارًا، حُزنًا على هؤلاءِ المنكوبينَ الحائرينَ الذين يَدورونَ بأعيُنِهم في مشارِقِ

الأرض ومَغاربها يلتمسونَ ناصِرًا يُعينُهم على أمرهم، أو مُنجدًا يدفَعُ عنهُم عادِيَةَ البلاءِ فلا يَجدونَ إلا أُممًا إسلامية قَدَ أصابَها مثلُ ما أصابَهم مِن قبلُ. فهي تَعجَزُ عن النظر لنفسِها، فأحرَى ألا تنظُرَ لغيرها. فلم يبقَ بينَ أيديهم منَ الأمل إلا تلكَ الرحمةُ التي يَعتقدونَ أنها باقيةٌ لهم في قلوب الأَفرادِ مِن إخوانهم المسلمينَ أنْ يَمُدُّوهم بقليل مِنَ القوتِ يَستعينُونَ به في جهاد عَدُوِّهِم ويَعودُونَ بما بَقِيَ منهُ على عِيالِهم الذين يتَضوَّرُونَ جُوعًا مِن بَعدِهم.

أيها المسلمون:

إنكُم إن اجتَمعْتُمُ اليومَ لَن تفترقُوا غَدًا وإن هديتم لرُشدِكُم في مَوْقِفكُم هذا لن تَضلُّوا مِن بعده أبدًا، وإنكُم إن قَدَّمْتُم بينَ أيديكُم هَذا العَمَلَ الصالحَ أحسَنَ اللهُ جَزاءَكُم وأعانكُم عَلى أمركم، ووَفَى لكُم بما وَعَدكمُ مِن نصره ومَعونَتِه ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴾ [محمد: ٧].

خطبة الحرب...

يا أبطالَ برقةَ، وليوثَ طرابُلُسَ، وحُمَاة الثغور، وذَادَةَ المعاقِل والحصونِ، صَبْرًا قليلًا في مجالِ الموتِ، فها هي نجمةُ النصر تلمَعُ في آفاقِ السماءِ فاستَنيروا بنُورِها، واهتَدوا بهَدْيها حتى يفتَحَ الله عَليكم.

إن الله وَعَدَكُمُ النصرَ، وَوَعدْتُموه الصبرَ، فأنجِزُوا وعدَكُم يُنجِزْ لكُم وعدَه.

لا تُحَدِّثُوا أنفسَكُم بالفِرار، فوالله إن فَرَرْتُم لا تفِرُّونَ إلا عَن عِرضٍ لا يجدُ له حاميًا، وشَرَفٍ لا يجدُ له ذَائِدًا، ودينَ يَشكو إلى الله قَومًا أضاعُوه، وأنصارًا خَذَلُوه.

إنكم لا تُحاربُونَ رجالًا أَشدَّاءَ بل أشباحًا تتَراءَى في ظِلاله الأساطيل، وخَيالاتٍ تلوذُ بأكنافِ الأسوار والجدران، فاحملوا عليها حملةً صَادِقَةَ تطيرُ بما بَقِيَ مِن ألبابها، فلا يجدونَ لبنادِقِهم كَفًّا ولا لأَسيافِهم ساعدًا.

إنهم يَطلبُونَ الحياة، وأنتُم تَطلبُونَ الموتَ، ويطلبُونَ القُوتَ، وتَطلبُونَ الشَرَفَ، ويَطلبُونَ غنيمةً يملأونَ بها فَرَاغَ بُطونهم، وتطلُبونَ جَنَّةً عَرْضُها السمواتُ والأرضَ، فلا تَجزعُوا مِن لَقائِهم، فالموتُ لا يكونُ مُرَّ المذاقِ في أفواهِ المؤمنين.

إنكُم تَعتمدونَ على الله، وتَثِقُونَ بعَدلِه ورَحمتِه، فَتَقَدَّمُوا إلى الموتِ غيرَ شاكِّينَ ولا مُرتابينَ، فما كانَ لِيخذُلَكُم إلى أنفسِكم وأنتُم مِنَ القوم الصادِقين.

إن هذه القطراتِ من الدماءِ التي تسيلُ مِن أجسامكُم ستستحيلُ غدًا إلى شُهُب ناريةٍ حمراءَ تَهوِي فوقَ رُءُوس أعدائِكُم فتحرقُهم، وإنَّ هذهِ الأنّاتِ المتصاعدَةَ مِن صُدوركُم ليسَتْ إلا أنفاسَ الدماءِ صاعدَةً إلى إله السماء أن يأخذَ لكُم بحقِّكُم ويُعديكُم على عَدُوِّكُم، واللهُ سميعُ الدعاءِ.

إن أعداءَكُم قَتَلُوا أطفالَكُم، وبَقَرُوا بطونَ نسائِكم، وأخَذُوا بِلَحَى شيوخِكُمُ الإجلَّاءِ فساقُوهم إلى حَفَائر الموتِ سَوْقًا، فماذا تَنتظرونَ بأنفسِكُم؟

أجلبُوا عليهم بخَيلِكُم ورَجْلِكُم وأَصدِقُوا حملتَكُم عليهم، وجَعْجِعُوا بهم واقتُلُوهم حيثُ ثَقِفْتُمُوهُم، واطْلُبُوهم بكلِّ سَبيلٍ وفَوقَ كلِّ أرض وتحتَ كلِّ سماءٍ، وأزعِجُوهُم حتى عن طَعامِهم وشَرابهم، ويَقَظَتِهم ومَنامهم، فما أعذَبَ الموتُ في سَبيلِ تَنغيصِ الظالمين!

احفِرُوا لأنفسِكم بسيوفِكُم قُبورًا، فالقبرَ الذي يُحفَرُ بالسيفِ لا يكونُ حُفرةً مِنَ حُفَرِ النار.

لا تَطلُبوا المنزلةَ بينَ المنزلتَيْن، ولا الواسِطَةَ بينَ الطرفَيْن، ولا العيشَ الذي هو الموتُ أشبَهُ منهُ بالحياةِ، بلِ اطْلُبُوا إما الحياةَ أبدًا، وإما الموتَ أبدًا.

غدًا يَنتهِكُ أعداؤُكُم حُرمَةَ أرضِكُم وديارِكُم، ويَملِكُونَ عليكُم نساءَكُم وأولادَكُم؛ ويطأون بحوافِرِ خُيُولِهم مَسَاجِدَكُم ومَعابدَكُم، وينظِمُونَ في ثُقُوبِ آنافِكُم مَقاوِدَ يَقودُونكُم بها إلى مواقِفِ الذُّلِّ والهوانِ، كما تُقادُ الإبلُ المخشومَةُ إلى مَعاطِنِها. فافتَدُوا أنفسَكُم مِن هذا المصير المُهين بجوْلَةٍ تَجُولونها في سَبيل الله ثم تَموتونَ مَوتَ الجبانِ في حياتِهِ وحياةَ الشجاعِ في مَوته، فمُوتوا لتعيشوا، فواللهِ ما عاشَ ولا ماتَ كريمٌ.

إن هذه الأساطيلَ الرابضةَ على شواطِئِكُم، والمدافعَ الفاغِرَةَ أفواهَها إليكُم، والبنادقَ المُسَدَّدَةَ إلى صُدورِكُم ونُحورِكم، لا يمكنُ أن يتألَّفَ منها سُورٌ مَنيعٌ يَعترض سَبيلَكُم في رحلتِكُم مِن هذهِ الدار إلى تلكَ الدار. فَسيروا في طريقِكُم إلى آخِرَتِكُم، فإنَّ الأعداءَ إن مَلَكُوا عليكُم طريقَ الحياةِ لا يملِكُونَ عليكُم طريقَ الموتِ.

المستميتُ لا يموتُ، والمستقتل لا يُقتَلُ، ومَنْ يَهلِكْ في الإدبارِ أكثرُ ممَّن يهلِكُ في الإقدام، فإن كنتمُ لابُدّ تطلبونَ الحياةَ فانتَزِعُوها مِن بين ماضِغَي الموتِ.

إن كُتَّابَ التاريخ قَد عَلَّقُوا أقْلَامَهُمْ بينَ أنامِلهم، وَوَضَعُوا صحائِفَهم بينَ أيديهم، وانتَظَروا ماذا تُمْلُونَ عَليهم مِن حَسنات أوَ سَيئَّات. فأَمْلُوا عليهم من أعمالِكُم ما يترك في نفوسِهم مثلَ ذلكَ الأثر الذي تركَتْهُ في نفوسِكم تلكَ الصحائفُ البيضاءُ التي سَجَّلَها التاريخُ لأولئِكَ الأبطالِ العِظام.

مُوتوا اليومَ أَعِزَّاءَ قبلَ أن تَموتوا غَدًا أَذِلَّاء.

مُوتوا قبلَ أن تَطلُبُوا الموتَ فَيعوزَكُم، وتَنْشُدُوه فيُعجزَكُم.

مُوتوا اليومَ شهداءَ في ساحةِ الحرب تُكَفِّنْكُم ثيابُكُم، وتَغسلْكُم دِماؤكم وتصلِّي عليكم مَلائِكَةُ الرحمن قبلَ أن يسبقَ قضاءُ الله إليكم،، فيموتَ أحدُكُم فلا يجدُ بجانِبه مُسلمًا يصلِّي عليهِ صلاةَ الجنازَةِ ويمشي ورَاءَ نعشِه إلى قبرِه حتى يُودِعَهُ حُفرتَه، ويُخليَ بينَهَ وبينَ ربِّه.

إن الشيَخَيْن أبا بكر وعمر، والفارسَيْنَ خالدًا وعَليًّا، والأسدَيْن حمزةَ والزبير، والفاتحَين سَعدًا وأبا عبيدةَ، والبطَلَيْن طارقَ بن زيادٍ وعقبةَ بن نافعٍ، وجميعَ حُماةِ الإسلام وذَادَتِه، مِنَ السابقينَ الأولينَ والمجاهدينَ الصابرينَ، يُشرفُونَ عليكُمُ اليومَ من علياءِ السماءِ؛ لينظُروا ماذا تَصنعونَ بميراثِهم الذي تَرَكُوهُ في أيديكم. فَامضُوا لسَبيلكُمُ، واهتِكُوا بأسيافِكم حجابَ الموتِ القائمِ بينَكُم وبينَهم، وقُولوا لهم: إنا بكُم لاحقونَ، وإنا على آثارِكُم لمُهْتَدُونَ.

إن هذا اليومَ لهُ ما بَعدَه، فلا تُسَلِّموا أعناقَكُم إلى أعدائِكُم، فإنكُم إن فعلتم لن يُعبَدَ الله بعدَ اليومِ على ظَهرِ الأرضِ أبدًا.

الإنسانية العامة

الجامعةُ الإنسانيةُ هي الكليةُ العامَّةُ التي يلجأُ إلى كَنَفِها هذا المجتمعُ الإنسانيُّ كلَّما أزَمَتْهُ أزَمَةٌ، أو نَزَلَتْ به نازلَةٌ، وهيَ المطلعُ الذي تُشرقُ منهُ شمسُ الرحمةِ الإلهيةِ على هذا الكونِ فتنيرُ ظلماءَه، وتكشفُ غماءَه. وهيَ الحَكَمُ العَدْلُ الذي يَفصِلُ في قَضايا المُجتَمعاتِ البشريةِ حينَ تنفصِمُ عُروَتُها، ويدبُّ دبيبُ العداوَةِ والبغضَاءِ بينَ أحيائِها. وهيَ السلطانُ المطلقَ الذي يجلسُ على كُرسِيٍّ عَظَمَتِهِ وجَلالِهِ فَتَخِرُّ له الجباهُ سُجَّدًا، وتَبتدِرُ يدَيْه الأفواهُ لَثْمًا وتَقبيلًا.

الجامعةُ الإنسانيةُ هي الجامعةُ الأساسيةُ الثابتةُ التي رأَتَ طينَةَ آدمَ أولًا، وسترَى نفخةَ إسرافيلَ آخِرًا، والتي تسيرُ معَ الإنسانِ حيثُ سارَ في برِّهِ وبَحره، وسَهلِهِ وحَزنه، وحَياتِهِ ومَوتِهِ، وتَدور معهُ حيثُ دارَ في إيمانِهِ وكُفره، وصَلاحِهِ وفَسَادِه، واستِقَامَتِهِ واعوجاجِه، لا يتغيَّرُ لونُها ولا يَتَحوَّلُ ظِلُّها، ولا تَستحيلُ مادَّتُها، ولا تَبلى جِدَّتُها على كَرِّ الليالي ومَرِّ الأيامِ.

ما مِن جامعَةٍ منَ الجامَعاتِ القوميَّةِ أو الجنسيَّةِ أو الدينيَّةِ أو العائليَّةِ إلا وهيَ تعتمدُ على الجامعةِ الإنسانيةِ في سَيْرها وتَستظِلُّ بظِلِّها، وتَهتدي بهَدْيهَا. فالمجاهدُ الوطنيُّ يقول: إني أُدافعُ عَن وَطني، وأحمِي حَوْزَتَه، وأقومُ على ثُغُورِهِ وعَوْرَاتِهِ مَقَامَ الذائِدِ المناضِل، لأني أعتقدُ أني إن أغفَلْتُ ذلكَ وأغفَلَهُ في وَطنِهِ كلُّ مَمْنُوٍّ[1] بمثل ما أنا مَمْنُوٌّ به في وَطني، تساقَطَتِ الحواجزَ القائمةَ في وَجهِ المطامع البشريَّةِ، فجَرَى سَيْلَها مُتدَفِّعًا لا يقومُ له شيءٌ حتَّى يأتِيَ عليه. والمجاهدُ الديني يقول: إني أعتقدُ أنَّ الإنسانيةَ لا تزالُ مَعَذَّبَةً يأكُلُ قويُّها ضعِيفَها، ويغتالُ

(١) ممنو: من منا يمنو منوًا الرجل بكذا: ابتلاه واختبره.

كبيرُها صَغيرَها، ويستضعِفُ حاكِمُها مَحكُومَها، حتَّى تدينَ بالدين الذي أَدينُ به. فأنا إن حاربتُ البلادَ، وقاتلتُ العِبادَ، فإنما أُريدُ بخَوْض هذا البَحر الأحمَرَ منَ الدماءِ أن أَصِلَ إلى سَفينَةِ الإنسانيَّةِ المُشْرفَةِ عَلى الغَرَقِ فأستَخْلِصَها من يدَ الموتِ الذي يُحيطُ بها.

هكَذَا يقولُ دُعاة الدين ودُعاةُ الوطنِ، ودُعاةُ كلِّ جامعةٍ، وهكَذَا يجبُ أن يَقولوا. فإن لم يَفعَلُوا، وأَبَوْا إلا أَن يُغفِلُوا ذِكرَ الجامِعَةِ الإنسانيةِ في دُعائِهم إلى جَامِعاتهم التي يَدعُون إليها، فَسَدَ عَليهم أمرُهُم في كلِّ ما يقولونَ وما يَفعلُونَ.

ليسَ لصاحب وطن منَ الأوطانِ، أو صاحب دين منَ الأديانِ أن يقولَ لغيرهِ ممَّن يسكُنُ وَطَنًا غيرَ وطنِه، أو يدينُ بدين غَير دينِه: أنا غيرُكَ، فيجبُ أن أكونَ عدوَّكَ؛ لأنَّ الإنسانيةَ وَحْدَةٌ لا تَكَثُّرَ فيها ولا غَيْريَّةَ، ولأنّ هذه الفروقَ التي تُوجَدُ بينَ الناس في آرائِهم ومذاهبهم، ومواطنِ إقامَتِهم وألوانِ أجسادِهم، وأطوالِهم وأعرُضِهم، إنما هي اعتباراتٌ ومُصطَلَحَاتٌ، أو مُصادفَاتٌ واتِّفَاقَاتٌ، تَعرضُ لجوهرِ الإنسانيةِ بعدَ تكوينهِ واستِتمام خَلْقِه، وتَتوارَدُ عليه توارُدَ الأعراض على الأجسامِ. ففي كلِّ بلدٍ، وفي كلِّ عَصْر يَستعجِمُ العربيُّ ويستعربُ الأعجمِيُّ، ويُسلِمُ المسيحيُّ ويتَمَسَّحُ[1] المسلِمُ، ويُلحِدُ المؤمنُ ويؤمِنُ الجاحد، ويستشرِقُ المغربيُّ، ويستغربُ المشرقيُّ. ولو شئتَ أن أقولَ لقلتُ إنه لا يوجَدُ فوقَ رقعةِ الأرض مَن لا يزالُ يُمسِكُ حتَّى اليوم بطَرفِ سلسلةٍ يَنتهي طَرَفُها الآخرُ بوَطنٍ غيرِ وطنِه، ودينٍ غيرِ دينِه، وأُمَّةٍ غيرِ أُمَّتِهِ.

إذا جازَ لِكُلِّ إقليم أن يتَنَكَّرَ لغيره مِنَ الأقاليم جازَ لكلِّ بَلَدٍ أن يَتَنَكَّرَ لغيره منَ البلادِ، بل جازَ لكلِّ بيتٍ أن ينظرَ تلكَ النظرةَ الشزراءَ[2] إلى البيتِ الذي يُجاورُهُ، بل جازَ للأب أن يقولَ لوَلَدِه، وللوَلَد أن يقولَ لأبيهِ: إليكَ عَني، لا تمدَّ عينَيْكَ إلى شيءٍ مما في يَدي، ولا تَطْمَعُ لأن أُؤثِرَكَ[3] على نفسي بشيءٍ مِمَّا اختَصَصْتُها به؛ لأنني غيرُك، فيجبُ أن أكونَ عدوَّكَ المحاربَ لكَ. وهناك تَنْحَلُّ كلُّ عقدةٍ وتنفصِمُ

---

(١) يتمسح: يصبح مسيحيًا.
(٢) النظرة الشزراء: المليئة بالغضب.
(٣) أوثرك: أفضلك.

كلَّ عُروَةً، ويحمِلُ كلُّ إنسانٍ لأخيه بينَ أضلاعِه مِن لواعج البُغض والمقْتِ ما يُرَنِّقُ عيشَه، ويُطيلُ سُهْدَهُ، ويُقلِقُ مَضجَعَهُ، ويحبِّبُ إليه صورةَ الموت، ويُبَغِّضُ إليه وَجْهَ الحياةِ، وهنالكَ يُصبحُ الإنسانُ أشبَهَ شيءٍ بذلكَ الإنسانِ الأوَّلِ في وَحشَتِهِ وانفِرادِهِ، يُقلِّبُ وَجْهَهُ في آفاقِ السماءِ، وينبشُ بيدَيْه طبقاتِ الأرض فلا يجدُ له في الوَحشَةِ مُؤنِسًا، ولا عَلى الهموم مُعينًا.

الجامعةُ الإنسانيةُ أقرَبُ الجامعاتِ إلى قلَب الإنسانِ، وأعلَقُها بفؤادِهِ، وألْصَقُها بنفسه؛ لأنه يَبكي لمُصاب مَنْ لا يعرفُ- وإن كانَ ذلكَ المصابُ تاريخًا مِنَ التواريخ أو أُسطُورَةً مِنَ الأساطير، ولأنه لا يَرَى غَريقًا يتخبَّطُ في الماءِ، أو حَريقًا يَتَلَظَّى في النار، حتَّى تحدِّثَهُ نفسُه بالمخاطَرَةِ في سَبيلِه، فيقفَ وقفةَ الحزينِ المُتَلَهِّفِ إن كانَ ضَعيفًا، ويندفعَ اندِفَاعَ الشجاع المستَقْتِلِ إن كان قَويًّا، ويسمَعُ وهو بالمشرق حديثَ النكباتِ بالمغربَ فيخفقُ قلبُه وتطيرُ نفسُه لأنه يعلَمُ أن أولئكَ المنكوبينَ إخوانُه في الإنسانيةِ، وإن لَم يكُن بينَه وبينَهم صِلَةٌ في أمرٍ سِواها. ولَولا أن سِتارًا مِنَ الجهل والعَصَبيَّةِ يُسبلُهُ كلَّ يوم غُلاةُ الوطنيةِ والدين أو تُجَّارُهما عَلى قلوب الضعفاءِ السُّذَّج، لما عاشَ منكوبٌ في هذهِ الحياةِ بلا راحمٍ ولا ضَعيفٌ بلا مُعين.

لا بأسَ بالفِكرة الوطنيةِ، ولا بأسَ بالحَمِيَّةِ الدينيةِ، ولا بأسَ بالعَصَبيَّةِ لهما، والذودِ عَنهُما، ولكنْ يجبُ أن يكونَ ذلكَ في سَبيل الإنسانيةِ العامَّةِ غيرَ خارجَةٍ عَنها. والوطنيةُ لا تزالُ عَمَلًا من الأعمالِ الشريفَةِ المقدَّسَةِ حتى تخرجَ عَن حدودِ الإنسانيةِ، فإذا هي خيالاتٌ باطِلَةٌ وأوهامٌ كاذبةٌ، والدينُ لا يزالُ غريزةً مِن غرائز الخير المؤثِّرةَ في صلاح النفوس وهُداها حتَّى يتمرَّدَ على الإنسانيةِ ويُنابذَها، فإذا هو شُعبَةٌ من شُعَبِ الجُنُون.

فإن كان لابُدَّ للإنسانِ مِن أن يحاربَ أخَاهُ أو يقاتِلَهُ، فَلْيُحاربْهُ مُدافِعًا لا مُهاجمًا، وَلْيُقَاتِلْهُ مُؤدِّبًا لا مُنْتَقِمًا، وَلْيكُن موقفُه أمامَه في جميع ذلكَ مَوْقِفَ العادِلِ المُنصِفِ، والشَّفيق الرَّحيم، فَيَدفِنَهُ قَتيلًا، ويعالِجَهُ جَريحًا، ويُكرِمَهُ أسيرًا، ويُخلِفَهُ على أهلِه وَوَلَدِهِ بأفضَلِ ما يُخلِفُ الرجُلُ الكريمُ أخاه الشقيقَ على وَلدِهِ مِن بَعدِه، وَلْيَكُن شأنُه معه شأنَ تلكَ الفِئةِ المتحاربَةِ التي وَصَفَها الشاعرُ في قوله:

إذَا احتَرَبَتْ يومًا فَفَاضَتْ دِماؤُها ... تَذَكَّرَتِ القُربى فَفَاضَتْ دُمُوعُها

أدوار الشعر العربي

كانتِ العربُ في جاهِليَّتِها أُمَّةً مُتَبَدِّيَةً على الفِطرةِ النقيَّةِ البيضاءِ، لا تعبثُ الحضارةُ بجمالِها، ولا تعبثُ المدنيةُ في صُورتها. شمسُها في آفاقِها، فتنبسطُ أشِعَّتُها على سُهولِها وحُزُونها، ونجادها ووهادِها، من حَيثُ لا يعترضِ سبيلَها من الظِّلِّ سُحُبٌ، ولا مِنَ السُّقُوفِ حُجُبٌ. وينبتُ نباتُها حيثُ يجري مَاؤها، لا تعبثُ في الأيدي بتربيع ولا تَدوير، ولا تَقويس ولا تَعريج، ويَجري ماؤُها في سَبيله حيثُ ينسابُ بِه تَسَلْسُلُهُ وإطِّرادُه، لا تُلوى به عَن قصدِه الحفائرُ، ولا تَنتَصِبُ في وَجهِه القناطِرُ. ويهيمُ وَحشُها في جبالِها.. وطيرُها في أجوائِها من حيثُ لا يَحبسُ الأوَّلَ عَرينٌ مَوصُودٌ.. ولا الآخرَ قَفَصٌ مَحدودٌ. والشعرُ مِن وراءِ ذلكَ كلِّه مِرآةٌ صافيةٌ تَتَمَثَّلُ فيها تلكَ المناظرُ الفِطريةُ على طَبيعَتِها وفِطرَتِها.

يَنطِقُ العربيُّ بما يَعلَمُ.. ويقولُ ما يَفْهَمُ ويَصوِّرُ ما يَرَى، ويُحدِّثُ عمَّا تَمَثَّلَ في نفسِه حَديثًا صَادقًا لا تَكَلُّفَ فيه ولا تَعمُّل..؛ لأنَّ كلَّ ما هو محيطٌ بِه من هواءٍ وماءٍ وأرضَ.. وطَعام وشَراب، ومَرافِقَ وأدواتٍ، على الفِطرَةِ السليمة الخاصَّةِ، فأحْرَى أن يكونَ شِعرُهُ كذلكَ.

ذلكَ كانَ شأنُ الشعر العربيِّ والعربُ على فِطرَتهم. وذلكَ معنى قولِهم: الشعرُ ديوانُ العَرَبَ؛ لأنه صورةُ حياتهم الاجتماعيَّةِ والأدبيَّةِ، ومثالُ خَواطِرهم الحقيقيَّةِ والخياليَّةِ. فإنْ ظَنَّ أنَّ التماثيلَ والنُّصُبَ والصُّوَرَ والتهاويلَ، وبَقَايا الآثار، وقِطَعَ الأحجارِ التي نَرَاهَا في خَرَائِب اليونانِ والرومانِ، والفينقيينَ والفراعِنَة، أَدَلُّ على تواريخَ أولِئك الأقوام منَ الشعْر العربيِّ على تاريخ العَرَب، قُلنا له: ما مِن ديوانٍ مِن دَواوينَ الأمَمَ الماضيةِ إلا وَقَد تحدَّثَ المؤرِّخُونَ بعَبَثِ الأيدي بهِ ولَعِبها بسُطوره وسِجلاَّتِه، أما الديوانُ العربيُّ فصورةٌ صحيحةٌ وآيةٌ ثابتةٌ، لا تغييرَ فيها ولا تَبديل.

ثم جَرَتْ بعدَ ذلكَ جوارِ بالسعدِ والنحس، فانتقَلتِ الأمّةُ العربيةُ من بَداوَتها إلى حَضَارَتها، وهاجَرَ معها شِعرُها بهجرَتها، فطَلَعَ جيشُ المولَّدينَ يحمِلُ لواءَه الشاعرانِ

الجليلانِ: بشَّار، وأبو نواس، فَطَرَقُوا مَعاني لم تكُن مَطروقَةً، ونَهَجُوا مناهِجَ لم تكُن مَعروفةً، فقُلنا: لا بأسَ، فالشعرُ العربيُّ أوسَعُ مِن أن يضيقَ بحاجاتِ أُمَّتِه وضَرورَتِها، في جميعِ شُئونِها وحَالاتِها. حتَّى جاءَ أبو تمام شيخُ الصناعةِ اللفظيةِ، فسَلَكَ إلى كثيرٍ مِن معانيهِ البديعةِ طريقَ اللَّفْظِ المصنوعِ والأسلوبِ المُتَكَلَّفِ، فَثَغَرَ في الشعرِ العربيِّ ثغرةً أَلَحَّ عليها السائِرونَ على أَثَرِهِ مِن بعدِه بأظفارِهم وأنيابِهم حتَّى صَيَّرُوها فُوهَةً واسِعَةً لا تمنَعُ ما وَراءَها ولا تَدْفَعُ ما أمامَها، فأصبحَ الشعرُ على عهدِ ابنِ حُجَّةَ وابنِ الفارِضِ وابنِ مُلَيْكٍ والصَّفَدي والسَّرَّاجِ والوَرَّقِ وأبي الحسَنِ الجزَّارِ والصَّفِيِّ الحِلِّيِّ وأمثالِهِم، أشبَهَ شيءٍ بتلكَ الآنيةِ الصينيةِ التي يَضَعُها المُترفونَ في زوايا مجالِسِهِم وعَلى أطرافِ مَوائِدِهِم ظَهْرًا زاهيًا، وبَطنًا خاويًا، لا تَشفي غُلَّةً، ولا تَبُضُّ بقطرةٍ، ولا تُسمِنُ ولا تُغني مِن جُوعٍ. ثم جاءَ على أثرِ هؤلاءِ مَنْ تَدَلَّى إلى منزلَةٍ أدوَنَ مِن هذهِ المنزلَةِ، فجاءُوا بشَيءٍ هُوَ أشبَهُ الأشياءِ بتلكَ التفاعيلِ التي وَضَعَها الخليلُ مِيزانًا للشِّعرِ، لا يروقُ لفظُهَا ولا يُفْهَمُ مَعناها.

وعَلى هذا الموردِ الوَبيلِ وَقَفَ الشعرُ الوَبيلُ، وَقَفَ الشعرُ العربيُّ بضعَةَ قرونٍ وَقفَةً لا يَتَزَحْزَحُ عَنها ولا يَتَحَلْحَلُ، حتَّى أنزلَ اللهُ إليه من ملائكَةِ البيانِ رُسُلًا في هذا العهدِ الأخيرِ أخَذُوا بيدِه، ونَشَرُوهُ من قَبرِهِ ونَفَضُوا عنهُ غُبَارَه فأصبَحْنا نَرَى في أبرادِ الكثيرِ منهُم، أجسامَ امرئِ القيسِ، والنابغةِ، ومُسلم، وأبي نواسٍ، وأبي عُبادَةَ، والشريفِ.

ومهيارٍ لا فَرْقَ بينَهم وبينَه سِوى أنَّ هؤلاءِ مُقَلِّدونَ يَتبعُونَ الآثارَ وأولئِكَ مُبتَدِعُون يقْتَرِعُونَ الأبكارَ.

حوانيت الأعراض

أنا لا أستطيعُ أن أتصوَّرَ الفرقَ بينَ رجُل يَمُدُّ يَدَهُ إلى خزانةِ بَيتي فيسرقُ مالي، وبينَ آخرَ يَمُدُّ لسانَهُ أو قَلَمَهُ إلى شَرَفي فيستلبُه. كلاهُما مجرمٌ فاتك، وكِلاهُما لِصٌّ مُغتالٌ، وإن كانَ أوَّلُهما في نَظَرَ القانونِ وفي عُرفِ الناسِ أكبَرَهُما إثمًا، وأسوَأَهُما أثرًا.

المالُ خادِمٌ مِن خُدَّام الشرفِ، وحاجبٌ مِن حُجَّابِهِ والوقوفِ على بابه، ولَولا مكانُ الشرفِ، والكَلَفُ بصيانَتِه، والضَّنُّ به أن يَعبَثَ بجَوهرِه، عابثٌ ما كانَ لامرئٍ في هذا المعدنِ الصامتِ أَرَبٌ أكثرَ من أن يقيمَ به صُلْبَه، ويمسكَ به حَوباءَه. فإن كانَ سارقُ المالِ مُجرمًا من حيثُ كونُهُ هاتِكًا لذلكَ الحِجاب المُسبلَ دونَ الشرفِ، فجديرٌ بمَنْ يسرقُ الشَرَفَ نفسَه أن يكونَ رأسَ الجانينَ وأكبرَ المجرمينَ.

يكونُ للرجُل - منَ الصحفيين مثلًا - عندَ الرجُلِ مِن كرام الناسِ وسَراتهم وذَوي السيرةِ الصالِحَةِ فيهم، مأرَبٌ مِنَ المآرب التي لا يَعرفُ لنفسِه فيها حَقًّا ولا يَمُتُّ إليها بسَببٍ مِنَ الأسباب الظاهِرَةِ أو الباطِنَةِ، فما هو إلا أن يمتنعَ عَليه حتَّى يَرْميَهُ بسَهمٍ جارحٍ مِن سهامِهِ النافذَاتِ، يصيبُ به مَقتلًا من شَرَفِهِ وكرامَتِه، ولا ذَنْبَ لهُ عندَه إلا أنه لم يكُن مِن لحيَتِهِ يَلفُّ عُثنُونَها على يدِهِ ثم يقودُهُ بها إلى حيثُ شاءَ كما تُقادُ السائِمَةَ إلى مَصرَعِها.

يحبُّ الرجُلُ المجدَ حُبًّا يملأُ ما بينَ جوانحِهِ، ويكلَفُ به حتَّى يصبحَ آثَرَ عندَه مِن نفسِه التي بينَ جَنْبَيْه، ويقضي لكَلَفِهِ بِهِ وحِرْصِهِ عليه سَوادَ ليلِه يساهرُ الكَوكَبَ حتَّى يَنحدَرِ إلى مَغربه، وبياضَ نهارِهِ يسايرُ الشمسُ حتى تغربَ في حمْأتِها، ويقيمُ بينَه وبينَ شهواتِ نفسِه ونزعاتِ قَلبِهِ حَربًا عَوانًا يحمِلُ في سَبيلِها ما لا يستطيعُ أن يحمِلَهُ بَشَرٌ، حتَّى إذَا أمكنَهُ المقدارُ منه وبَدأَ يَنْهَلُ أوَّلَ مِن مَوردِهِ البارِدِ العَذْب، رآها ممزوجَةً بذلكَ العَلْقَمَ المُرِّ الذي صبَّهُ لهُ في إنائِه ذلكَ المجرمُ الأثيم.

إن بينَ جدرانِ بعضِ تلكَ القاعاتِ التي يسمُّونها «إدارات» قَوْمًا مَفاليكَ قد دارَت عليهم الأيامُ دَوْرَتَها، وسَلَبَتْهُم المواهِبَ التي يعيشُ بها أمثالُهم، ممَّن وُلِدَ مَولِدَهم

وَنشأَ مَنْشَأَهُم، فضاقَتْ بهم سُبُلُ العيش التي ما كانت تضيقُ بهم لَو أَنَّ اللهَ أبقَى لهُم بعدَ أن سَلَبَهُم فَضيلَةَ الفَهْمِ والعِلم فضيلةَ العمَل الصالح والسيرةِ المستَقيمَةِ، فلم يَجدُوا بينَ أيديهم مَنْفَذًا يَنفُذُونَ منهُ إلى القُوت، فَفَتَحُوا حوانيتَ للاتِّجَار بأعراض الناس وكَرَامَتِهِم سَمُّوها صَحُفًا، وأكثرُ مُشتَمَلاتِها أعراضُ الأشرافِ والعُظَماءِ وأرباب الجدِّ والعمل، الذينَ سَبَقُوهم إلى فردوس السعادةِ، وخَلَفُوهم وَرَاءَهُم يَتَأَكَّلُونَ غَيظًا لحرمانهم ممَّا أفاضَ اللهِ عليهم، فهُم إن فَتَّشْتَ عنهُم، وكشفَت عن دخائِلِ نفوسِهم، علمتَ أَلَّا فرقَ بينَهم وبينَ أولئكَ الفَوْضَويِّينَ الذين يَدينونَ بقتلِ الملوكِ والأمراءِ، وأستَغفِرُ الله. فللْفَوْضَويِّينَ رأيٌ في تلكَ الجرائمِ يَرَوْنَه، وفكِرَةٌ خاصَّةٌ يَعتقدونَ صِحَّتَها، بَلْ هُم كقُطَّاع الطريق الذين يهاجمونَ الغَادِينَ والرائِحينَ ولا ذَنْبَ لهُم عندَهم إلا أنَّهم مُزَوَّدُونَ وهُم مُقفرو الأيدي مِنَ الزادِ.

ولقد يكونُ خطبُهم سَهْلًا ومُصابَهم مُحتَمَلًا، لو أنهم صَرَّحُوا عَن أنفسِهم وأبدَوْا للناس صَفَحاتَ وُجوهِهم، وطَلَبُوا قُوتَهم مِن طريقِ الكِدْيَةِ الواضحَةِ البَيِّنَةِ. ولكنَّهم مُراءونَ مُخادِعُونَ، يَشتُمونَ باسم الموعِظَةِ ويَقرِضُونَ الأعراضَ باسمِ النصيحةِ، ويتَّهمونَ الأبرياءَ باسمِ الغيرةِ الدينيةِ أو الأدبيةِ. وواللهِ ما بهم من أدب ولا دين، ولا عِظَةٍ ولا نصيحةٍ، ولكنَّهم قومٌ مَحدَّدُون، قد بَلَغَتِ الفَلاكَةُ منهُم مَبلغًا، وضاقَت بهم الأرضُ الفضاءَ عَلى رَحْبِها. فهُم يُرَوِّحُونَ عَن نفوسِهم بالنَّيْلِ مِن شَرَفِ الشُّرَفَاءِ، وتَنغيص لَذَّةِ السُعَدَاءِ. ويَطلبُونَ قوتَهم فيما بينَ هذا وذلكَ مِن يدِ تلكَ الفِئَةِ الساذَجَةِ التي لا تَستطيعُ أن تُفرِّقَ بينَ الكاتِب الذي يكتبُ ليقوِّمَ مُعْوَجًّا، أو يُصلحَ مُخْتَلًّا، أو يرفَعَ بدعَةً باطِلَةً، أو يكشفَ عن حَقيقةٍ خَافِيَةٍ، وبينَ الآخرِ الذي يدورُ معَ الدينارِ دورةَ الحرباءِ معَ الشمس، لا يفارقُه حتى تُفارِقَها، والذي لا يلَذُّهُ شُرْبُ الماءَ إلا مَمزوجًا بدَم.

والله، ما أدري ما الذي أقامَهم هذا المقامَ، وعَهَدَ إليهم هذا العَهْدَ، ومَن الذي وَكَلَ إليهم النَّظَرَ في شُئونِ الناس والفَصلَ في قَضَايَاهُم، والقيامَ على حَسناتهم وسَيّئاتهم، وما هُم بالبَرَرَةِ الأتقياءِ الذين يُصلِحون أنْ يَكونُوا أمثِلَةً حَسَنَةً في مَنازلهم، فيكونُوا قدوةً صالحةً في أُمَّتِهم، ولا بالعُلماء الفُضَلَاءِ فنهتديَ بهُداهُم، ونَسْتَنَّ بسُنَّتِهم، ولا بالصادِقينَ المُخلصينَ فنتعبَّدَ بإجلالِهم وإعظامِهم، بل ليسَ لواحِدٍ منهُم فضْلُ الصانع في مَصنَعِهِ، أو التاجر في حَانُوته، أو العامِلِ في مَعمَلِهِ، فَيَصلحُ أن يكونَ حَكَمًا في

قَضَايا الأشرافِ والنبلاءِ، ومِيزانًا لحسَناتهم وسَيِّئَاتِهِم. وعِندي أنْ لو جُمِعَتْ عُيُوبُ الناس جَميعُها في كَفَّةِ ميزانٍ، وَوُضِعَتْ في الكَفَّةِ الأُخرى عُيُوبُهُم الجامعةُ للسَّفَاهَةِ والكَذِبِ والنَّمِيمَةِ والتَّجَسُّس، وهَتْكِ الأعراض، واتِّهام الأبرياءِ، استِهواءِ الضُّعفاءِ، لَثَقُلَتْ كَفَّتُهُم أمامَ كَفَّةِ الذين يزعمونَ أنهم يُقَوِّمونَ مُعْوَجَّهم ويَثقفُونَ مُنادَّهُم، ويُصلِحُونَ ما فَسُدَ مِن شُئونِهم.

***

الرثاء

ما أنسَ لا أنسَى رجُلًا كان خيرَ مَنْ لقيتُ منَ الرجَل، وكانَ يُعجِبُني منهُ أدبُه وفضلُه، وعِفَّتُه وحَيَاؤُه، وشَرَفُ نفسِه، وطهارَةُ قلبه، وأَنَّه كان صَبُورًا مُحتَمِلًا، تقرعُ الخطوبُ صَفَاةَ قلبه فترتَدُّ عنها ثانيةً، كما ترتَدُّ الكُرَةُ عنِ الحائطِ إذا قَرَعَتْها.

كانَ فقيرًا لا يملكُ منَ الدنيا أكثرَ مما يقيمُ صُلْبَهُ، ويُمسكُ حَوباءَهُ، ويَستُرُ سَوأَتَه، فَزَوَّجَهُ أبوهُ بابنةِ عَمٍّ لهُ لم يكُن مثلُها في دَمَامَتِها، وسوءِ خُلُقِها، وجَفَاءَ طَبْعِها، ممَّن يطمَعُ مثلُه في جَمالِ خَلْقِهِ ولِين حاشِيَتِهِ وانسِجام طَبْعِه. فَكَبُرَتْ نفسُه عن مخالَفَةَ أبيه؛ لأنه كانَ بَرًّا به، مُطِيعًا له، نازلًا عندَ أمره ونَهيِه، وعَن مُجافاةَ زَوْجِةِ وإرَاحِها والانقباض عَنها، لأَنَّه كانَ واسِعَ الصَّدر، فسيحَ رُقعَةِ الحلم، رَفيقًا بالضُّعفَاءِ والعاجزينَ، فتزوجها وفي نفسِه مِنَ المَضضِ والألَمِ ما يُلهِبُ الجوانحَ، ويُذيبُ لفائِفَ القُلُوبِ.

وأذكرُ أني على طُولِ عشرتي لهُ، ولُصُوقِ نَفسي بنفسِه، ما سمعتُه يَشكُو إليَّ يَومًا منَ الأَيَّام ما كان يُعالِجهُ مِن سُوءِ عِشرَتها، ويُكابِدُهُ مِنَ شُرورها التي لا تَغِبُّه ليلَها ونَهارَها ثِقَةً بالله ورَحمَتِهِ. وإيثارًا لفَضيلَةِ الصَّبْر والجَلَدِ، وسُكونًا إلى ما جرَتَ به الأقلامُ في ألْواحِ المقادير.

فكنتُ أرحَمُ صَمتَه وسُكونَه، وأرثي لجمُودِ عَيْنَيْهِ عِنِ البكاءِ؛ لأني أعلمُ أن نيرانَ الأحزانِ لا يسكُنُ اضطِرامُها، ولا يهدأ اعتِلاجُها، إلا باطِّرَادِ العَبَراتِ وتَصاعُدِ الزَّفَرَاتِ. وكانَ كلُّ ما يَنعَمُ بِهِ من لذائذِ هذهِ الحياةِ وأطايبها، أَنَّه كانَ يُسافِرُ في كلِّ

شهر مرَّةً أو مرَّتَيْن إلى أحَدِ أصدقائِهِ في الرِّيفِ فيقضي عندَه يَوْمَيْن أو ثلاثةً ثم يعودُ وفي ثغرِهِ ابتِسامَةٌ تَتَلألأُ تلألُؤَ نَجمَةِ الصُّبح قبلَ انحدارِها إلى مَغربِها، ثم لا تلبثُ أن تتَلاشَى، ولا يلبثُ أن يعودَ إلى جُمُودِهِ الأوَّلِ، لا يحزُنُ فيبكي، ولا يفرحُ فيتسمُ، حتى يخيَّلَ للناظرِ إليه أنَّه يعيشُ في عالمٍ غير هَذا العالمَ، ولا يُظَلِّلُه ليلٌ ولا يضيئُه نهارٌ.

قضيتُ في صُحبتِهِ على حالِهِ تلكَ بضعَ سنينَ أعلمُ مِن دَخيلةِ نفسِه ما يحسبُ أني أجهَلُهُ، فأكاتِمُهُ ذلكَ العلمَ جَهدي رفقًا به وإشفاقًا عليه. حتى زرتُه في مَنزلِه ذاتَ يوم فرأيتُه جاثِمًا في مَقعَدِه الذي كانَ يَقْتَعِدُهُ مِن غُرفَتِهِ وقد أطرَقَ إطراقًا طَويلًا ذُهِلَ فيه عَن نفسِهِ فلَم يَشعُرْ بدُخولي حتى أخذتُ مَكاني، فرفَعَ رأسَه فأدهَشَني مِن منظرِه اصفِرارُ وَجهِهِ وذبولُ عَيْنَيْهِ، وما كانَ يَغْشَى جبينَه مِن دُخانِ تلك النار التي تَشتَعِلُ بينَ جوانِحِهِ. ثم نَظَرَ إليَّ نظرَةً طويلَةً لا عَهْدَ لي بمثلِها مِن قبلُ وقال:

- أتعتقدُ أنَّ اللهَ موجودٌ؟ قلتُ: نعم - مُعالجًا نفسِي على كتمانِ ما كان يذهبُ يُلبِّي مِن تنكُّرِ حالِهِ، وتَغَيُّرِ أطوارِه.

قال: وتَعتقدُ أنه عادلٌ؟ قلت: نعم.

قال: وراحِمٌ؟ قلتُ: نعم.

فبَسَطَ يَدَهُ إليَّ فِعْلَ الضارعِ المستَصْرِخِ، وقال:

- هل لكَ أن تحدِّثني أيها الصديق عَن نزولِ الصواعقِ، وثَورَةِ البراكين، وطُغيانِ البحار، وغَرَقِ السُّفُنِ، وانتِشارِ الأوبَاءِ، وفَتْكِ الأدواءِ، ونَكَباتِ الفَقْرِ والجُوعِ، وتلك العيون التي لا تزالُ مُنْهَلَّةً بالبُكَاءِ، والضُّلُوعِ التي لا تزالُ مُلتَهِبَةً بنيرانِ الهُمومِ والأحزانِ هَل تعتقدُ أنَّ ذلك كلَّه عدلٌ مِنَ اللهِ ورَحمةٌ؟!

قلتُ: نعم، إن الله يمتحنُ عِبادَه ليعلمَ الذين صَبَروا فيَدَّخِرَ لهم في دار نَعيمِه مِنَ المثوبةِ والأجر أضعافَ مَا كانوا يَقدرونَ لأنفُسِهم مِن سعادَةِ الحياةِ وهَناءَتِها.

قال: إن الله أكرمُ مِن أن يجعَلَ الشرَّ طريقًا إلى الخير، وألا يُحسِنَ إلى عبادِه إلا بعدَ أن يسلبهم الإساءَةَ.

قلتُ: ذلكَ ما كتَبَ على نفسه أن يُجازِيَ كلَّ عامِلٍ بعَمَلِه. إنْ خيرًا فخيرٌ، وإنْ شَرًّا فَشَرٌّ.

قال: إنه كَتَبَ على نفسِه الرَّحمَة.

قلت: نعم، إنه أكرمُ الكرماءِ، وأرحَمُ الرُّحَماءِ.

قال: حَدِّثني عَن الولَدِ الصَّغير الذي لم يُخالِطْ نفسَه شَرٌّ، ولَمْ يَتَسَرَّبْ إلى قلبه كَيْدٌ؟ ما لي أراهُ مُفتَرشًا حِجرَ أُمِّهِ وقد تَولَّى الليلُ إلا أقلَّه يتَقَلَّبُ على مِثل جَمْر الغَضى مما يُساوِرُه مِنَ الآلام، فينتفضُ تارةً ويختلعُ أخرى، ويصرخُ صرخاتٍ تستمطرُ الدموعَ، وتحولُ بينَ العينِ وبينَ الدموعِ؟ وما لي أرى أمَّه باكيةً مُوَلَّهةً، ذاهِلةَ اللُّبِّ مُوجعَةَ القلب، تفزعُ لفَزعاتِه، وتصرخُ لصرَخاتِه وقد اختبَلَ عقلُها والْتَاثَ أمرُها، وعَظُمَ يأسُها، وفَنِيَتْ حِيلَتُها وقَلَّ مُساعدُها وضَعُفَ ناصِرُها، فأنشَأَتْ تُقَلِّبُ وجهَها في السماءِ ضارعَةً إلى اللهِ تَعالى أن يأخُذَ بيدِها ويرحَمَ نفسَها برحمةِ ولدِها. وبينَا هي تنتظرُ صوتَ الإجابةِ يرنُّ في آفاقِ السماء، إذا بها تسمَعُ حَشْرَجَةَ الموتِ في صَدْرِ ولدِها، وإذا به ينزعُ نَزْعًا مُؤلِمًا يطيرُ باللُّبِّ، ويذهَبُ ببقيَّةِ الصبر، حتى تفيضَ نفسُه، فماذا جَنَى هذا الولدُ الصغيرُ حتى أصبَحَ لا يستحقُّ رحمةً منَ اللهِ ولا رأفَةً؟

قلتُ: وما يُدريك؟ لعلَ الله أرادَ بِهِ خَيرًا، فرَحِمَهُ بالموتِ المُعَجَّلِ من حياةٍ علِمَ أنه سيلْقَى فيها مثلَما تَلْقَى أنتَ اليومَ مِنَ الشقاءِ المُمِضِّ والعَذَابِ الأليم.

فنالَتْ هذه الكلمةُ من نفسِه، وجَمَدَ أمامَها جُمُودًا طَويلًا، ثم قال: أحسَنْتَ أيها الصديق. ليتَ الذين يَشقونَ في هذه الحياةِ يَشعرونَ بصِغَر هذهِ الدُّنيا، وحَقَارَةِ شأنها، فَيتَمَنَّوْنَ لو لَم تَلِدْهُم أُمَّهاتُهم ولَمْ يُكتَبْ لهم سَطرٌ واحدٌ في الوُجود. وبعدُ فهل لكَ في سَفرةٍ مَعي إلى ذلك الصديقِ الريفيِّ تَقضي عندَه يومًا واحِدًا ثم نعودُ عَلى أن تكونَ مَعي كما كان مُوسَى مع الخَضِرِ، لا تسألُني عن شيءٍ حتى أحدِثَ لكَ منه ذِكرًا.

فَوَافَيْتُ رَغبَتَهُ، وَقبلْتُ شرطَه، ثم قَامَ وقمتُ. ولو أنني ملكتُ في هذه اللحظةِ الدُّنيا بحذافيرها لَوَهَبْتُها لمنْ يكشفُ لي سرَّ صديقي ويَدُلُّني على مكان نَكبتِهِ التي زَعزعَتْ نفسَه، وصَهَرَتْ قلبَه، ومَلَكَتْ عليه لُبَّهُ، وأما اليومَ وقد صَفِرَتْ منها يَدي، وأقفرَ بفراقِها رَبْعي.. وحالَتْ تلكَ الصفائحُ بيني وبينَها، فلا عَزاةَ ولا سَلْوى.

مَنْ لي بضَرْبَةٍ مِن ضَربَاتِ الدهر تَذهَبُ بذاكرتي جُملَةً واحدةً، فلا أعودُ أذكُرُ أيامَ حياتها مَعي ومَقعَدَها بجانبي، وصوتَها الرقيقَ، وحديثَها العَذْبَ، وصفاءَ عينَيْها، وَرَوْنَقَ وَجهها، وصورةَ قَوْمَتِها وجيئَتِها وذُخوبها وضَحِكِها وبُكائِها ويَقظتِها ومَنامِها، وحُزنَها لِفراقي وسُرورَها بلقائي، فإني كلَّما ذكرتُ ذلكَ شعرتُ كأن قَلبي المدموعَ قدِ استَحالَ إلى أفلاذٍ صغيرةٍ تتطايرُ في أجواء الفضاءِ.

اللهم، إني أعلمُ أن الدنيا ليسَتْ بدار قرار، فلا أمَلَ في البقاءِ فيها، والركونِ إليها، والاستمتاع بلذّة العيش فيها، وأنها الجسرُ الذي يمرُّ به الأحياءُ إلى دارهم الأخرى. وكلُّ ما كنتُ أطمعُ فيه منها أن يكونَ لي كما للناس جَميعًا رفيقٌ يُعينُني على قَطْع تلكَ الشقَّةِ البعيدةِ، ويُهَوِّنُ عَليَّ آلامَ وَحشَتِها وكآبَتِها، فَحَرَمْتَني ذلك الرفيقَ المُعين. فكيفَ أسيرُ، وأين أعيشَ؟

اللهم، إنكَ سَلَبْتَني كلَّ شيءٍ حتى الدموعَ التي يُريحُ بها الباكونَ أنفسَهم ويُطفِئُ بها المحزونُونَ لواعجَ قلوبهم، فأصبَحَ الحزنُ يَغْلي بينَ جَوانِحي غليانَ الماءِ في القِدر المُحْكَمَةِ الغِطاء، فامْنُنْ عليَّ بدمعة واحدةٍ أُطفِئُ بها غَليلي، ولا أحسبُ أنك تَمْنَعنيها، فالدموعُ هيَ الرحمةُ العامةُ التي كتبتَ على نفسِك أن تعالج بها نكباتِ المنكوبينَ، وبؤسَ البائسين.

اللَّهُمَّ، لا ريبةَ في عدلِك، ولا ظُنَّةَ في كَرَمِكَ، ولا اعتراضَ على قضَائكَ وقَدَرَك، ولا سَخْطَ في ابتلائكَ ومِحنَتِكَ. خَرَجَ أمرُ نفسِي من يَدي، وأصبحتُ لا أستطيعُ أن أُبصِرَ ما بينَ يَدَيَّ، فاغفِرْ لي سَقطي وزَللي.

اللهمَّ، إنك مَنَعْتَني حَظِّي منَ الحياة، فلا تَمنَعْني حظِّي منَ الموتِ، فاستَرَدَّ إليكَ عارِيَتَكَ التي أَعَرْتَنيها، فقد عجزتُ عن حَمْلِها، وضُقتُ ذَرْعًا بأمرِها، إنك بعبادِكَ رؤوفٌ رَحيم.

وما أتَمَ كلمتَهُ حتَّى صاحَ صيحةً عُظْمى، ثم سَقَطَ على صفائح القبر؛ فعلمتُ أن الرجُلَ قدِ انفجَرَ، وان الله قدِ استَرَدَّ وديعَتَهُ إليه، واختارَ للرجُلِ ما عندَه. فذُعِرَتْ وارْتَعَدْتُ والْتَفَتُّ حولي فإذا صديقُه واقِفٌ وَرائي يشهدُ المنظرَ الذي أشهَدُ، ويذرفُ من الدموع أضعافَ ما أذرفُ. فدَنَوْنا منهُ مَعًا وحَرَّكناه فإذا هو مَيتٌ، فنقلناهُ إلى المنزلِ، وبتنا حولَ سريره نَقضي حَقَّ صُحبَتِهِ تارةً بالدموع وأُخرى بالإطراقِ والخُشوع، وهنالِكَ قَصَّ عَليَّ ذلكَ الصديقُ قَصَّتَه وكشَفَ لي عن خَبيئَةِ أمرِه، فقال:

إنه قَضَى زمنًا طويلًا يشكُو إليَّ آلامَ نَفسِه التي يُعالجُها من سُوءِ عِشرَةِ زَوجِه وخَشونَةِ طَبعِها، وجفاءِ خُلُقِها، ثم اقترَحَ عَليَّ يَومًا مِنَ الأيام أن أزوِّجَهُ مِن أختي ففعلتُ رحمةً به وإشفاقًا عليه، من حيثُ لا يعلمُ أبوه ولا أحَدٌ من أهلِهِ بذلك. فكانَ يزورُنا في كلِّ شهر مرَّةً أو مرَّتين، وظلَّ على ذلك عدَّة سنين. حتَّى وَعَكَتْ

تلك المسكينةُ وَعْكَةٌ ذهبَتْ بها إلى ربِّها، وتركَتْ لهُ فتاةً في الخامسَةِ مِن عُمرِها فكانَتْ هي عزاءَهُ الوحيدَ عن كلِّ ما فَاتَهُ مِن نَعيمِ الحياةِ وهَنَاءَتِها. وكانَ يختلفُ إليها كما كان يختلفُ إلى أُمِّها، وشُغِفَ بها شَغفًا بلغ به حَدَّ الجنونِ. وكانَ كثيرًا ما يقولُ لي: إنني أشعرُ أن حياتَيْنا أنا وهذه الطفلة حياةٌ واحدةٌ، وأنَّا إما أن نعيشَ مَعًا، أو نموتَ مَعًا. وكأنه أُلْهِمَ بما سيكونُ، فَقَضَى الله أن تمرضَ الفتاةُ مَرْضَةً شَديدةً لم تُمهِلْها أكثرَ مِن خمسةِ أيام، ثم لَحِقَتْ بأمِّها ولما تبلغ الثامنَةَ من عُمرِها، فنعيتُها إليه بكتاب أرسلتُه إليه بالأمس، فجاءَ وجِئْتَ معه، ثم كانَ بعدَ ذلكَ ما قَدَّرَ الله أن يكونَ.

دفنتُ صَديقي بيدي، وأَلْحَدْتُه بجانِب ابنتِه التي قَطَعَ جسرَ الحياةِ الطويلَ في لحظةٍ واحدةٍ شوقًا إليها، وَوَجْدًا عليها، ثم عدتُ إلى بَلدتي صِفرَ الكَفِّ من ذلكَ الإنسانِ الذي كنتُ مَلِئًا منهُ يَدي، والذي كنتُ أُجِلُّهُ وأعظِمهُ حَيًّا ولا أزالُ أبكيه وأذكُرُهُ مَيْتًا، وأتَّخِذُ حياتَهُ الشريفَةَ الحافِلَةَ بمواقفِ الصبر والجَلَدِ، والوفاءِ والكَرَم عبرةً أعتبرُ بها حتى يجمَعَ اللهَ بَيني وبينَه.

كَفَى حُزنًا بموتِكَ ثمَّ إني ... نَفَضْتُ ترابَ قبرِكَ مِن يَدَيَّا

وكانَتَ في حياتِك لي عظاتٌ ... وأنتَ اليومَ أوعَظَ منكَ حَيًّا

الشعر

كتبَ إليَّ كاتبٌ يقول: عَرَفْنَاكَ قبلَ اليوم شاعِرًا ما تكادُ تكتُبُ سَطرًا ثمَّ رأيناكَ بعدَ ذلكَ كاتِبًا ما تكادُ تنظِمُ بيتًا. فلِمَ لم تكتُبْ في عهدِكَ الأوَّلَ، ولِمَ تَنظِمْ في عهدِكِ الثاني؟ كأنما ظنَّ عافاه الله أنني أكتبُ اليومَ بقلم غير قلم الأمس، أو أهيمَ في وادٍ غير ذلكَ الوادي! وهل الشعرُ إلا نثارةٌ! منَ الدرِّ ينظِمُها الشاعرُ إن شاء شعرًا، وينثرُها الكاتبُ إن شاءَ نَثرًا؟ أو نغماتُ الموسيقى يسمَعُها السامعُ مرَّةً من أفواهِ البلابل والحمائِم، وأخرى مِن أوتار العيدانِ والمزاهِر، أو عالَمٌ مِن عوالم الخيالِ، يطيرُ فيه الطائرُ بقادِمَتَيْنِ مِن عَروضٍ وقافيةٍ أو خافِيَتَيْنِ من فَقرٍ وأسجاع.

الكاتبُ الخياليُّ شاعرٌ بلا قافيةٍ ولا بَحْر، وما القافيةُ والبَحْرُ إلا أَلْوانٌ وأصْباغٌ تعرضُ الكلامَ فيما يعرضُ له مِن شُئونِهِ وأطواره التي لا علاقَةَ بينَها وبينَ جوهَرِه وحَقيقَتِهِ. ولَولا أن غريزَةٌ في النفسِ أن يردّد القائلُ ما يقولُ ويتغَنّى بما يُرَدِّدُه ترويحًا عَن نفسِه، وتَطريبًا لعاطِفَتِهِ، ما نَظَمَ ناظمٌ شِعرًا ولا رَوَى عَرُوضِيٌّ بَحرًا.

ما كانَ الرجلُ العربيُّ في مَبدأ عهدِهِ ينظِمُ الشعرَ.. ولا يعرفُ ما قَوافيهِ وأعاريضُه، وما عِلَلُهُ وزِحافاتُه. ولكنَّه سَمِعَ أصواتَ النَّواعير، وحفيفَ الأوراقِ، وخَريرَ المياه، وبُكاءَ الحمائم، فَلَذَّ لهُ صوتُ تلكَ الطبيعةِ المترنِّمَةِ وَلَذَّ لهُ أن يبكي لُبكائِها ويَنشِجَ لنشيجِها، وأن يكونَ صَداها الحاكي لرَنَّاتها ونَغَماتها؛ فإذا هُو ينظِمُ الشعرَ مِن حيثُ لا يفهُم من شُئونِهِ سِوى أنَّه تلكَ النغمةُ الموسيقيَّةُ العَذْبَةُ الخاليةُ، ولا مِن أبحُرِهِ وضُروبِهِ سِوى أنها صُورَةٌ مِن صُوَرِهِ، ولَونٌ مِن أَلْوانِه.

ذلكَ مُنتهَى نَظَرَ العربيِّ إلى الشعر، وذلكَ ما دعاهُ إلى أن يُسَمِّي النبيَّ الذي بَعَثَهُ الله إليه شاعرًا، وهو يعلم أنه ما قَصَدَ في حياتِه قصيدةً ولا رَجَزَ أرجُوزَةً، ولكنَّه سَمِعَ مِن كتاب الله وآياتِه المُفَصَّلاتِ أبلَغ الكلام وأفْصَحَهُ وأعْلَقَهُ بالنفوس وآخَذَهُ بالألباب،

وأمْلَكَهُ للعواطِفِ والمشاعِرِ، وأجْمَعَهُ لصُنُوفِ التَّشبيهاتِ البَديعةِ، والاستعارات الدقيقَةِ، والمجازاتِ الرائعةِ، والكنايات المستطرَفةِ، وأمثالِ تلكَ ممَّا لا يَنطِقُ به الناطِقُ في أكثرَ مناحِيهِ ومنازعِهِ إلا عندَ ذَهابِهِ مَذْهَبَ الخيالِ الشعريِّ، فُشُبِّهِ له فَسَمَّى ما سَمِعَهُ شعرًا وسَمَّى الناطِقَ بِهِ شاعرًا، وما هو بشَاعرٍ ولا ساحِرٍ ولا كاهنٍ ولا مَجنون.

ما كلُّ مَوزونٍ شِعرًا، وما كلُّ ناظم شاعرًا، فالوزنُ مَلَكَةٌ تَعْلَقُ بالنفسِ مِن طُولِ ترديدِ المنظومِ والتغنِّي بهِ مُقَطَّعًا تقطيعًا يوازِنُ تَفاعيلَه.. فهوَ نغمةٌ موسيقيةٌ ولحنٌ مِن ألحانِ الغناءِ، يَتمثَّل في قولِ الملكِ الضِلِّيل.

قفا نبكِ من ذكرَى حبيبٍ ومنزلِ

كما يتمثَّلُ في قولِ الخليل:

فعولن مفاعيلن فعولن مفاعلن

ويَتَراءَى في أوتارِ الحَلْقِ الناطِقِ كما يَتَراءَى في أوتار العُودِ الصامِتِ.

أما الشعرُ فأمرٌ وراءَ الأنغام والأوزانِ، وما النظمُ بالإضافةِ إليهِ إلا كالحُليِّ في جِيدِ الغانيةِ الحسناءِ، أو الوَشْي في ثوب الديباج المُعْلَم. فكما أن الغانيةَ لا يُحزنُها عِطلُ جيدِها، والديباجَ لا يُزرَى بِهِ أنه غيرُ مُعْلَم، كذلك الشعرُ لا يَذْهَبُ بحُسنِهِ ورُوائِهِ أنه غيرُ مَنظومٍ ولا مَوزُونٍ.

ذلك هو الفرقُ بينَ الشعرِ والنَّظم، وها أنتَ ترى ألَّا صِلَةَ بينَهما غيرُ تلكَ الصِّلَةِ الاصطِلاحِيَّةِ التي لا مَنْشَأَ لها سِوى ما اعتادَهُ الناسُ مِن أنهم يَنظِمُونَ ما يَشعُرونَ بهِ. وتلك الصِّلَةُ هي التي خلطَتْ بينَهما وعَمَّتْ على كثيرٍ منَ الناسِ أمرَهُما، وهيَ التي أدخَلَتِ النظَّامينَ في عِدادِ الشعراءِ وألْقَتْ عليهم جَميعًا رِداءً واحِدًا لا يَستطيعُ معهُ التمييزُ بينَهما إلا القليلُ من الناقدين. فأصبَحْنا نقرأُ لبعضِ المعاصِرينَ القصيدةَ ذاتَ المائةِ بيتٍ فَلا نجدُ بَيتًا، ونتَصَفَّحُ الديوانَ ذَا المائةِ قصيدةٍ فلا نعثُرُ بقصيدة، وأصبَحْنا لا نكادُ نجدُ بينَنا قارئًا غيرَ شاعِرٍ لأنه لا يوجَدُ بينَ الناسِ مَنْ يُعجِزُهُ تصَوُّرُ تلكَ النَّغمَةِ العروضِيَّةِ وتَصويرُها حتى العامَّةِ والأميين.

ولقد كتبَ الكاتبونَ في تَعريفِ الشعرِ وأمعَنُوا إمعانًا بَعُدَ به عن مكانِهِ وَضَلَّ به عن قَصْدِهِ. وعندي أنَّ أفضلَ تعريفٍ لهُ أنه «تصويرٌ ناطِقٌ»؛ لأن قاعدةَ الشعرِ المُطَّرِدَةَ هي التأثيرُ، وميزانَ جُودَتِهِ ما يَترُكُ في النفسِ مِن أثَرَ. وسرُّ ذلكَ أن الشاعرَ يَتَمَكَّنُ ببراعَةِ

أُسلُوبِه، وَقُوّةِ خيالِه، ودِقَّةِ مَسلَكِهِ، وسَعَةِ حِيلَتِهِ، مَن رَفْعِ ذلكَ الستار المسبَل بينَه وبينَ السامع، فيُريه نفسَه على حقيقتها حتى يكادَ يلمسُها ببنانِه، فيصبحَ شريكَه في حِسِّه ووجدانِه، يَبكي لبُكائِه، ويَضحكُ لضَحكِهِ، ويغضبُ لغَضَبِهِ، ويطرَبُ لطَرَبِهِ، ويطيرُ معهُ في ذلكَ الفضاءِ الواسع منَ الخيالِ، فيَرَى الطبيعةَ بأرضِها وسَمائِها، وشُموسِها وأقمارِها، ورياضِها وأزهارِها، وسُهولِها وجبالِها، وصَادِحِها وبَاغِمِها، وناطِقِها وصامِتِها، من حيثُ لا ينقلُ إلى ذلكَ قَدَمًا، أو يُلاقي في سَبيله نَصَبًا، فإن سمعَ قولَ القائلِ:

وَقَانَا لفحَةَ الرَّمضَاءِ وادٍ ... سَقَاهُ مُضاعِفُ الغيثِ العَميم
نَزَلْنَا دَوْحَهُ فَحَنَا عَلينا ... حُنُوَّ المُرضِعَاتِ عَلى الفَطيم
وَأَرْشَفَنَا عَلى ظَمإٍ زُلالًا ... أَلَذَّ مِنَ المُدامَةِ للنّديم
يَصُدُّ الشمسَ أَنَّى واجهَتْنَا ... فَيَحْجُبُها، ويأذنُ للنسيم
يَرُوعُ حَصَاهُ حاليَةَ العَذَارى ... فتلمسُ جانِبَ العقدَ النظيمِ

خُيِّلَ إلي أنه يخطُرُ في ذلكَ الروضَ البَليل بين أنوارِهِ وأزهارِه، خَطَرانَ النسيم بين ظلالِهِ وأشجارِه، وأنه يَرَى بعَينه أولئكَ العَذارَى السانحاتِ، وَقَدَ رَاعَهُنَّ منظرُ الحصباءِ اللامع فوقَ تلكَ الديباجَةِ الخَضراءِ، فَتَوَلَّهْنَّ وفَزَعْنَ إلى جَوانِبِ عقُودِهِنَّ يَلمَسْنَها بأطرافِ بنانِهن، يحسَبْنَ أنْ قَدَ وَهَتْ فانتَثَرتْ جَواهِرُها على بِساطِ ذلكَ الروضِ الأريض.

وإن سَمعَ قولَ الآخَر:

ودارِ نضامي عَطَّلُوها وأَدْلَجوا ... بها آثَرٌ مِنهُم جديدٌ وجارسُ
حَبَسَتُ بها صَحْبي وَجَمَعْتُ شَمْلَهم ... وإني على أمثالِ تلكَ لَحَابسُ
أَقَمْنا بها يَوْمًا ويَومًا وثالثًا ... ويَومًا له يَوْمُ الترحُّلِ خامِسُ
تُدار عَلينا الراحُ في عَسْجَدِيَّةٍ ... حَبَتْها بأنواعِ التصاويرِ فَارِسُ
قرارتُها كِسْرَى وفي جَنَبَاتِها ... مَهًا تَدَّرِيها بالقِسيء الفَوَارِسُ

obeikandi.com

فللراحِ مَـا زَرَّتْ عليه جُيُوبُها وللماءِ ما دارَتْ عليه القَلانِسُ

تمثَّل له كأنَّه مَرَّ في ضاحيةٍ مِن ضَواحي بَغدادَ بدار مُوحِشَةٍ فسمعَ فيها أصواتَ قَومْ يَلهُونَ ويَقْصِفُونَ ويَقرَعُونَ الكئوسَ بأمثالِها، فاقتَرَبَ منها وأطلَّ مِن خَصاص بابها، فرأى أولئكَ القومَ مُجتمعينَ حول دَنٍّ منَ الخمر قَد تكامَلَتْ سِنُّهُ، وشَيَّبَ الدهرُ فَوْدَيْهِ فَفَصَدُوهُ فسالَ دَمُهُ الأحمرُ في كئوس منَ الذهب مَنقُوشَةٍ نُقُوشًا فارسِيَّةً قد صَوَّرَتْ في قرارها صورةُ كِسرى فارسَ، ودارَت في جَوانبها صُوَرُ فُرسانِهِ مُتَنكِبِّي قِسِيَّهم يطاردونَ بَقَرَ الوحشَ الهاربَ مِن بين أيديهم. وَرآهم يملأوْنَ الكئوسَ خمرًا إلى ما يوازي أعناقَ أولئكَ الفُرسانِ، ثم يَمزجُونها بالماءِ إلى ما يُغَطِّي رُءوسَهم، فَتَسَلَّلَ مِن مكانِهِ مُغتَبِطًا بمُجتَمَعِهم، وبما هُيِّئ لهُم مِنَ الهناءَةِ والنَّعمةِ فيه. ثم مَرَّ بتلكَ الدار بعدَ أيام فَرآها مُقفِرَةً مِن أهلِها لا تُسمَعُ بها نَغمَةٌ ولا نَأْمَةٌ، فدَخَلها فلَم يَرَ فيها إلا أعوادَ ريحانٍ قَد يَبِسَ أكثَرُها.. مُبَعْثَرَةٌ في جَوانبها.. وخُطوطًا كانت رَسمَتْها زقاقُ الخمر فوقَ تُربتِها في غُدُوِّها ورَواحِها بينَ أولئكَ النُّدَماء، فانصرفَ حَزينًا مُكتَئِبًا يسمَعُ صَفيرَ الريح الضاربَةِ في جوانِبها فيردِّد قولَ القائل:

رُبَّ ركبٍ قَد أناخُوا حَوْلَنا يَشرَبُون الخمرَ بالماءِ الزُّلالِ
عَصَفَ الدهرُ بهم فانقَرَضُوا وكذلكَ الدهرُ حالًا بَعدَ حالِ

وإن سَمع قول الآخر:

ويوم كَتَنُّورِ الإماءِ سَجَرْنَه وأَوْقَدْنَ فيهِ الجَزْلَ حتَّى تَضَرَّمَا
رمَيتُ بنفسِي في أجيج سُمُومِهِ وبالعِيسِ حتَّى بَضَّ مِنخَرُها دَمَا

شَعَرَ كأنَّ لهيبَ تلكَ الهاجرَةِ يهبُّ في وَجهِهِ فيشيحُ عنهُ قِرارًا من لَفْحَاتِه، ويكادُ يَبكي رحمةً بذلكَ الشَّبَحِ المَصْهُورِ الذي مَلَكَتْ عليه تلكَ التنوفَةُ الحمراءُ سَبيلَهُ، وحالَت بينَه وبينَ نفسِهن فلا هُو بصابر إن رامَ صَبرًا، ولا بناجٍ إن أرادَ نَجاةً.

وإن سمعَ قولَ الآخرَ:

وارْحَمتا للغريبِ في البَلدِ النا زِحِ، مَاذا بنفسِه صَنَعَا؟
فَارَقَ أحبابَه فما انتَفَعُوا بالعيشِ مِن بعدِهِ ولا انتَفَعَا

هَمَلَت عَيناهُ حُزنًا عَلى ذلكَ الغريب الحائر، وتمنَّى أن لَو أَلْتقَى بهِ في بَعض مَذاهِبِهِ فَعَطَفَ عليه وآنسَ وحَشَتَه. ثم أَخَذَ بيدِه فأنزَلَهُ مِن بيتِهِ مَنْزِلًا كَريمًا وأبدَلَهُ أهلًا بأهلٍ، وجيرانًا بجيران.

وإن سمعَ قول الآخرَ:

وإن الـذي بَيني وبينَ بني أبي ... وبينَ بَني عَمِّي لمُخْتَلِفٌ جِدًا
فإن أكَلُوا لَحمي وَفَرْتُ لُحُومَهُم ... وإن هَدَمُوا مَجدي بَنَيْتُ لهم مَجدًا
وإن ضَيَّعُوا غَيبي حَفِظْتُ غُيُوبَهم ... وإن هُم هَوَوْا غَيِّي هَوَيْتُ لهم رَشْدًا
وإن زَجِـرُوا طَيرًا بنَحْسٍ تَمُرُّ بي ... زَجَـرْتُ لهُم طَيرًا يمرُّ بهِم سَعْدَا
ولا أحمِلُ الحِقْدَ القديمَ عَليهُمُ ... وليسَ رئيسُ القوم مِنْ يحمِلُ الحِقْدَا
لهُم جُلُّ مَالي إن تتَابَعَ لي غِنًى ... وإن قَـلَّ مالي لَم أُكَلِّفْهُمْ رِفْـدَا
وإني لَعَبْدُ الضيفِ ما دامَ ثَاوِيًا ... وما شيمَةٌ لي غيرُها تُشبِهُ العَبْدَا

أكبَرَ تلكَ المكرمَةَ وأجَلَّها، ونَظَرَ إليها وهي في عَلياءِ سمائِها، نَظَرَ الفلكيِّ إلى كَوكَبِهِ الساري، وشَعَرَ كأنّ نورَها قد لمعَ فامتَدَّ شُعاعُهُ إلى نفسِه فأضَاءَها.

ولا غَرْوَ أن يبلغَ الشعرُ مِن نفسِهِ هذا المبلغَ، فطالما كانَ للشعْرِ السُّلطان الأكبرُ على النفوس العَظيمةِ، فقد نَكَبَ الرشيدُ البرامِكةَ عندَما دَسَّ لهُ أعداؤهم ذلك المُغنِّي الذي غَنَّاهُ هذا الصوتَ:

لـيـتَ هِـنـدًا انـجـزَتْـنـا مَـا تَـعِـدْ ... وَشَـفَـتَ أنفسَنا مِـمَّـا تَـجِـدْ
واسـتَـبَـدَّتْ مَـرَّةً واحِـدَةً ... إنـمـا الـعـاجِـزُ مَـنْ لا يَسْتَبِدْ

وأمرَ السفَّاح بقتل وُجوهِ بني أمية بعدَما قرَّبَهم وأدناهُم عندَما دَخَل عليه سيفٌ مولاه وأغراهُ بهم في قوله:

لا تَقيلَنَّ عبدَ شمسٍ عِـثـارًا ... واقطَعَنْ كـلَّ رقلَةٍ وغِـراسِ[(١)]
أنـزَلُـوهـا بحيثُ أنـزلَـهـا الله ... بـدارِ الـهـوانِ والإتـعـاسِ
خـوفُـهـم أظـهَـرَ الـتـودُّدَ فيهم ... وبَـهـم منكُم كـحـزِّ المواسي

(١) الرقلة: النخلة التي تفوت اليد.

أقصِهِمْ أيها الخليفةُ واحسُمْ عنكَ بالسيفِ شأفَةَ الأَرجاسِ
فلقَد سَاءني وساء سِوائي قُربُهم من نمارِقَ وَكَراسي

بَلَ عَطفَ عُمرَ بن الخطَّاب رضي الله عنه عَلى الحُطَيْئَةِ وأطلَقَهُ مِن سجنِه حين سمعَهُ يقولُ:

ماذا تقولُ لأفراخ بذي مَرَخ حُمرِ الحواصِلِ لا ماءٌ ولا شَجَرُ
ألقيتُ كاسِبَهُم في قعرِ مُظلِمَةٍ فاغفِرْ عليكَ سلامُ الله يا عُمرُ

بل سمعَ النبيّ ﷺ قولَ قتيلةَ بنت الحرثِ تعاتِبُه في قَتْلِهِ أخاها النضر بنِ الحرثِ على ما بينَه وبينَه مِن صِلَةِ القرابة:

أمحمَّدُ يا خيرَ ضِنْءٍ كَريمةٍ في قومِها والفَحْلُ فَحْلٌ مُعرَقُ
ما كانَ ضَرَّكَ لو مَنَنْتَ، وربَّما مَنَّ الفتى، وهو المغيظُ المحنِقُ
والنضرُ أقربُ مَنْ لأصَبْتَ وأحقُّهم، إن كانَ عتقٌ يُعتَقُ
ظلَّت سيوفُ بَني أبيه تنوشُه، لله أرحامٌ هنالَ لَتَشَقَقُ

فبَكى وقال - وهو من لا ظُنَّةَ في عَدْلِه، ولا رَيبَةَ في حُكمِهَ: «لو سمعتُها قبلَ اليومِ ما قتَلْتُه».

لا مؤثرَ في نفس الإنسانِ مثلُ الشعر، وما خَضَعَ الإنسانُ لشيءٍ في جميع أدوار حياتِه إلا للشِّعر. وللشِّعر الفَضْلُ الأولُ في نبوغ الإنسانِ وارتقائِه وبلوغِه هذا المبلغَ الباهِرَ مِنَ التفوُّقِ والكمال.

ولقَد أحبَّ الإنسانُ الشعرَ ناطِقًا وصامِتًا؛ أما الناطِقُ فقد عرفتَه، وأما الصامِتُ، فالتماثيلُ التي يراد بنَصبها تمثيلَ حَياةِ عُظماءِ الرجال، شِعرٌ؛ وهذه النغماتُ الموسيقيةُ التي تُصَوِّرُ خواطِرَ القلوب ووجداناتها فتهيجُ عاطفَةَ الحبِّ في نفس العاشِق، وعاطِفَةَ الحماسَةِ في نفس الجنديِّ شِعرٌ وهَديرُ الأمواج شعرٌ؛ لأنه يمثِّلُ عَظَمَةَ الجبارين؛ وظلامَ الليل شعرٌ؛ لأنه يُطلِقُ دموعَ الباكين؛ وحَفيفُ الأوراق شعر؛ لأنه يمثِّلُ تناجي العشاق؛ وبكاءُ الحمائم شعرٌ؛ لأنه يمثِّل فَجيعَةَ البَين ولوْعَةَ الفِراق. تلك النغماتُ الشعريةُ التي نسمعَها مَن فَم الإنسانِ مَرَّةً، وفَم الطبيعةِ أخرى، هيَ التي زَخرَفَتْ لنا هذهِ الحياةَ، وألْبَستْها ذلكَ الثوبَ الناعِمَ الأبيضَ حتى أحببناها، وَوَلَعْنا بها، وحَرصْنا

عَليها، وأعددْنَا العُدَّةَ للبقاءِ فيها.. والسكُونِ إليها. فَكَتَبْنا وَدَوَّنّا وأَلَّفْنا واخْتَرَعْنَا، وتعلَّمنا، وبَنَيْنَا فشيَّدْنا، وغَرَسْنا فَجَنيْنا، وعمِلنا فربحْنا، واجتَهَدْنا فأثْرينا، وأَمَّلْنا فسَعَينا، فَبَلَغْنا، فكأن الشعرَ سِرُّ هذهِ الحياة؛ وعِلَّةُ هذا الوجودِ، لا تطيرُ إلينا الحقائقُ إلا على جَناحِهِ، ولا يطيبُ لنا العيشُ إلا في جوارِه، فَلْنُمَجِّدِ الشعراءَ كلَّ التمجيدِ، ولْنكبرْهُم كلَّ الإكبار، فهُم مشارقُ شموس الحكمةِ، ومَطالعُ كواكب الفَضل، وَهُمُ الينابيعُ الصافِيَةُ التي يترقرقُ ماؤها، ثم يتسرَّبُ إلى الأفئدَةِ فيملؤها سَعادَةً وهَناءَةً.

***

الشهيدتان

لم تَغتمِضْ عينايَ ليلةَ أمس، لأنني بتُّ أسمعُ في الدار الملاصِقَة لبيتي أنينَ امرأةٍ مُتوجِّعةٍ، تعالجُ هَمًّا ثقيلًا، وتشكُو مَرَضًا أليمًا، ويُخيَّلُ إليَّ أني لا أسمعُ بجانبها مُعَلِّلًا يُعَلِّلُها، ولا جَليسًا يتوجَّعُ لها فلَمَّا أصبَحَ الصباحُ ذهبتُ إليها، فإذا قاعَةٌ صغيرةٌ مُظلِمَةٌ لا تَشتَمِل على أكثرَ مِن سرير بالٍ يَتراءَى فوقَه شبحٌ مائِلٌ من أشباح المَوْتى. فترفَّقْتُ في مِشيتي حتى دَنَوْتُ منها. وكأنَّها شَعَرَتْ بمكاني فحرَّكَت شَفتيها تطلبُ جُرْعَة ماءٍ، فأسعَفْتُها بها.. فاستفاقَت قليلًا، فَوَقَفْتُ بجانبِها أسائِلُها عَن خَطْبِها، فأنشأت تقصُّ عَليَّ قِصَّتها بصَوْتٍ خافِتٍ مُتَقَطِّعٍ كنتُ كأني أنتزعُه مِن بين ماضِغَيها انتزاعًا وتقول:

زوَّجَني أبي منذُ سنواتٍ مِن رجُل مزواجٍ مِطلاقٍ، لا يكادُ يصبرُ على امرأةٍ واحدة عامًا واحِدًا، ولو كانَ للفتاةِ رأيٌ في نفسِها من دون رأي أوليائِها لعَرَفْتُ كيفَ أُحسِنُ الاختيارَ لنفسي، بل لَو لَم يكُن في الأمر إلا أن أتبَتَّلَ كما تَتَبَتَّلُ الراهباتُ، أو أتزوَّجَ زواجًا ينتَهي بي إلى هذا المصير، لكانَ لي في الرهبانيةِ رأيٌ غيرَ ما يراهُ النساءُ جَميعًا. ولكنّني عجزتُ فأذعنتُ، وحُمِلْتُ إليه فاستقبَلَني بأحسَنَ ما يَستقبلُ بِهِ الزوجُ الكريمُ أحظَى نِسائِه لدَيْه، وأكرَمَهُنَّ عليه. فكانَ يُريبُني من ذلكَ ما يريبُ الفريسةَ مِن ابتِسامةِ الأسدِ، وكنتُ أنتظرُ يومَ كما ينتظرُ المجرمُ يومَ القِصَاص.

فما أفقتُ من صرعة النفاس حتى علمتُ أنه خَطَبَ فتزوَّجَ فبَنَى، وأنني أصبحتُ في المنزل وَحيدَةً منقطِعَةً لا مُؤنِسَ لي إلا طِفلتي الصغيرةُ فجزعتُ عندَ الصدمةِ الأولى، ثم نزلتُ عَلى حُكم القَضَاءِ الذي لا أملِكُ رَدَّهُ ولا أعرفُ وَجْهَ الحِيلةِ فيه، واحتملتُ طِفلَتي إلى بيتِ أبي فوجدْتُه مَريضًا مُشرِفًا، فَبَكَى رحمةً بي، واستغْفَرَني مِن ذنبِهِ إليَّ فغفرتُه لهُ.

وما هيَ إلا أيامٌ قلائلُ حتَّى مَضَى لسبيلهِ مَفجُوعًا برُزئي الذي نَزَلَ بي، فعلمتُ أن الدهرَ قَد سَجَّلَ عَليَّ في جريدةِ الشقاءِ أيامًا طِوالًا لا أعلمُ متى يكونُ انقضاؤها، ولا أدري ما اللهُ صانعٌ فيها. فظَلْتُ أستكْتِبُ الناسَ الكُتُبَ إلى ذلك الرجُل أسألهُ القُوتَ، لأستَعينَ بِهِ على تربيَةِ طِفلتِه، أو التَّسريحَ، عَسَى أن يُبدِلَني الله خَيرًا منهُ زكاةً وأقربَ رَحمًا، فَضَنَّ بالأولى واستعظَمَ الأُخرى. فلَم أرَ له سَبيلًا غيرَ سبيل العمل، فلبثتُ بضعَ سنينَ ساهِرة الليلَ، قائمةَ النهارَ، أستَقْطِرُ الرزقَ من سَمِّ الخَيَّاطِ، فلا أبلغُ منه الكَفافَ.. حتى نالَ مني الجُهدُ.. فذهبتُ بمُعضِلَةٍ من الأدواءِ خرجتُ لها عَن كلِّ ما أملِكُ مِن حيلَةٍ وذَخيرَةٍ.. وكِسوَةٍ وآنِيَةٍ، وأصبحتُ لا أملِكُ دِرهمًا أبتاعُ به قارورة الدواءِ، ولا أجدُ مِزَقَةً أُمسِكُ بها قوائِمَ هذا السَّريرِ المُتداعي.

ولم يَقْنَع الدهرُ منِّي بذلكَ حتى رَماني بالدَّاهِيَةِ الدَّهياءِ التي يَصْغُرُ بجانبها كلُّ عظِيم من خُطُوبِهِ ونكباتِه. فقد كتبتُ إلى ذلكَ الرجُل منذُ شهر أصفُ له حالتي وأُفضِي إليه بذاتِ نفسِي وأسألهُ أن يَمُدَّني وابنتَي بقليل منَ القُوتِ نُمسكُ به تلكَ الصُّبابَةَ التي أبقَتْها خطوبُ الأيام وأرزاؤُها مِن أعظُمِنا وجُلودِنا. ولبثتُ أترَقَّبُ رَجْعَ الكتاب كما يَترَقَّبُ الغريقُ سوادَ السفينة.

فإني لَجالِسَةٌ أيام عَلى هَذا المقعد أَعُدُّ على الدهر ذُنوبَهُ إليَّ وسَيِّئاته عِندي، فلا أفرَغُ مِن عَقْدٍ إلا إلى عَقدٍ، ولا أنتهي إلا إلى حيثُ أبتدئُ، وقد أجلستُ طِفلَتي بينَ يديَّ أتطلَّعُ إلى وَجهها الساطع في ظُلُماتِ تلكَ الخُطُوب كما يَتَطَلَّعُ المَلَّاحُ في ظُلُمَاتِ بحره إلى نَجمَةِ القُطب.. إذ هَجَم عليَّ الظالمُ الجبارُ فاختَطَفَ ابنتَي مِن يديَّ مِن حيثُ لا أملِكُ دَفعًا لما نابَني، ولا أجدُ ما أذودُ به عَن نفسِي، إلا زفراتٍ لا يسمَعها سامعٌ، وعبراتٍ لا يرحَمُها راحِم.

فشعرتُ كأن سَهْمَ الدهر الذي كان يروغ قبل اليوم هاهنا وهنا.. قد أصابَ في هذه المرَّة المَقْتَلَ، فَبِتُّ ليلَتي كما يجبُ أن تَبيتَ امرأةٌ بائِسَةٌ مُعدَمَةٌ قد فَجَعها الدهرُ بكلِّ

ما تملكُ يدُها وبكلِّ ما تتعلَّقُ به آمالُها، فأصبحَتْ لا تجدُ أمامهَا يَدًا تنبسِطُ إليها، ولا عَينًا تَبكي عَليها.

وَقد مَرَّ بي على ذلك نَيِّفٌ وعِشرونَ ليلةً لا يَرقأُ لي دمعٌ ولا يهدأُ بي مَضجَعٌ، حتَّى إذا اختلستُ من يَدِ الظلام نَعْسَةً تراءَتَ لي تلكَ الفتاةُ في نَومْها كأنَّها صارخَةٌ باكِيَةٌ تَهتِفُ باسمي، وكأن أباها يُوسِعُها ضَربًا وتَعذيبًا، وكأنني أُحاوِلُ استِنفاذَها ممَّا هي فيهِ فلا أجدُ إليها سَبيلًا. وهأنذا أَشعُرُ أن سَحَابَةَ الموتِ تَغشى على بَصَري، وأني مفارِقَةٌ هذا العالَم قبلَ أن أُلقِي على ابنتَي نظرةً أتزَوَّدُ بها مِنها قبلَ أن أُفارقَ هذه الدارَ.

وما وصلَتْ من حديثِها إلى هذا الحدِّ حتى جَرَضَتْ بريقِها، وتتابَعَتْ أنفاسُها، وشَطَرَ بَصَرُها، فجثوتُ عندَ سريرها أدعُو لها الله أنْ يُعينَها على أمرِها، ويمدَّها برحمتِه وإحسانِه، فإني لَكَذَلكَ، وقدِ استَغرقتُ في هذا المشهدِ الذي بينَ يديَّ استِغراقَ العابدِ في هَيكلِه، إذ رأيتُ من خِلالِ الدموعِ التي كانت تَزدحِمُ في عَيْنَيَّ شَبحًا منتَصِبًا عندَ بابِ الغُرفةِ فتأمَّلْتُه فإذا رجُلٌ يُمسِكُ بيدِه فتاةً صَغيرةً. فتَقَدَّمْتُ نحوَه فرأيتُه خاشِعًا مُستكينًا ينظرُ إلى فتاته نظراتِ الوَجْدِ والرَّحْمة، والفتاةُ كأنها خِرقَةٌ باليةٌ لا يتحرَّكَ بها عُضوٌ، ولا ينبضُ بها عِرقٌ. فقلت: مَنْ أنتَ، وماذا تريد؟ قال: أنا زوجُ هذه المرأةِ ووالدُ هذه الفتاة. قلتُ: لعلَّكَ جئتَ تَستغفرُها مِن ذنبكَ إليها في التفريق بينَها وبينَ ابنتِها؟ قال: يا سيِّدي، ما زالتِ الفتاةُ مُذ فارَقَتْ أُمَّها تبكي عَليها بُكاءً مُرًّا، وتهتِفُ باسمِها في يقظَتِها ومَنامِها، حتى سَقَطَتْ مريضةً لا ينفعُها طِبٌّ، ولا ينجَعُ فيها دواءٌ، فلما رأيتُ أن الأمرَ قدَ وَصَلَ بها إلى هَذا الحدِّ جئتُ بها إلى أُمِّها أرجو أن تَجدَ بينَ ذِراعَيْها شفاءً من دائِها. قلتُ: ذلكَ موكولٌ إلى القضاءِ، ولا يَعلَمُ الغيبُ إلا الله. ثم تقدَّمتُ نحوَ الفتاةِ فرأيتُها تجودُ بنفسِها، فاحتَمَلْتُها برفق حتَّى وَضَعْتُها بين ذِراعَيْ أُمِّها. فما هُو إلا أن هَتَفَتِ الفتاةُ بأمِّها، والأُمُّ بفَتاتها، حتى فاضَتْ نفسَاهُما مَعًا، كأنما كانتا مِن الرَّدي على مِيعادٍ!!

الآن وَقد عُدتُ من دفن تَينكَ الشهيدتَيْن، وجلستُ لكتابةِ هذه السطور، أشعرُ أنَّ نفسِي تسيلُ من بين جَنْبَيَّ حُزنًا على تلكَ المرأةِ المسكينةِ، لا بَل حُزنًا على جميع البائساتِ من النساءِ اللواتي يقتُلُهُنَّ الرجالُ كلَّ يوم صَبرًا بسيفِ الطلاقِ الماضي، من حيثُ لا يَجدْنَ رَاحمًا يَرحَمُهُنَّ، ولا ثائرًا يثأرُ لهنَّ.

الدعاء

وهي خلاصةُ قصيدة لفكتور هيجو:

قُومي، يا بُنَيَّةُ، إلى الصَّلاةِ، فقد نَزَلَ ستارُ الليل، ودبَّ الشَّفَقُ الأحمرُ في حَاشِيَةِ الأفق، وأطَلَّتْ عُيُونَ الكواكِب مِن فُروج السُّحُب، وأجْرَى البَدْرُ المنيرُ ليقَتَهُ الفضيَّةَ البيضاءَ عَلى صَفَحَةِ النهر، ومَسَحَتْ أيدي النسائِم المبتلَّةُ بندَى الليلِ عَن أوراقِ الأشجار، غبارَ النهارِ.

قُومي، يا بُنَيَّةُ، إلى الصَّلاة. فقد ماتَ النهار، وماتت بموتِه الآلامُ والأحزانُ والأحقادُ والأضغان والمظالمُ والمآثمُ، ولم يبقَ من تلكَ الأعاصيرِ والزَّوابعِ ما يعترضُ وَفْدَ الدُّعاءِ في طريقهِ إلى أبوابِ السَّمَاءِ.

قُومي، يا بُنَيَّةُ إلى الصَّلاة، فقد أَوَى الناسُ إلى منازلِهم، والطيورُ إلى وُكُناتها، والوحوشُ إلى أَوْجِرَتها، وأخذَتِ الطبيعةُ مَكانَها من مَرْقَدِها، ولم يَبْقَ من أصواتها إلا أنينُ الراحةِ المتمثِّل في جَعْجَعَةِ هذهِ المَرْكَبَةِ المُقْبِلَةِ، وجُؤارُ هذه السائمةِ العائِدَةِ من حُقولِها، ودَمْدَمَةُ تلكَ الرياحِ الضاربَةِ في ذوائِبِ الأشجار، وأعالي الأبراج.

قُومي، يا بنيةُ إلى الصَّلاةِ، فقد جاءَتِ الساعةُ التي يجثُو فيها الأطفالُ حولَ أسِرَّتهم حُفَاةَ الأقدام عُراةَ الرءُوس، شواخِصَ الأبصار، يَطلبونَ الراحةَ مِنَ اللهِ تعالى لآبائِهم وأُمَّهاتهم وللناس أجمعينَ، فَتَرِنُّ أصواتُهم في عَلياءِ السماءِ رَنينَ نغماتِ الموسيقَى في أجوازِ الفضاء، فيردِّدُها الملائكةُ طائرينَ بها إلى عَرش الرحمن. فإذا فَرَغُوا مِن دُعائِهم وَقَضَوْا حَقَّ الله عِندَهم وحَقَّهُم عندَ أنفسِهم، ذَهَبُوا إلى مَضاجِعِهم وناموُا نومًا هادئًا مُطمَئنًّا تتطايرُ فيه الأحلامُ الجميلةُ حولَ أفواهِهم الباسِمَةِ، كما تَتَطايرُ أسرابُ النَّحلِ حولَ أحواضِ الأزهار.

قومي، يا بُنَيَّةُ، إلى الصَّلاة... واطلُبي الرحمةَ لتلكَ التي التَقَطَتْ ذَرَّتِكِ الأُولى مِن عالِمَها، ثم اتَّخذَتْ لكِ من حَنايا ضلوعِها سَريرًا قبلَ سَريرِك ومِن أحشائِها مَهَادًا قبلَ مَهادِك، والتي قَدَّمَ لها الدهرُ كأسَيْ شَقَائِهِ ونَعيمِهِ فَشَربَتِ الأُولى وآثَرَتْكِ بالأُخرى.

أُطلُبي لها الرحمةَ فإنها كانَتْ طَيِّبَةَ القلب، طاهرةَ النفس، تحبُّ حتَّى مَنْ لا يحبُّها وترحَمُ حتَّى من لا يَرحَمُها، وتبتسِمُ ابتسامَةً عَذْبَةً صافيةً لا يمازجُها ذلكَ الرَّيْبُ الذي يمازج ابتساماتِ النساءِ، وتَمُدُّ يدَها إلى اجتناءِ كل ثمرةٍ إلا ثمرةَ الشجرةِ المَنْهِيِّ عَنها. وكانت تقفُ أمام مَسرح الحياةِ الحافِل بالزخَارفِ والتهاويل وقفةَ المُتَمَهِّل الذي يَتَّهِمُ سَمْعَهُ وبَصَرَهُ، وتنظرُ إليه نظرةَ الحكيم العاقل الذي يَعلَمُ أنَّ السعادةَ الكاذِبَةَ أَمَرُّ مَذاقًا في الأفواهِ منَ الشقاءِ الصادِقِ، وأنَّ الذينَ يَضحكُونَ سُرورًا بهذهِ الصُّوَرِ الخاليةِ إنما يبكُونَ مِن حيثُ لا يَشْعُرونَ، وأن الجالسينَ حولَ مائدَةِ الشهواتِ واللذائذِ إنما يُقامِرُونَ بأنفُسِهم ولابُدَّ أنهم خاسِرُونَ، فتُحَوِّلُ بَصَرَها، وتُشيحُ بَوجهِها، وتعودُ أدراجَها بقلبٍ غيرِ مَخْدَوعٍ، وفؤادٍ غيرِ مَصدُوعٍ.

أُذكري، يا بُنَيَّةُ أن تطلُبي الرحمةَ لأبيكِ تَطلُبينَها لأمِّكِ، فهو أحوَجُ إليها منها، ولأنَّ الخطايا قَدْ أثقلَتْ ظهرَهُ فأصبَحَ لا يَستطيعُ أن يرفَعَ رأسَه إلى السماءِ، وَغَلَّتْ يدُه، فلا يستطيعُ أن يَمُدَّها إلى الله بالدُّعاءَ.

إنني أشعرُ، يا بُنَيَّتي، حينما أسمعُ نشيدَ دعائِكِ أنني أسمَعُ صوتَ انقسام القيودِ عن قَدَمَيَّ، وأن تلكَ السحابَةَ السوداءَ التي تَغْشَى على عَينيَّ تنقشعُ عَنها قليلًا قليلًا وكأنَّ جَناحِي المهيضَ قد نَبَتَ له ريشٌ ناعمٌ جميلٌ أحاوِلُ أن أطيرَ بهِ في أعالي السماءِ.

أُطلبي الرحمةَ للآباءِ العائدينَ إلى منازلهم تحتَ جَنح الظلام بدُموعٍ مُنْهَلَّةٍ، وقلوبٍ واجمةٍ، بعدَ أن سَايَروا الشمسَ مِن مَشرِقِها إلى مَغربها فلم يجدُوا ما يمسَحُون به دموعَ أبنائِهم الذين يَنتظِرُونَهم في منازِلِهم.

أُطلبي الرحمةَ للأمَّهاتِ الجالساتِ حولَ أَسرَّةِ أبنائِهن المرضَى وَقَدْ رَجفَتْ قُلُوبُهُنَّ، وحارَت أبصارُهُنَّ مخافَة أن يَذُقْنَ مرارةَ الثكلِ والثكلُ كثيرٌ على قلوب الأُمَّهاتِ. أطلبي الرحمةَ للبخيل الذي يُجيعَ بطنَه ويُشبعُ صُندوقَه، والأحمق الذي يبتسِمُ للمعانِ الحرير في صَدْرِه، والذهب في أصابِعه، والملكِ الذي يُشعِلَ نارَ الحربِ في أُمَّتِه؛ ليُطفِئَ نارَ غَضَبِه، والزوج الذي لا يحاسِبُ نفسَه على ليلةٍ سُوءٍ يقضيها خارجَ بيتِه، ويحاسِبُ زوجَهُ على ابتِسامَةٍ تبسمُها لرجُل غيره، وسائِر البائسينَ الذين لا يشعرونَ ببُؤسِهم، والأشقياءِ الذين يظنُّونَ أنهم سُعداء.

اطلبي الرحمةَ لأولئكَ الذين عَمَّروا الأرضَ وبَنَوْا دُورَها، وشَادُوا قُصورَها وزَخرفُوا سُهولَها وجبالَها، وأغوارَها، وأنجادَها، فجازَتْهُم سُوءًا بما عَمِلُوا، وابتَلَعَتْهُم في أعماقِ جَوْفِها، فأصبَحُوا في تلكَ الحُفرَةِ المُظلمةِ الموحِشَةِ التي تختلطُ فيها الرءوسُ بالأقدام، والنعالُ بالتيجانِ، والتي يَنطوي فيها كلُّ قديم تحتَ كلِّ حديثٍ، انطواءَ اللُّجَّةِ تحتَ اللُّجَةِ في البحر المحيطِ، يَتألَّمونَ ويَنطِقُون، ولا يَستَصْرخُونَ فلا يجدونَ مَنْ يسمعُ نِداءَهم، أو يُلَبِّي دُعاءَهُم.

أُطْلبي الرحمةَ لهُم، فإن الدعاءَ الخالصَ يستحيلُ في نَظَرِهم إلى رَوْضَةٍ غَنَّاءَ تُزهِرُ فوقَ أجداثِهِم، وارْكَعي فوقَ التربَةِ التي يَئِنُّونَ تحتَها، واسقِيها مِن دُمُوعِك قطراتٍ باردَةً تَبُلُّ غُلَّتهم وتُطفِئُ جُذوَةَ الحزنِ المُلْتَهِبَةَ في أحشائهم، إنهم إلى الرحمةِ مُحتاجونَ وإلى الله راغبُون.

أُطلبي الرحمةَ للأبرارِ والفُجَّار، والعُصاةِ والطائعينَ، والمُلْحدينَ والمؤمنينَ، وكلِّ دارجَةٍ في الأرضِ، وكلِّ سابحةٍ في السماءِ، ولا تيْأسي أن يَستجيبَ الله دُعاءَكِ، فلِكلِّ بدايةٍ، ولكلِّ سَائِلَةٍ قرارٌ.

كما أن النهرَ يصبُّ في البحر، والطائرَ يقعُ على الغُصن، والشمسَ تجري لمستَقَرِّها، والنفسَ تصعدُ إلى عالمِها، كذلك أبوابُ السماءِ مُفَتَّحَةٌ لخالِصِ الدُّعاءِ.

الكوخ والقصر

أنا إن كنتُ حاسدًا أحدًا على نِعمةٍ، فإني أَحسُدُ صاحِبَ الكوخ على كُوخِهِ قبلَ أن أَحسدُ صاحبَ القصر على قَصره. لو أن للأوهام سُلطانًا عَلى النفوس لما تضاءَلتِ الفقراءُ بينَ أيدي الأغنياء، ولا وَرِمَ أنفُ الأغنياءِ أن يَتَّخِذَهُمُ الفقراءُ أربابًا من دونِ الله.

أنا لا أغبطُ الغنيَّ إلا في مَوطِنٍ واحِدٍ مِن مَوطِنِه، إن رأيتُه يُشبِعُ الجائعَ ويُواسي الفقيرَ، ويعودُ بالفَضلِ مِن مالِه عَلى اليتيم الذي سَلَبَهُ الدهرُ أباهُ، والأرملةِ التي فَجَعَها القَدرُ في عَائِلِها، ويمسَحُ بيدِه دَمْعَةَ البائِسِ والمحزونِ، ثم أرثي لهُ بعدَ ذلكَ في جَميعِ مواطِنِه الأخرى.

أرثي له إن رأيتُه يَتَرَبَّصُ وُقوعَ الضَائِقَةِ بالفَقير؛ ليدخُلَ عليه مَدخَلَ الشيطانِ مِن قلب الإنسانِ فيمتصَّ الثُّمالَةَ الباقيةَ له مِن مالِهِ؛ ليَسُدَّ في وَجهه بابَ الأملِ. وأَرثي لهُ إن رأيتُه يعتقدُ أنَّ المالَ هُوَ منتهى الكمالِ الإنسانيِّ فلا يطمَعُ في فَضيلةٍ ولا يحاسِبُ نفسَهَ على رَذيلَةٍ. وأرثي لهُ وأبكي على عَقلِهِ إن مَشَى في طريقِه يُخزِّرُ بعينِهِ خَزْرًا ليرَى هَل سَجَدَ الناسُ لمشيتِه، أو صَعِقُوا مِن هيبَتِه؟ وارحَمُه الرحمَةَ كلَّها إن عاشَ شحيحًا جَعْدًا مُقَتِّرًا على نفسِه وعيالِه، بَغيضًا إلى قَومِه وأهلِه، يَنقِمُونَ عليه حياتَه، ويَستبطِئُونَ سَاعَةَ حَتْفِهِ.

أما الفقيرُ فهو أسعدُ الناسِ عَيْشًا، وأَرْوَحُهم بَالًا، إلا إذا كانَ جاهِلًا مَخدوعًا يظنُّ أنَّ الغنيَّ أسعَدُ مِنه حَظًّا، وأرغَدُ عَيْشًا، وأثلَجُ صَدرًا فيحسُدوه على النعمةِ التي أسبَغَها الله عَليه، ويجلسُ في كِسرِ بَيتِه جلسَةَ الكئيب المحزون يُصَعِّدُ الزفرةَ، ويرسِلُ العَبرَةَ فالعَبْرَةَ. ولولا جهلُه وبلاهَةُ عَقلِه لعَلِمَ أنَّ رُبَّ صاحِب قَصرَ يتمَنَّى كوخَ الفقير وعيشَه، ويَرَى أنَّ ذلك السراجَ الضعيفَ الذي لا يكادُ ينيرُ نفسَه أسطَعُ ذُبالًا وأكثرُ لألاءً مِن تلكَ الشموع الباهِراتِ التي تأتَلِقُ بينَ يَدَيْهِ، وأنَّ تلكَ الحِشيَةَ مِنَ الشَّعرَ أو الوَبَر أنعَمُ مَلمَسًا وألْيَنُ مَضْجَعًا مِنَ وَسَائِدِ الحريرِ ونَضَائِدِ الديباج.

لقد بَلَغَ الضَّعفُ وصِغَرُ النفس بكثيرٍ منَ الناسِ أنهم يَحفِلُونَ بالأغنياءِ لأنهم أغنياء، وإن كانوا لا ينالونَ منهُم ما يَبُلُّ غُلَّةً أو يُسيغُ غُصَّةً. وليتَ شِعري إن كان لابُدَّ لهُم مِن إجلال المالِ وإعظامِهِ حيثُ وُجِدَ، فَلِمَ يُقبِّلُونَ أيدي الصيارفَةِ، ولا يَنهَضُونَ إجلالًا للكِلاب المُطَوَّقَةِ بالذَّهَبِ، وهُم يَعملونَ ألَّا فَرْقَ بينَ هَؤلاءِ وهَؤلاء؟!

لَو عامَلَ الفقراءُ بُخلاءَ الأغنياءِ بما يجبُ أن يُعامَلُوا به لَوَجَدُوا أنفُسَهم في وَحشَةٍ من أنفُسِهم، وَلَشَعَروا أنَّ بَدَارتِ الذهب التي يَكنِزُونَها إنما هي أساور مُلتَفَّةٌ على أقدامِهم، وأغلالٌ آخِذَةٌ بأعناقِهم، وَلَعَلِمُوا أن الشرفَ في كمال الأدب، لا في رَنين الذَّهبِ، وفي جَلائِلِ الأعمال، لا في أحمالِ المالِ.

فَلْيُعَظِّمِ الناسُ الكرماءَ، وَلْيَحْتَقِرُوا الأَغنياءَ، وَلْيَعْلَمُوا أنَّ الشرفَ شيءٌ وراءَ الغني والفَقرِ، وأنَّ السعادةَ أمرٌ وراءَ الكُوخِ والقَصرِ.

***

على سرير الموت

مررتُ يومًا من الأيام على باب منزلِ صَغير في أحدِ الأزِقَّةِ الضَّيِّقَةِ، فرأيتُ حولَه مَجمَعًا حافِلًا تصطكُّ فيه الأقدامُ بالأقدام، وتمتزجُ فيه الأنفاسُ بالأنفاس، وقد تَخَلَّلَهُ قومٌ مِن رجالِ الشُّرطَةِ، وسمعتُ قائِلًا يقولُ: «قَبَّحَ اللهُ الانتحار»، وآخرَ يقول: «أحسبُه شابًا غريبًا لأني لم أرَ عينًا تدمعُ عليه». فعلمتُ أن هناكَ شابًا مُنتَحِرًا، وأن هذا الحادثَ سَبَبُ هذا الاجتماع.

لم أقنَعْ بالإجمالِ، فأحبَبْتُ معرفةَ التفصيل، فحاوَلْتُ الدُّخولَ إلى المنزلِ فما استَطَعْتُ إلى ذلكَ سَبيلًا، فتريثت حتى لمحتُ رجُلًا مِن رجالِ الشرطةِ أعرفُهُ فدخلتُ معهُ. وهنالكَ رأيتُ على سريرَ الموتِ فتًى في نحو العِشرينَ مِن عُمره، رقيقَ الجسم، أصفَرَ اللونِ، لم تَستَطِعْ يَدُ الموتِ أن تمحَو كلَّ آثارِ جَمالِهِ، بل بقيَتْ منهُ بَقِيَّةٌ مِنَ الطِّيب التي يَستنشِقُها الإنسانُ في الزهرةِ الذَابلَةِ.

اهتمَّ الضابطُ بملابسِه لعلَّه يجدُ فيها ما يَدُلَّ عليه، واهتمَّ الطبيبُ بجُثَّتِه ليعرفَ عَلَّةَ[1] مَوتِه. أما أنا فجلستُ بجانبِه جلسةَ الكئيب المحزونِ أفكِّرُ في مُصيبتِه، وأندُبُ شبابَه وجمالَه، فلمحتُ حَوْلَ سريره أوراقًا منثورةً فجمعتُها وَوَضعْتُها في مِحفَظَتي مِن حيثُ لا يشعرُ الضابطُ ولا الطبيبُ بما أفعَلُ، عَلَّني أجدُ فيها عبرةً مِن العِبَرِ.

وما هي إلا ساعَةٌ، حتَّى قرَّرَ الطبيبُ أنه مُنتحِرٌ بشُرب مادَّةِ الزرنيخ، وقرَّرَ الضابطُ نَقْلَ جُثَّتِه إلى المستَشْفَى. فنُقلتِ الجُثَّةُ، وانفَضَّ الجمعُ المزدحِمُ، لَم أعُدْ أعلَمُ بعدَ ذلكَ مِن أمرِه شَيئًا.

خلوتُ بنفسِي والأوراقَ فنشرتُها فرأيتُها مجموعَةَ خَواطِر عاشِق، تناوَلَ كأسَ الحبِّ بيدِه، فارتشَفَ منها الرشفةَ الأُولى فوَجَدَها حُلوَةَ المذاقِ، فألصَقَ الكأسَ بفَمِه، واستَمَرَّ يشرَبُ لا يَرفَعُها، ولا يَشعُرُ بالمرارةِ المُتَجَدِّدَةِ في جَرَعَاتها حتى أتى عَلى الجُرعَةِ الأخيرةِ، فإذا هي السمُّ الناقعُ الذي قَتَلَهُ وذَهَبَ بحياتِه.

قرأتُ تلكَ المذكراتِ فبكيتُ بكاءً رَحِمتُ نفسي مِنه، ثم طَوَيْتُها وألقيتُ بها بين أوراقي، وظَلَّت على ذلكَ أعوامًا طِوالًا.

وبينَا أنا أُقَلِّبُ أوراقي ليلةَ أمسَ إذ عثرتُ بها في سَقَطٍ صَغير، قدِ اصفَرَّ لونُه لِتقادُمِ العَهدِ عَليه، كما يَصْفَرُّ الكَفَنُ حَول الجثَّةِ البالِيَةِ، فشعرتُ برعدةٍ تتمشَّى في أعضائي، وتخيَّلتُ أنها في هذا السقطِ شَبَحُ كاتبِها في ذلكَ القبرِ.

ثم عُدتُ إلى نفسِي فنشرتُها للمرَّةِ الثانية وأعَدْتُ قراءَتَها، فرأيتُ قلبَ العشِق مرسُومًا فيها رَسْمًا صَحيحًا في حَالَيْ سَعَادَتِه. وهأنذا أنشُرُها في الناس لتكونَ عِبرةً يعتبرُ بها المخاطِرونَ بقُلُوبِهم في هذا السبيل، سبيل الحبِّ القاتل.

(١)

رأيتُها فأحببتُها، وما كنتُ أعرِفُ الحبَّ مِن قَبلِها.

كانَ قلبي في ظلام حالِكٍ لا يَرى حتى نفسَه، فلما أشرَقَ فيه الحبُّ أشرَقَتْ فيه شمسٌ ساطِعَةٌ مُنيرَةٌ، لها مِنَ الشمس نورُها وجمالُها، وليسَ له مِنها حرارَتُها ولذعَتُها.

كنت أشعرُ قبلَ اليوم كأنَّ قلبي في صَحراءِ هذهِ الحياةِ وَحيدٌ موحِشٌ لا يعرفُ القلوبَ، أو يعرفُها ثم يُنكِرُها. فلمَّا أحببتُ رأيتُ بجانِبه قَلبًا يُؤنسُه ويُزيلُ وحشَتَه،

(١) المراد بعلة موته: سببه الذي أدى إليه.

فوجدتُ بينَ جَوانحي مِنَ اللَّذةِ والغِبطَةِ ما لو قُسِمَ على القلوبِ جَميعًا ما خالَطَها حُزنٌ ولا مَسَّها أَلَمٌ.

كنتُ أسمَعُ باسم السعادةِ ولا أفَهُم مَعناها، غيرَ أني كنتُ أسمعُهم إذا ذَكَرُوها ذَكَرُوا بجانِبها القصرَ والحديقةَ، والفِضَّةَ والذهَبَ، والسُّلطَةَ والجاهَ، والشهرةَ والصِّيتَ. فلمَّا أحببتُ اعتَقَدْتُ أَلَّا سعادَةَ في الدنيا غيرُ سعادَةِ الحبِّ، وأيقنتُ أن الناسَ جَميعًا إنما يطلبُونَ سَعَادَةَ الأجسام لَا سَعَادَةَ النفوس، فَمَثَلُهُم كَمَثَلِ الدَّفين المُكَفَّن بالحَرير والديباج، وباطِنهُ مَسرحُ الدُّودِ ومَرتَعُ الهوامِّ والحَشَراتِ.

(٢)

أحببتُها قبلَ أن أعرفَ عَنها شَأنًا منَ الشئون سِوى أنها تُحبُّني، فكأنّني ما مَنَحْتُها قَلبي إلا؛ لأنها مَنَحتْني قَلبَها، وَهو ثمنٌ قليلٌ في جانِب هذه المِنحَةِ الغالِيَةِ التي ما كنتُ أُحَدِّثُ نفسِي بها، ولا كانت تَستطيعُ أن تُمَثِّلَها في عَيْنَيَّ خواطِرُ الأماني، ولا سَوانحُ الأحلام.

عشتُ دَهرًا بينَ أقوامٍ لا يَعنيهم أمري ولا يَهُمُّهُم شأني، وذقتُ من آلام الحياةِ وشقاءِ العيش ما لا يستطيعُ أن يَحتَمِلَهُ بَشَرٌ، فسمعتُ مَنْ يَسألني: كيفَ حالُك؟ ومَنْ يقولُ لي: ما أَشَدَّ جَزَعي لمُصابك؟ ومَنْ يَتَباكَى رَحمَةً وإشفاقًا عَليَّ. ولكنّي لم أَرَ بجانبي يَومًا منَ الأيام عَينًا تدمَعُ، ولا قلبًا يَخفُقُ!

رأيتُ مَن يحبُّ جمالي كما يحبُّ تِمثالًا مُتقَنَ الصنع، ومَنْ يحبُّ مالِي كما يحبُّه في كِيسِه أو خزانَتِه، ومَن يُعجَبُ بحَديثي إعجابَهَ بروايةٍ بَديعةٍ وَلكنِّي لم أرَ في حَياتي مَنْ يُحبُني!

أما اليوَم فَقدَ وجدتُ بجانبي القلبَ الذي يخفُقُ لأجلي، والعينَ التي تَبكي في سَبيلي، والنفسَ التي تحبُّني لا لِشيءٍ سِواي، فقليلٌ لها مِني أن أمنَحَها حَياتي، فكيف أبخُلَ عَليها بقَلبي؟!

(٣)

جلستُ إليها للمرَّةِ الأُولى فحَدَّثَتْني نفسِي أن أَمُدَّ يَدي إلى يَدِها فأَضَعَهاعلى صَدري لأُطفِئَ بها غُلَّتي، فما لَمَسْتُها حتى نظرتْ إليَّ نظرةَ العِتبِ، وقالت: كُنْ رجُلًا في حبِّك، واترُكِ الطُّفولَةَ لغيرَك.

إن كنتَ تحبُّني لنفسِي فها أنتَ قد مَلَكْتَها عَليَّ وأحرَزْتَها مِن دُوني. وإن كنتَ تحبُّني لهذه الصورةِ الجسمانيةِ فما أضْعَفَ هِمَّتَكَ.. وما أصْغَرَ نفسَكَ!

أتذرفُ دمعَك، وتَسهَرُ ليلَك، وتُذيبُ حَبَّةَ قلبكَ من أجل عَظْمَةٍ تلمسُها أو جِلْدَةٍ تَلثُمُها؟

أنتَ شريفٌ في نفسِك، فكُن شَريفًا في حُبِّكَ، واعْلَمْ أنني ما أحْبَبْتُ غيرَ نفسِك فلا تحبَّ غيرَ نفسي.

وما وصَلَتْ من حديثِها إلى هَذَا الحدِّ حتى رأيتُني قد صَغُرْتُ في عين نفسِي، وتمنَّيْتُ أن لَو عَجَّلَ إليَّ أجَلي قبلَ أن يمرَّ هذا الخاطِرُ الفاسِدُ في ذِهني. ثم استَوْهَبْتُها ذَنبي فَوَهَبَتْهُ لي، وما عُدتُ مِن بعدِها إلى مثلِها.

(٤)

الآنَ عرفتُ مَبلَغَ عَظَمَتِها، وفَضْلِ هِدايتِها، ومِقْدارَ ما يبلُغُهُ الحبُّ الشريفُ من النفس. فهأنَذَا أشعرُ كأنَّ نَفسِي مِرآةٌ يَغشَاها الصَّدأُ، وكأنَّ الحبَّ صَيْقَلٌ يَصقُلها فيجلوُ صِفاتِها شَيئًا فشَيئًا.

كنتُ أحمِلُ بينَ جَوانحي لأعدائي ضِغْنًا وَحِقْدًا، فأصبحتُ لا أشعرُ بما كنتُ أشعرُ بِهِ مِن قبلُ؛ لأنَّ الحبَّ مَلَكَ عليَّ قَلبي، واستَخْلَصَهُ لنفسِه فلم يترُكْ فيه مَجالًا لشيءٍ سِواه.

كنتُ ضَيِّقَ الصدر إن مَسَّني ألَمٌ.. سريعَ الغضب إن فاتَني مَأْرَبٌ.. فأصبحتُ فسيحَ رُقعةِ الحلم، لا يَستفزُّني غَضَبٌ، ولا يُحرجُني مُحرِجٌ لأني قنعتُ بسعادةِ الحبِّ، فلم أحفِلْ بَعدَها بشَيءٍ سِواها.

كنتُ شديدَ القسوةِ، مُتَحَجِّرَ القلبِ، لا أعطِفُ على بائِسٍ، ولا أحنُو عَلى ضَعيفٍ، فأصبحتُ أشعرُ بالمُصيبةِ أراها تُصيبُ غيري ولا تُصيبُني، وأتألَّمُ لبُؤس كلِّ بائس وحُزنِ كلِّ محزونٍ؛ لأنَّ الحبَّ أشرَقَ في قَلبي فملأهُ نُورًا.. فارتفعَ ذلكَ الستارُ الذي كانَ مُسبَلًا بينه وبينَ القلوبِ.

وجُملةُ القولِ إنني كنتُ وَحشًا ضاريًا أعْيَا العالمينَ رياضَتُه وتدليلُه، فصرتُ بينَ يَدي الحبِّ الشريفِ إنسانًا شَريفًا، ومَلَكًا كَريمًا.

(٥)

خرجتُ بها في اللَّيلِ إلى ضِفَّةِ النهر، وكانَ الماءُ رائقًا، والسماءُ صافيةً، وفي كلٍّ منهما نجومٌ وكواكبُ تتلألأُ في صَفحتِه، فاختَلَطَ عَلينا الأمرُ حتى ما نُفَرِّقُ بينَ الأصل والمِرآةِ، ولا نَدري أينَ مكانُ الماءِ مِن مَكانِ السماءِ. فمشَيْنا طَويلًا لا يَنبسُ[1] أحدُنا بكلمةٍ، وكأنَّ سكونَ الليل قَد سَرَى إلى أفئِدَتنا ومَلأَ ما بينَ جَوانِحنا، فأمسَكْنا عَن الحديثِ هيبةً وإجلالًا.

وكنتُ أشعرُ في تلكَ الساعةِ بخفَّةٍ في جِسمي، وصَفَاءٍ في نفسِي حتَّى كانَ يُخَيَّلُ إليَّ أني لو شئتُ أن أطيرَ لطرتُ بغير جَناح، وأنَّ في استِطاعَتي أن أخترقَ بنَظَري حُجُبَ السماءِ وأنفُذَ إلى الملإِ الأعلى فأَرَى هُنالكَ ما هُوَ محجوبٌ عَن نظَرَ الناس أجمَعينَ، وحتَّى صِرتُ أتمنَّى أن يُضِلَّ النجمُ سبيلَه فلا يَهتدي إلى مَغربه، وأن يختَبئَ الليلُ في بُرْدَتِهِ فلا يَعثرَ به فجرُه، وأن تَستَمرَّ مشيتنا هَذه ما ضَلَّ النجمُ وما دامَ الظَّلامُ.

فالتَفَتُّ إليها وسَأَلْتُها: هَل تشعرُ بالسعادةِ التي أَشْعُرُ بها؟

قالت: لا؛ لأني أعرفُ مِن شئونِ الأيام وأحوالِها غيرَ ما تعرفُ، ولأني لا أنظرُ إلى الدنيا بالعينِ التي تنظرُ بها إليها!

أنتَ سعيدٌ بالأملِ، وأنا شقيَّةٌ بالحقيقةِ الواقِعَةِ.

إنكَ سعيدٌ؛ لأنَّكَ تظنُّ أن سعادَتَكَ دائِمَةٌ لا انقِطاعَ لَها، وأنا شَقِيَّةٌ لأني أتوقَّعُ في كلِّ لحظةٍ زوالَها وفَنَاءَها.

إنكَ إنِ استطَعْتَ أن تُوقِفَ الشمسَ في كَبِدِ السماءِ، وأن تَحُولَ بينَ الأرض ودَوْرَتِها، وأن تمنَعَ الساكنَ أن يتحرَّكَ، والمتحرِّكَ أن يسكنَ، فَاضْمَنْ لنفسِك استِمرارَ السعادَةِ وبَقَاءَها.

وهنا أمسكَتْ عنِ الكلام وأطرَقَتْ برأسِها طَويلًا، فرأيتُ مَدامِعَها تنحدرُ عَلى خَدَّيْها بيضاءَ صافيةً كاللؤلؤ المكنُونِ. فبكيتُ لبكائِها، وقلتُ: لِمَ تبكينَ؟ قالت: خوفَ الفِراقِ. قلتُ: فراقُ الحياة، أو فراقُ الموتِ؟ قالت: أمّا فِراقُ الحياةِ فإنني لا أخافُه؛ لأنه لا توجَدُ قُوَّةٌ في العالَم تَستطيعُ أن تَحُولَ بَيني وبينَكَ. إنَّما أخافُ فِراقَ

(١) لا ينبس: لا ينطق، وفي الكلام المعلوم: فلان لم ينبس ببنت شفه: أي لم يتفوه ولم ينطق.

الموتِ، لأنه الفِراقُ الذي لا حيلَةَ لي فيه.. ولا مُنتَدَحَ عنه. قلتُ: هَل لكِ أن نتعاهَدَ عَلى أن نعيشَ معًا ونموت معًا؟ قالت: ذلك ما يُهَوِّنُ عَليَّ أَلَمي.

فتعاهَدْنَا، ثم رَجَعْنا أدراجَنا، والليلُ يُشَمِّرُ أذيالَه للفِرار مِنَ النهار، ثم افتَرَقْنا على ميعادٍ، وذَهَبَ كلٌّ لسَبيلِه.

(٦)

ألا يستطيعُ هذا الدهرُ الغادرُ أن ينامَ ساعةً واحدةً عَن هذا الإنسان؟

ألا يستطيعُ أن يَستَقِيهُ كأسًا واحدًا لا يُخالِطُها كَدَرٌ، ولا يمازِجُها شَقَاءٌ؟

ألا يستطيعُ أن يَحرمَهُ السعادةَ بتاتًا فلا يُذيقُه مِن كأسِها قطرةً واحدةً ما دام يريدُ أن يمنحَهُ اليومَ؛ ليَسْلُبَهُ غَدًا؟

إن الإنسانَ لا يَعجَزُ عَن احتِمال الشقاء الدائم، ولكنَّه يَعجَزُ عَن احتِمال السعادةِ المُتَقَطِّعَة.

يقولون: إن الأملَ حياةُ الإنسانِ، وما قَتَلَ الإنسانَ ومَزَّقَ شَمْلَ حياتِهِ إلا الأمَلُ.

ليتَني ما سعدتُ؛ لأنني ما شقيتُ إلا بسَعادَتي، وليتَني ما أَمَلْتُ، لأنَّ اليأسَ القاتِلَ ما جاءَني إلا مِن طَريقِ الأمَلِ الباطِلِ.

ماتَتِ الفتاةُ التي كانتَ شمسَ حياتي، وأَشِعَّةَ آمالي، وينبوعَ سَعادَتي وهَناءَتي.

ماتتِ الفتاةُ التي كانت مِلءَ الدُّنيا جَمالًا وبَهَاءً، فماتَ بموتِها كلُّ حَيٍّ في هذا الوُجودُ.

أَرَى الأرضَ غيرَ الأرض، والسماءَ غيرَ السماءِ، وأَرَى الطيورَ صامِتَةً لا تُغَرِّدُ، والغصونَ ساكِنَةً لا تتحَرَّكُ، وأَرَى النجومَ آفِلَةً، والأزهَارَ ذابلَةً، والطَّبيعة واجِمَةً[(١)] حَزينَةً، لا يَفتَرُّ ثغرُهَا ولا يتلألأ جمالُها، وأرى الدُّنيا كأنما عادَت إلى عهدِها الأوَّلِ لا يَسكُنها إنسانٌ ولا يَخطُرُ بها حَيوانٌ، وكأنَّني فيها آدَمُها الوحيدُ المسكينُ يندُبُ جَنَّتَهُ ويَشكُوا وَحْدَتُه.

أيُّها الدهرَ الغادرُ إن غَلَبْتَني عَليها فإنَّك لَن تستطيعَ أن تَغلِبَني عن نفسِي. لكَ أن تُخرجَ مِن الدُّنيا مَنْ تشاءُ، ولكنْ ليسَ لكَ أن تَرُدَّ إليها مَنْ تُخرجُ مِنها.

---

(١) الوجم: السكوت في ذهول وتعجب.

ويا أيَّتها النفسُ الهائِمَةُ في سَمَائِها، لا تَجْزَعي ولا تَعْجَلي، فواللهِ لأَفِينَّ بعهدِك، ولأُذهِبَنَّ عَمَّا قليل وَحْشَتَكِ ليكونَ عهدُنا في مُستقبلنا كعَهدِنا في ماضِينا، فما تعارَفْنا في العالم الأولِ إلا بأرواحِنا، فَلْنَكُنْ كذلكَ في العالَم الثاني.

***

غدر المرأة

يَقصُّونَ في بعضِ الأساطير القديمةِ أن حَكيمًا مِن حُكماءِ اليونانِ كان يحبُّ زوجتَه حُبًّا مَلَكَ عليه قلبَه وعقلَه.. وأحاطَ به إحاطَةَ الشُّعَاعِ بالمِصباح المُتَّقِد. وكان يمازجُ هناءَتَه الحاضرَةَ شقاءٌ مُستقبَلٌ يسوقُه إلى نفسِه الخوفُ مِن كان مُغتبطًا باعتِلاقِه إلى صَائِدٍ آخَرَ يعْتَلِقُهُ مِن بعدِه. وكانَ كلَّما أبثَّ زوجتَه[1] سِرَّه وشكَا إليها ما يُساورُ قلبَه من ذلك الهمِّ، حَنَتْ عَليه، وعَلَّلَتْه بمعسول الأماني، وأقسَمَتْ لهُ بكُلِّ مُحرجَةٍ من الأيمانِ أنها لا تَستَردُّ هِبَةَ قلبها منهُ حَيًّا ومَيْتًا.. فكانَ يسكنُ إلى ذلك الوعدِ سُكونَ الجرح الذَّرب[2] تحتَ الماءِ الباردِ.. ثم لا يَلبثُ أن يعودَ إلى هواجِسِهِ وَوساوِسِه.

حتى مرَّ في بعض رَوْحَاتِهِ إلى منزله في إحدى الليالي المقمرةِ بمقبرَةِ المدينةِ.. فَبَدَا لهُ أن يدخُلَها ليُرَوِّحَ عن نفسِه همومَ الموتِ بوَقفَةٍ بينَ قبور الموتَى. وكثيرًا ما يَتَدَاوَى شاربُ الخمر بالخمر، ويَلَذُّ للجبانِ وهو يرتَعِدُ فَرَقًا[3] الإصغاءُ إلى حديثِ المَرَدَةِ والجانِ، فرأَى في بعضِ مذاهِبِهِ بينَ تلكَ القبور امرأةً مُتَسَبِّلَةً[4] جالسةً أمامَ قبر جديدٍ لم يَجِفَّ ترابُه، وبيدِها مروحَةٌ مِنَ الحريرِ الأبيضِ مطرَّزٍ بأسلاكٍ مِنَ الذهبِ، تحرِّكُها يَمْنَةً ويَسْرَةً لتُجففَ بها بَلَلَ ذلك التراب. فعَجِبَ لشأنِها وتَقَدَّمَ نحوَها فارتاعَت لمرْآهُ.. ثم أنسَتْ به حينَما عَرَفَتْهُ.. فسألها ما

(١) أبثَّ: كلمة مجازية من قولك: بثثته ما في نفسي أي صارحته، وتقول بثثته سري، أو باطن أمري.
(٢) الذَّرب: المؤلم. (٣) الفَرَق: شدة الخوف.
(٤) متسبِّلة: منتقبة.

obeikandl.com

شأنُها وما مقامُها هنا؟ ومَن هذا الدفينُ؟ وما هَذا الذي تفعلُ؟ فأبَتْ أن تجيبَه عمَّا سألَ حتَّى تفرَغَ من شأنها.

فجَلَسَ إليها وتَناوَلَ المروحَةَ مِنها، وظلَّ يُساعِدُها في عملِها حتى جَفَّ الترابُ. فحدَّثَتْه أنَّ هذا الدفينَ زوجُها، وأنه ماتَ منذُ ثلاثةِ أيَّام، وأنَّها جالسةٌ منَ الصباح مجلسَها هذا لتُجَفِّفَ ترابَ قبره وفاءً بيمين كانت قَد أقسَمَتْها لهُ في مَرَضِ مَوْتِهِ ألا تَتَزَوَّجَ مِن غيره حتَّى يَجفَّ ترابُ قبره، وأن هذه الليلةَ هي ليلةُ بنائِها بزَوْجِها الثاني. فأبَى لها وَفَاؤها لهذا الدَّفين الذي كان يحبُّها ويُحسِنُ إليها أن تَحْنَثَ بيمين أقسَمَتْها له.. أو تخيسَ بما عاهَدَتْهُ عليه، ثم قالت له: هَل لكَ، يا سيِّدي، أن تقبَلَ هذه المروَحَةَ هديَّةً مني إليكَ.. وجزاءً على حُسن صَنيعِك معي؟ فتقبَّلَها منها شَاكِرًا بعدَ أن هَنَّأَها بزواجِها الجديدِ!

ثم انصرَفَ وليسَ وراءَ ما به منَ الهَمِّ غايةٌ، ومَشَى في طريقِه مِشيَةَ الرائح النَّشوانِ[١] يحدِّثُ نفسَه ويقول: إنه أحبَّها وأحسَنَ إليها، فلما ماتَ جَلَسَتْ فوقَ قبره لا لتبْكيه.. ولا لتَذكُرَ عهدَه، بل لتَتَحَلَّلَ مِن يمين الوفاءِ التي أقسَمَتْها له. فكأنَّها وهي جالسةٌ أمامَ زوجها الأولِ تُعِدُّ عُدَدَ الزواجِ مِن زَوجها الثاني، وكأنَّما اتَّخذَت من صَفَائح قبره مرآةً تَصقُلُ أمامَها جبينَها، وتُصفِّفُ طُرَتها[٢] وتلبسُ حُليتَها، للزفافِ إلى غيره.

وما زالَ يحدِّثُ نفسَه بمثلِ هذا الحديثِ حتَّى رأى نفسَه في منزلِه من حيثُ لا يَشعُرُ، ورأى زوجَه ماثلَةً أمامَه مُرتَاعَةً لمنظرِهِ المؤلِم المحزنِ، فقالَ لها: إن امرأةً خائنَةً غادِرَةً أهدَتْ إليَّ هذه المروحَةَ فَقبلْتُها منها إليكِ.. لأنَّها أداةٌ مِن أدواتِ الغَدر والخيانة، وأنتِ أولى بها مني. ثم أنشأ يقصُّ عليها قصَّةَ المرأةِ حتى أتى عَليها. فَغَضِبَتْ وانتَزَعَتِ المروحَةَ مِن يدِهِ ومَزَّقَتْها إرَبًا إربًا.. وأنشأت تسبُّ تلكَ المرأةَ وتَشتُمُها، وتَنعي عليها غَدْرَها وخيانَتَها وسَفَالَتَها ودَناءَتَها، ثم قالت: ألا يزالُ هذا الوسواسُ عالِقًا بصدرك ما دمتَ حَيًّا؟ وهَل تحسبُ أن امرأةً في العالَم ترضى لنفسِها بما رَضِيتْ به لنفسِها تلكَ المرأةُ الغادرةُ؟ فقال لها: إنك أقسَمْتِ لي ألا تتزوَّجي من بَعدي، فهل تَفِينَ بعهدِك؟ قالت: نعم، وَرَمَاني الله بكلِّ ما يَرمي الغادِرَ إن فعلتُ. فأطمأنَّ لقَسَمِها وعادَ إلى هُدوئِهِ وسُكُونِه.

---

(١) النشوان: السكران.
(٢) الطرة: الشعر الكثيف.

مَضَى على ذلكَ عامٌ ثم مرِضَ الرجُلُ مَرَضًا شَديدًا، فعَالَجَ نفسَه فَلَم يَجِدِ العلاجَ حتَّى أشرَفَ على الموتِ، فَدَعَا زوجَتَه، وذَكَّرَها بما عاهَدَتْه عليهِ، فاذَّكَرَتْ. فما غَرُبَتْ شمسُ ذلكَ اليوم حتَّى غَرُبَتْ شمسُه، فأمَرَت أن يُسَجَّى بردائِه ويُتَرَكَ وحدَه في قاعَتِهِ حتَّى يُحتَفَلَ بدفنِه في اليوم الثاني، ثم خَلَت بنفسِها في غُرفتِها تبكيهِ وتَندبُه ما شاءَ اللهَ أن تفعَلَ.

وإنها لكذلك إذ دَخَلَتْ عَليها الخادِمُ وأخبَرَتْها أنَّ فتىً مِن تلاميذِ مَولاها حَضَر الساعَةَ مِن بلدَتِهِ؛ ليعودَه حينَما سمِعَ بخبرِ مَرَضِهِ، فلمَّا سمِع حديثَ مَوتِهِ ذُعِرَ ذُعرًا شَديدًا وخَرَّ في مكانِه صَعِقًا، وأنه لا يزالُ صَريعًا عندَ بابِ المنزلِ لا تَدري ما تصنَعُ في أمرِه. فأمرَتْها أن تَذهَبَ بِهِ إلى غُرفَةِ الأضيافِ، وأن تتَولَّى شأنَه حتَّى يستفيقَ، ثم عادَت إلى بكائِها ونحيبِها.

فلما مَرَّ الهزيعُ(١) الثاني مِنَ الليل دَخَلَتْ عليها الخادِمُ مرَّةً أُخرى مَذعورةً مرتاعَةً وهي تقول: رحمتَكِ وإحسانَكِ، يا سيدتي، فإنَّ ضيفَنا يعالجُ مِن آلامِهِ وأوجاعِه عَذابًا أَليمًا، وقد حِرتُ في أمره، وما أحسبُهُ إن نحنُ أغفَلْنا أمرَه إلا هالِكًا. فأهمَّها الأمرُ، وقامَت تتحامَلُ على نفسِها حتَّى وَصَلَتْ إلى غُرفَةِ الضيفِ فرأَتْهُ مُسَجَّى على سريره، والمصباحُ عندَ رأسِه. فاقتربَتْ منهُ ونَظَرَتْ في وجهه، فرأَت أبدَعَ سَطْرٍ خَطَّتْهُ يَدُ القدرةِ الإلهيةِ في لوحِ الوجودِ، فخيَّل إليها أن المصباحَ الذي أمامها قَبَسٌ مِن ذلك النورِ المتلألئِ في ذلكَ الوَجهِ المُنير، وأن أنينَه المنبعثَ مِن صدره نَغمةٌ مُوسيقيَّةٌ محزِنَةٌ تَرِنُّ في جَوفِ الليلِ البهيم.

فأنساها الحزنُ على المريضِ المُشرفِ الحزنَ عَلى الفقيدِ الهالِك، وعَنَاها أمرُهُ، فلم تترُكْ وسيلةً مِن وسائلِ العلاجِ إلا تَوَسَّلَتْ بها إليها حتى استفَاقَ، ونَظَرَ إلى طَبيبَتِهِ الراكِعَةِ بجانِبِ سريرِه نظرةَ الشُّكرِ والثناءِ، ثم أنشأَ يقصُّ عَليها تاريخَ حَياته. فعَرَفَتْ مِن أمره كلَّ ما كانَ يهمُّها أنْ تعرفَهُ، فعرَفَتْ مسقَطَ رأسِه وسِيرَةَ حياتِهِ وصِلَتَهُ بزَوْجِها وأنَّه فتًى غريبٌ في قومِه لا أبَ له، ولا أُمَّ، ولا زَوْجَةَ ولا وَلَدَ. وهُنا أَطرَقَتْ برأسِها ساعَةً طويلةً عالَجَتْ فيها من هواجسِ النفسِ ونَوازِعِها ما عالَجتْ، ثم رَفَعتْ رأسَها وأمسَكت بيدِه، وقالت له: إنك قَدْ ثَكِلْتَ أستاذَكَ وأنا ثَكِلْتُ زَوجي، فأصبَحَ همُّنا

(١) الهزيع من الشيء: الجزء، تقول: مضى هزيع الليل.

واحِدًا، فهَل لكَ أن تكونَ عَونًا لي وأنا أكونَ عَوْنًا لكَ على هذا الدهرِ الذي لم يَترُكْ لنا مُساعِدًا ولا مُعينًا؟

فألَمَّ بخبيئَةِ نفسِها، فابتَسَمَ ابتِسامَةَ الحُزنِ والمَضَضِ[١]، وقالَ لها: مَنْ لي- يا سيدتي- أن أظفرَ بهذه الأمنيةِ العُظمْى، وهذا المرضُ الذي يُساورُني ولا يكادُ يَهدأ عَني قد نغَّصَ عَليَّ عَيْشي، وأفسَدُ عَليَّ شأنَ حياتي، وقَدَ أنذَرَني الطبيبُ باقترابِ ساعةِ أجَلي إن لم تُدرِكْني رحمةُ الله، فاطلُبي سعادَتَكَ عندَ غيري، فأنتِ مِن بناتِ الحياةِ، وأنا مِن أبناء الموتِ.

فقالت له: إنك ستعيشُ، وسأُعالجُكَ ولو كانَ دواؤكَ بينَ سَحْري ونَحْري قال: لا تُصَدِّقي ما لا يكونُ- يا سيدتي - فأنا عالمٌ بَدوائي، وعالمٌ بأني لا أجدُ السبيلَ إليه. قالت: وما دواؤكَ؟ قال: حَدَّثني طبيبي أن شِفائي في أكْلِ دِماغِ مَيِّتٍ لَيْومِه، وما دامَ ذلكَ يُعجِزُني فلا دواءَ لي ولا شِفَاءِ.

فارتعَدتْ وشَحُبَ لونُها، وأطرقَتْ إطراقَةً طويلةً لا يعلمُ إلا اللهُ ماذا كانت تحدِّثُها نفسُها فيها.. ثم رفَعَتْ رأسَها وقالت: كُنْ مطمَئنًا فدَوَاؤكَ لا يُعجِزُني.. ثم أَمَرَتْهُ أن يعودَ إلى راحَتِه وسُكُونِه، وخَرَجَتْ مِنَ الغُرفَةِ مُتَسَلِّلَةً حتى وَصَلتُ إلى غُرفَةِ سِلاح زَوجِها، فأخذَت مِنها فأسًا قاطِعَةً، ثم مَشَتْ تختلسُ خطواتها اختِلاسًا حتَّى وَصَلت إلى غُرفَةِ الميتِ، فَفَتَحَتِ البابَ فدارَ على عَقبِهِ وصَرَّ صَريرًا مُزعِجًا، فجَمَدتَ في مكانها رُعْبًا وخَوْفًا. ثم دَارَت بعَيْنَيْها حَوْلَها فلَم تَرَ شَيئًا فتَقَدَّمَتْ لشأنها حتَّى دَنَتْ مِنَ السرير، وَرَفَعِتِ الفأسَ لتضربَ بها زَوجَها الذي عاهَدَتْه ألا تتزوَّج من بعدِه، ولم تَكَدْ تَهوي بها حتَّى رأتِ الميتَ فاتِحًا عَيْنَيْهِ ينظُرُ إليها، فسقَطَتِ الفأسَ مِن يَدِها، وسَمِعَتْ حركةَ وراءَها، فالتَفَتَتْ فرأتِ الضيفِ والخادمَ واقِفَيْنِ يتَضاحَكانِ، فَفَهِمَتْ كلَّ شيء.

وهنا تقدَّم نحوَها زوجُها وقال لها: أليسَتِ المروحَةُ في يدِ تلكَ المرأةِ أجمَلَ من هذهِ الفأس في يَدِكِ؟ أليسَتِ التي تُجَفِّفُ تُرابَ قبر زَوجها بعدَ دفنه أفضَلَ مِنَ التي تكسِرُ دماغَه قبلَ نَعْيهِ؟ فصارَت تنظُرُ إليه نَظَرًا غَريبًا ثم شَهَقَتْ شهقَةً كانت فيها نفسُها.

---

(١) المضض: الألم، يقال: جئت على مضض، وتكلم على مضض.

الضـــــاد

كان العربُ الأوَّلونَ أحرارًا في لغَتِهم، يَضَعُون لكُلِّ ما يخطُرُ ببالهم مِنَ المعاني ما يُريدونَ مِنَ الألفاظِ، لا يَتَقَيَّدونَ بقاعِدَةٍ ولا شَرْطٍ[(١)]، ونحنُ عربٌ مثلُهم تجري في عُروقِنا دِماؤهم، كما تَجري في عُروقِهم دماءُ آبائِهم من قبلُ فَسهُمْنا في الضاد[(٢)] سَهْمُهم، وحَقُّنا فيها حَقُّهم، فلِمَ يَضَعونَ الألفاظَ للتَّفَاهُم والتَّخاطُب، ولا نَضَعُها مثلَهم لمثل ما وَضَعُوا وَحَاجتُنا أكثرُ من حاجاتِهم، ومَرافِقُنا أوفَرُ عَدَدًا مِن مَرَافِقهم، وأوسَعُ فُضُولًا وأنواعًا؟

أين باديتُهم الخلاءُ المقفِرَةُ التي لا يُعَمِّرُها إلا القليلُ مِنَ الخيام المبعثرة بينَ معاطِنِ الإبل ومَرابِض الشاءِ، مِن مَدائِننا الفاخِرَةِ الحافِلَةِ بصُنُوفِ الموجوداتِ، وأنواع الآلاتِ، وغرائِب المصنوعات، وأكثرُها مُستَحْدَثٌ مُتطرِّفٌ لم تَتَداوَلْهُ السنونَ والأيامُ، ولم تَعصِفْ بِهِ عواصِفُ القرونِ والأعوام.

أليسَ مِن الظُّلم المبين والغُبْن الفاحِش، أن تَضيقَ حاجاتُهم عن لُغتِهم، فيَتَفَكَّهوا بوَضع خَمسمائةٍ اسم للأسدِ، وأربعمائةٍ للداهِيَةِ، وثلثمائةٍ للسيفِ، ومائتَيْن للحيَّةِ، وخَمسينَ للناقة؟ وتَضيقُ عن حَاجاتنا، فلا نعرفُ لأداةٍ واحِدَةٍ مِن آلاف الأدواتِ التي يَضُمُّها المَعْمَلُ اسمًا عربيًا واحِدًا؟ اللّهُم إلا القليلُ التافِهُ مِن أمثال: المِسْبَرِ والمِبْرَدِ، والمِنشارِ والمِسْمارِ؟

أيكونُ لِسفينَةَ البَرِّ - وهي لا تحمِلُ إلا الرجُلَ، أو الرجُلَ ورَديفَه - مائتا اسم ومائتانِ مِنَ الأسماءِ لأعضائها وأوصالِها، ورَحْلها وكُورها.. ولا يكونُ لسفينَةِ البحر - وهي المدينَةُ المتنقِّلَةُ في الدأماء[(٣)] - القليلُ من ذلك الحظِّ الكثيرِ؟

---

(١) بدأ المنفلوطي العبارة الأولى في طبعة ١٩١١م بقوله: «إذَا كان العرب الأولون يعبرون بالرأس عن متين من الأعضاء والعظام والأعصاب والشرايين، فلم لا تعبر نحن بالضاد عن ثمانية وعشرين حرفًا.. ثم قال: ونحن عرب مثلهم..».

(٢) يريد أنه لا مانع من أن تسمي اللغة العربية بالضاد.

(٣) الدأماء: المياه، أو هي نفس البحر.

obeikandi.com

كانَ لعرب الجاهليّةِ الأولى مُؤتَمرٌ لُغويٌّ يَعقدونَه في كلِّ عام بالحجاز بين نَخْلَةَ والطائِفِ[1]، يجتمعُ فيه شُعراؤهم وخُطباؤهم، ويتناشدون ويَتَساجَلُونَ ويَتَحاوَرُونَ، ويتطارَحُونَ، ويَعرِضُونَ أنفسَهم على قُضَاةٍ مِنهُم يوازِنُونَ بينَهم، ويُحكِّمُونَ لمبرِّرهم على مُقَصِّرهم، حُكمًا لا يُرَدُّ ولا يُعارَضُ. ولقد شَعَروا بضرورةِ عَقْدِ هذا المؤتَمَر عندَما أحسَّوا بتَشَعُّب لُغَتِهم بينَ اليَمَن والشام ونَجْدٍ وتُهامَةَ لصُعُوبَةِ التَّواصُل في تلكَ البقاع، وبُعدِ ما بينَ قاصِيها ودانيها. فكان مطمَحُ أنظارهم في ذلكَ المجتمع تَوْحِيدَ لُغَتهم، وجَمْعَ شَتاتهم، والرجوعَ بها إلى لُغَةِ قُريش التي هي أفصَحُ اللغاتِ وأقربُها مأخَذًا وأسهَلُها مَساغًا وأحسَنُها بيانًا.

أيقدرُ هؤلاءِ العجزةُ الضعفاءُ في جاهليَّتِهم الأُولى على ما نَعجَزُ عنهُ نحنُ؟ ونحنُ إلى مُؤتمرهم أحوجُ مِنهم إليه، لأنَّ تَشَعُّبَ اللغةِ في عَصرهم لا يمُكنُ أن يبلُغَ مبلَغَه في عَصرنا بينَ لغةِ الأدباءِ ولُغةِ العُلمَاءِ ولُغَةِ الدواوينِ ولُغَةِ المتصوِّفينَ، ولُغةِ المترجمينَ، ولغاتِ العامَّةِ التي لا حَصْرَ لها.

إن كانَ الجاهليونَ في حاجةٍ إلى مُجتمعَ لتوحيدِ اللُّغاتِ المُتَشَعِّبَةِ، فنحنُ في حاجةٍ إلى مُجتَمَعاتٍ كثيرةٍ: مجتمع لجمع المفردات العربية المأثورةِ وشَرْح أوْجُهِ استعمالِها الحقيقة والمجازيةِ في كتاب واحدٍ يقعُ الاتِّفَاقُ عليه والإجماعُ عَلى العملَ به؛ ومُجتمع دائم لوَضْع أسماءٍ للمُسَمَّياتِ الحديثةِ بطريقَةِ التعريب أو النَّحتِ أو الاشتِقاق؛ وآخرَ للإشرافِ عَلى الأساليب العربيَّةِ المستعمَلَة، وتهذيبها وتَصفيتِها مِنَ المبتَذَلِ الساقِطِ والمستَغْلَقَ بينَ الكُتَّاب والشُّعراءِ والخُطَبَاءِ ومُجازاةِ المبرِّز منهُم والمُقَصِّر، إن خَيرًا فخيرٌ، وإنْ شَرًّا فَشَرٌّ.

(١) يعني به سوق عكاظ.

سياحة في كتاب[1]

أعجَبُ ما أعجَبُ لهُ مِن أمرِ نَفسي أني أُحِبُّ الجمالَ خيالًا، أكثَرَ ممَّا أُحبُّه حقيقةً، فيعجبني وصفُ الروض أكثرَ ممَّا يُعجبُني مَرآهُ، ولا أطرَبُ لمنظَر الفتياتِ الجميلاتِ، طَرَبي لمنظر القصَائِدِ الغَزَليَّاتِ، وأُحِبُّ أن أقرأَ وَصْفَ المدنِ الجميلةِ، وما كَتَبَهُ الكاتبونَ على قُصورها ودُورها، وسُهولِها وبطاحِها وأنهارَها وجَداوِلِها.. ومَيادينِها وتماثيلها، وأنديَتِها ومجامِعِها، ولا يهمُّني أن أراها. كأنني أريدُ أن أستَديمَ لنفسِي تلكَ اللذَّةَ الخياليَّةَ، وأخافُ أن تَحولَ الحقيقةُ بيني وبينَها. وأحسبُ أني لو كنتُ عاشِقًا لأصبحتُ أُضحوكَةَ العاشِقينَ.. وأعجوبَةَ الهازئينَ والساخِرينَ، ولكانَ مَثَلي مَثَلَ ذلكَ الرجُلِ الذي أَحَبَّ امرأةً فاستَزارَها فَمَنَعَتْهُ حينًا ثم زارَتْه، فلَمَّا رآهَا تَرَكَها وَذَهَبَ؛ لينامَ فَعَجِبَتْ لشأنِه وسَأَلَتْه: ما بَالُه؟ فقالَ لها: أريدُ أن أنامَ عَلَّني أرى طيفَكَ في المنامِ!

جاء يومُ شَمِّ النسيم فَخَرَجَ الناسُ إليه يستقبلونُه استقبالَ الجيش المدجَّج للمَلِكَ المُتَوَّجِ، ويُرَحِّبونَ به ترحيبَ العُشَّق بيومِ التلاقِي، بعدَ طولِ الفِراقِ، ويَبسمونَ له ابتِسامَ الرياضِ الزاهِرَةِ للسُّحُب الماطِرَةِ، وقد ذَهَبُوا في شأنِه المذاهِبَ كلَّها: فمن صاعِدٍ إلى رءوس الجبالِ، وسارب في سَهلِ الرمالِ، وواقِفٍ مَوقِفَ الإعجابِ والإجلالِ.. بينَ جمالِ الأنوارِ، وأنوارِ الجمالِ، ومُقلِّب طَرْفَهُ بينَ حُسنِ الزهراتِ وحُسن الفتياتِ.. لا يعلمُ أتشبهُ القاماتُ الغصونَ، أم الغصونُ القاماتِ.

ذَهَبَ الناسُ في ذلكَ اليوم تلكَ المذاهِبَ، وما كانَ لي أن أذهَبَ مَذهبَهم؛ لأني لا أعجَبُ بما يَعجَبُونَ، ولا أهتِفُ لما يَهتِفُونَ، فَقَبَعتُ في كِسر بَيتي أفَتِّشُ عن ضالَّةِ خيالٍ أجدُ فيها مِنَ السعادَةِ والهناءَةِ ما يجدُه الهائمونَ بينَ ثَغْر الحسناءِ وثَغْر الصَّهباءِ. فلمحتُ بجانبي كتابَ بَلاغَةِ العَرَب، وهو الكتابُ الذي تَرْجَمَهُ الأستاذ «كامل

(١) جاء في هامش طبعة ١٩١١م ما نصه:

ليس في هذه الرسالة شيء منقول بلفظه من كتاب «بلاغة العرب»، وإنما هي ملخصات فهم الكاتب معناها وأنشأ لفظها.

حجاج»، وجَمَع فيه نفَائسَ اللغةِ الفرنسيَّةِ وزُبْدَةَ ما جادَت به قرائحُ كُتَّابها وشُعَرَائِها.. فقلتُ: حَسبي مِنَ الرياضِ هذه الزهراتُ، ومِنَ النسائِم تلكَ النفَحاتُ.

خطوتُ الخطوةَ الأُولى مِن سياحتي في الكتاب فرأيتُني وَاقِفًا تحتَ نافِذَةِ قصر اللوفر في باريس، ورأيتُ الناسَ وُقوفًا في ذلكَ الميدانِ الفسيح وقد هاجَ بعضهم في بعضٍ حتى ضاقَت بهم رُقعَةُ الأرض، ورأيتُهم يَمُدُّونَ أعناقَهم إلى تلكَ النافِذَةِ ويَنظُرونَ إليها نظرَةَ الفَلَكِيِّ إلى كَوْكَبِهِ اللامع، ويَرقُبونَ منها ما يَرقُبُ الروضُ مِن غادِيَةِ السُّحُب. وإنّهم لكذلكَ إذ أطَلَّ عَليهم نابليون الأولُ مِن نافِذَةِ قَصرِهِ كما يُطِلُّ البدرُ مِن وراءِ الأُفقِ يحمِلُ بينَ يدَيْهِ طِفلَه الصغيرَ كما يُسميِّه الناسُ، ومَلِكَ روما كما يسميِّه أبوه. فضَجَّ الناسُ لمطْلَعِهِ ضجيجًا مَلأَ مسمَعُ الخافِقين، وابتَسَمُوا لمرآهُ ابتِسامًا ما بينَ المشرقَينْ والمغربَينْ. وهُنا سمعتُ الشاعرَ الكبيرَ يخاطبُ ذلكَ الملكَ العظيمَ بصوتٍ يُشبهُ صوتَ البَحرِ الزاخِرِ قائلًا له:

رُوَيْدًا، أيّها الرجُلُ المغرورُ بالتاج والسرير.. والمُلْكِ الكبير.. والجيشِ الخاضِع، والشعب الطائع، أنتَ تُقدِّرُ لطفلِكَ في مُستقبلِ الأيامِ مُلكًا كمُلْكِكَ، ومَجْدًا كمَجْدِك، وعِزًّا وسُلطانًا كعِزكَ وسُلطانك، غيرَ عالمٍ بما تكتُمُه ضمائِرُ الأيامِ مِنَ الحوادِثِ العظام، والخُطوبِ الجسام. فهل أخَذْتَ عَلى الأيامِ عَهدًا لنفسِك فتأخُذَهُ لوَلَدِك؟ وهَل وَثِقْتَ بما في يَدِكَ فَتَثِقَ بما في يَدِ غيرِك؟

أيُّها المَلِكُ المغرورُ، إنكَ ستفارقُ عمَّا قليل هذا القصرَ الكبيرَ.. إلى الكوخ الحقير، وسيُحيطُ بكَ الجندُ في مَنفاكَ إحاطَةَ الإخضاع والإذلال.. لا إحاطَةَ الإعظام والإجلال، وسيموتُ وَلَدُكَ مَحرومًا هَذا العرشَ الذي هيَّأتَه لهُ بَل محرومًا بِضعَةَ أشبارٍ مِن تُربَةِ فَرنسا يَضطجِعُ فيها ضَجْعَةَ الموت.

أيها الملكُ المغرور، لا تَقُلْ إنَّ المستقبلَ لي، فإنَّما المستقبلُ لله.

تركتُ هذا الموقِفَ الفَخْمَ الجليلَ وقد امتلأَتْ نفسي عِبرَةً بمصائرِ الأيام، ومَصرعِ الكِرام، وتَقلُّباتِ الدهرِ ما بينَ رَفْعٍ وخَفْض، وإبرام ونَقْض، ومشيتُ حتَّى وَصلتُ إلى بريَّةٍ جَرداءَ، وَدَوِيَّةٍ قَفْراء، لا يطرُقُها إنسانٌ، ولا يَدُبُّ بها حَيوانٌ، فلمحتُ عَلى البُعدِ رجُلًا يمشي عَلى بعضِ الشَّواطئِ فوقَ أرضٍ رَمليةٍ يخدعُ ظاهِرُها، ويقتُلُ باطِنُها، ويدبُّ ماؤها في أحشائها، دبيبَ الصهباءِ في الأعضاءِ، ويَكمُنُ في صُدورِها كُمُونَ الأسرارِ في صُدورِ الأقدار.

فما هيَ إلا بضعُ خطواتٍ حتى وَقَعَ نَظري عَلى رَجُل مِسكين غَاصَتْ قدماهُ في الرمل، فحاوَلَ نزعَهما فغَاصَ إلى رُكبَتَيْهِ، فتَحَلْحَلَ، فغاصَ إلى صَدرِه، وما زال يساعِدُ على نفسِه بنفسِه ويهبطُ شبرًا كلَّما حاوَلَ أن يَرتفعَ فِترًا، حتى لم يبقَ منهُ على ظهر الأرض غيرُ فَم يصرُخُ بالنِّداءِ، وعينٍ تذرفُ بالبكاءِ، ثم ما لبثَ أن غطَّاهما الرملُ فَرَفَعَ يدَيْه بالدُّعاء، فلم يَجِدْ مِن رَحمةٍ فِي الأرضِ ولا في السماء.

وقفتُ أمامَ هذا المشهدِ المؤثِّر المُحزِنِ وقفةً أرسلتُ فيها بضعَ قَطَراتٍ من الدمع عَلى هذا البائِسِ المسكين، وقلتُ في نَفسي: إنني عَجزْتُ عَن إسعادِهِ في نكبَتِهِ ومَعُونَتِهِ في شِدَّتِه، فلا أقَلَّ مِن أن أسعدَه بقليلٍ مِنَ الأسَفِ على مَصيرهِ المحزنِ الأليم.

ثم فارقْتُه ومشيتُ حتى بلغتُ منزلَ الشاعر لامرتين فرأيتُه جَالِسًا في غُرفَتِهِ الصَغيرةِ وليسَ معهُ مَنْ يؤنِسُهُ غيرُ كَلْبِهِ المُقْعَى على عَتَبَةِ بابِهِ، فسمعتُه يخاطِبُه ويقولُ له:

أيها الكلبُ الأمينُ، قَد هَجَرني الناسُ وبقيتَ بجانبي، وخانَني الأصدقاءُ وَوَفَيْتَ لي، فأنتَ في نَظري أَوْفَى الأوفياءِ، وأَصْدَقُ الأصدقاءِ. ولولا أنكَ كريمُ الأخلاقِ متواضِعٌ، تأبَى إلا أنْ تعرفَ لسيِّدِكَ منزلَتَهُ من السيادَةِ عَليك، وتحفَظَ لهُ فَضْلَ ما أَسْدَى مِنَ النعمةِ إليكَ، لأكبَرْتُ جلسَتَكَ هذهِ عندَ عَتَبَةِ الباب، ولأجْلَسْتُكَ بجانبي عَلى فِراشِي، لأنكَ صَديقي ومُؤنِسي، ولأنكَ أَحَقُّ بالإكرام مِن كَثير مِن أولئكَ الذين يفترِشُونَ الطنافِس، ويتَوَسَّدونَ الوَسائِدَ. وَحَسبي منكَ هذه النظراتُ التي تُلقيها عَليَّ بهدوءٍ وسكُونٍ، كأنك تقرأُ صفحَةَ وَجهي، ما غابَ عنكَ مِن دَخيلةِ أَمْري، وكأنني أسمعُكَ تَقول: ما بَالُه، وما شأنُه؟ وما الذي يُبكيه؟ ليتَني أعرفُ دَخيلةَ أمره، وليتَني أستطيعُ أن أكونَ فِداءَه! فَحَسْبِي منكَ ذلكَ، وهَلْ يطمَعُ الإنسانُ أن يَجدَ مِن أوْفَى أصدِقَائِه أكثرَ ممَّا أَجِدُهُ في لَفَتَاتِكَ، وأَلْمَحُهُ في نَظَراتِك؟

سمعتُ لامرتين يناجي كلبَه بهذا النَّجاءِ الرقيق، فَتَسَلَّلْتُ وذهبتُ لشأني وأنا أقولُ في نفسي: إذا كان لامرتين- وهو أشعرُ شاعر في فَرنسا، وفَرنسا مَهبطُ وَحْي الشعر - لم يَجِدْ لهُ صَديقًا وَفيًا غيرَ كلبهِ المُقْعَى على عَتَبَةِ غُرفَتِهِ، فأينَ يذهبُ سائرُ الشعراءِ، ومَتَى يجدونَ الأصدقاء؟

تركتُ منزلَ لامرتين وذهبتُ إلى منزلِ «دي موسيه» فرأيتُه مُعتزِلًا في غُرفَةٍ مِن غُرفِ مَنزلِه يَبكي بُكاءً مُرًّا.. ويزفرُ زَفيرًا شديدًا، تكادُ تَتَقَطَّعُ لهُ أحشاؤه. فقلتُ: ليتَ شِعري، ما أَبْكاهُ؟ وما الذي دَهَاهُ؟ فسمعتُه يترنَّمُ بقصيدةٍ من قَصائِدِه يشرحُ فيها تاريخَ

وَجْدِهِ وَهَواهُ شَرْحًا مُؤَثِّرًا مُؤلِمًا حتَّى كان يُخَيَّلُ إليَّ أنَّ كلَّ بيتٍ مِن أبياتها جُذوَةُ نارٍ مُلتَهِبَة. وسمعتُه يَشكُو مِن خِيانَةِ حَبيبَتِه «جورج صاند» ويعالِجُ نفسَه على أن يَسْلُوهَا، ويَتَنَاسَى عَهْدَها وزمانها، فلا يَجدُ إلى ذلكَ سَبيلًا.. وما هُو إلا أن أتمَّ قصيدتَه حتَّى تَغَيَّرَ لونُه وشَخَصَ بَصَرُهُ.. واضطربَ اضطرابَ الأغصان اليابسَةِ.. بينَ أيدي الرياح العاصفَة، ثم أخذَ يَهذي هَذيانَ المحموم، ويَخلِطُ في كلامِه خَلْطًا شَديدًا. فعلمتُ أن الرجُلَ قَد جُنَّ، وأنَّ العالَمَ الشعريَّ قَد فُجِعَ إلى الأبد. فمضيتُ لسَبيلي، وأنا أسأل الله العافيةَ. وأقول: إن جمالَ المرأةِ أحْقَرُ مِن أن يقتُلَ أوْفَرَ عَقل، وأعْجَزُ أن يُطفِئ أكبرَ قريحةٍ:

ولكنَّها الأقـدارُ تَجري بحُكمِها عَلينَا وأَمـرُ الغَيْبِ سِرٌّ مُحَجَّبُ

تركتُ منزل دي موسيه، ومشيتُ في شارعٍ من شوارعِ باريس، فرأيتُ شَيخًا رثَّ الثياب، زَريَّ الهيئة، يمشي مِشيَةً هادِئَةً، ويَجُرُّ في رجليه نِعالًا باليةً، قد أطَلَّت أصابعُه مِن خُروقِها كما تُطِلُ الحيَّاتُ مِن أحجارِها. فأتبَعْتُه نَظري، فرأيتُه لا يرفَعُ طَرْفَهُ سُكُونًا وإطراقًا، ولا يكادُ يُحرِّكَ عُضوًا مِن أعضائِه رزانَةً وَوَقارًا. فقلتُ في نفسي: إن لهذا الرجُلِ شأنًا. فمشيتُ وراءه حتى رأيتُه قَد وَقَف على الأرض ينتظرُه حتى يعودَ فيَخصِفْ لَه نَعلَه. فسألتُ بعضَ المارَّةِ عنهُ فقال: هذا «كورني» شاعرُ فرنسا. فأخَذَتْني الدهشةُ ومَلَكَني العَجَبُ، حتى كادَ يَحُولَ بَيني وبينَ عَقلي، وقلتُ في نفسي: وَيْحَ لكُم، معشرَ الناس، أتَضِنُّونَ بقِطعَةٍ مِنَ الجلدِ الأسمر، عَلى رَجُل يقلِّدُ أعناقَكُمُ الدُّرَّ والجَوْهَر؟ أعَجِزتُم عَلى أن تُجمِعُوا أمرَكُم عَلي أن تَمسَحُوا هذه الغضونَ عَن تلكَ الجبهةِ التي تجودُ عليكُم كلَّ يوم بما يُفَرِّجُ كُربَتَكُم، ويُخفِّفُ مِحنَتَكُم؟

ثم رجعتُ أدراجي وأنا أقولُ: كانَ قضاءً حَتمًا على الدهر ألا يُنِيلَ هؤلاءِ الأدباءَ من دَهرِهم ما يريدونَ ولا يمنحَهم مِنَ العيشِ ما يَشتهون.

إن في جلسةِ «لامارتين» مُنفردًا في منزلِهِ لا مُؤنِسَ له غيرُ كَلْبه، وفي عُزلَةِ «دي موسيه» في غُرفَتِهِ بينَ دمُوعِه وأحزانِه، وفي جَلسَةِ «كورني» أمامَ حانوتِ الإسكافِ ينتظرُ ترقيعَ نَعلِه، لآيةً للمُتَفَكِّرينَ، وعِبرَةً للمُعتبرينَ.

الآن عدتُ من سِياحتي في ذلك الكتاب أشكُرُ للكاتب ما كَتَبَ، وللمُتَرْجِم ما تَرْجَمَ، وأقولُ مَنْ لي في كلِّ يوم بسياحةٍ مثل هذه السياحَةِ في كتابٍ مثلِ هذا الكتابِ؟

دمعة على الأدب

مات بالأمسِ إمام الشعر البارودي، وإمامُ النثر محمد عبده، فَجَزعْنا ما جزِعْنَا، وسَكَبْنا عَلَيهما منَ الدموع ما سَكَبْنا، ثم كَفْكَفْنا من تلكَ الدموع وخَفَضْنا مِن زفراتِ الضُّلُوع، حينَما سَمِعْنا قولَ القائل: إن في الباقي عزاءً عَن الفاني، وإن الأبناءَ خَلَفٌ من الآباء. ولقد كرَّ على عهدِهما الشهر بعدَ الشهر، والدهرُ بعدَ الدهر، والأدبُ جاثمٌ في مَكمَنِهِ هامِدٌ لَم يُبعَثْ مِن مَرقَدِهِ بعدَ ما قبرناهُ، ولم يُنشَرُ من قبره بَعدما وَارَيْنَاه، فتساءَلْنا: أينَ الباقي الذين يَزعَمُون؟ والخَلَفُ الذي يذكرون؟

أين فطاحلُ اللغةِ العربيةِ، لا السياسيَّة، وأربابُ الأقلام العربيةِ لا الأعجمية؟

عَذَرْنا المويلحي الكبير، واليازجي، لأنهما ماتا ولَحِقا بصَاحِبَيْهما، فهل مات شَوقي وحافِظ والبكري والمويلحي الصغير؟

ما ماتَ منهُم أحدٌ، وإنما كانت حياةُ ذَيْنِكَ الرجلَيْن، حياةَ الصِّناعِيِّينَ، وكان لوُجُودهما سِرٌّ مِنَ الأسرار ينبعثُ في الألسِنَةِ فيطلقُها، والأقلام فيُجريها. وكانت منزلتُهما منَ الأحياءِ منزلةَ الإمِّ من مَصابيح الكهرباءِ، تشتعلُ المصابيحُ بتيارها، وتضيءُ بأسرارها، فإذا فَرَغَتْ مادَّتُها وانقَضَى أجلُها، عَمَّ الظلامُ واشتَدَّ الحَلكُ، والمصابيحُ - كما هي - جسمٌ بلا روح، بلا مَعنى.

أما شوقي فقد طارَ في جَوٍّ غير هذا الجوِّ، في وادٍ غير ذلكَ الوادي، وما زالَت تعبثُ به الأنواءُ حتَّى أغرَقَتْه في شِبر من الماءِ. وأما حافظ فَقَد انقبَضَتْ حياتُه النثرية قبلَ انقِضَاءِ البؤساءِ[1]. أما حياتُه الشعريةُ فلم يَبْقَ مِنها غيرُ نَظْم المقالاتِ السياسيةِ مِن العام إلى العام. وأينَ هذه القيثارةُ البسيطةُ ذاتُ اللحنُ الواحِدِ من ذلكَ العُودِ الأجوفِ الرنَّانِ الذي كُنا نسمَعُ منه مُختَلِفَ الألحانِ وأفانينَ الأشجان؟ وأما البَكري والمويلحي

(١) هو كتاب لـ: فيكتور هيجو» الشاعر الفرنسي، ترجمة حافظ إبراهيم ولم يتمه، وقد أخرجته مكتبة ابن سينا، دراسة وتقديم/ عادل عبد المنعم أبو العباس.

فقد قَضَيا حقَّ التأليفِ هَذَا بَصَهاريجه[1] وذاكَ بَفَتَراتِه[2] ثم لَحِقَا بالسابقين، ومَضَيا على أثَرِ الماضِينَ:

أَيْــنَ سُـكَّـانُـكِ لا أيــنَ لَهُم   أحِـجـازًا أو طـنُـوهـا أم شآمَا

أينَ الروضةُ الغنَّاءُ التي كنا نتفيَّأُ ظلالَها، ونهصرُ[3] أغصانَها، ونقطفُ ما شِئنا مِن وُرودِها ورياحينِها؟ وأينَ البلابلُ التي كانت تنتقلُ بينَ أشجارِها فتطرَبُ بالأغاريد، وتَسْتَهْوَي بالأناشيد؟

فأسْأَلْنها وَاجْـعَـلْ بُكاكَ جَوابًا   تَـجِـد الـدَّمـعَ سَـائِـلًا ومُجيبًا

أنا لا أعجبُ لشيءٍ عَجَبي لهؤلاءِ الأدباءِ: يَحزنُونَ فلا يبكُونَ، ويطَرَبُونَ البلبلُ فيغرِّدُ، ويَشجي الحمامُ فينوحُ، ويطربُ الشاعرُ، ويَشجي الكاتبُ، فلا ينطِقُ لسانُهما ولا يهتزُّ قَلَمُهما؟

لما أسنَّ عمر بن أبي ربيعة وَرأَى أن شعرَ الغزلِ والتصابي غيرُ لائق بَشَيْبِهِ وَوَقَارِه، عَزَمَ على هَجْره فما استَطاعَ إلى ذلك سَبيلًا، وغَلَبَ على أمرِهِ كما يغلبُ المرءُ على غَرَائِزِهِ وسَجَاياه، فاحتالَ لذلكَ بأنْ حَلَفَ ألَّا يقولَ بَيْتًا مِنَ الشعر ألا أعتقَ رَقَبَةً، فَشَكَا إليه رَجُلٌ حُبًّا بَرَّحَ به، فحنَّ واهتاجَ ونَظَمَ أبياتًا في شأنِ الرجُلِ وَوَجْدِه، ثم أعتقَ عَن كلِّ بيتٍ رَقَبَةً.

فهل نَذَرَ أُدباؤنا ما نَذَرَ عمر بن أبي ربيعة، وهُم في شَرخْ الشباب وإبَّان الفتوَّة؟ إن كانوا فَعَلوا ذلكَ فأسْألِ الله لهُم قَصَّةً كقِصَّةِ عُمر تهيجُ أشجانَهم، فتحنثُ أيمانَهُم، والأمَّةُ كفيلةٌ لهم بوفاءِ النذورِ، وكَفَّارةِ الأيمان:

وذو الشوقِ القديم وإن تَعزَّى   مُـشـوقٌ حينَ يَلقَى العاشِقينا

---

(١) هو كتاب «صهاريج اللؤلؤ» للسيد البكري.
(٢) هو كتاب «فترة من الزمن» المسمى بـ«حديث عيسى بن هشام، لمحمد المويلحي.
(٣) هَصَرَ: لَوَى وَكَسَر.

نفس الشاعر

للشاعر ثلاثُ مميِّزاتٍ لا أستطيعُ أن أتصوَّرَ أن الله وَهَبَهُ مَلَكَةَ الشِّعرِ وأَفَاضَ عليهِ روحَه إذا تجرَّدَ مِن واحدةٍ منها: عزَّةُ النفس، وطهارةُ القلبِ، وسَمَاحَةُ اليد.

واجتماعُ هذه الصفاتِ فيهِ هو السببُ في بؤسِهِ وشقائِهِ وعَدَمِهِ وإقتارِه، لأن صاحبَ النفس العزيزةِ لا يَحتملُ مِنَّةً لأحَدٍ، وصاحبَ القلب الطاهِرِ لا يعرفُ كيف يتلمَّسُ وُجوهَ الحِيَلِ لعَيْشِهِ، والكريمَ لا يُبقي على شيءٍ مما في يَدِهِ.

ولقد صوَّر الروائيُّ العظيم «إدمون روستان» عزَّةَ نفس الشاعر وإباءَهُ، وهي الصفةُ الأولى من تلكَ الصفاتِ، أحسنَ تصوير في قطعَةٍ بديعَةٍ من رواية «سيرانو دي برجراك» أقدِّمُها للقارئ؛ لتكونَ مِثالًا صالِحًا للشُّعراءِ يَحْتَذُونَهُ في حياتهم الأدبيَّةِ، وميزانًا يَزِنُ بهِ الناسُ قيمةَ الشُّعراءِ ومَنزلَتَهم منَ الشِّعرِ والأدَبِ.

أُعجِبَ الكونت دي جيش، أحدُ قوَّادِ الجيش الفرنسي وصهرُ الكاردينال ريشليبه وزير فرنسا الشهير، بالشاعرِ العظيم «سيرانوا دي برجراك» يرتجلُ على مسمع منهُ قصيدةً من أعلى طبقاتِ الشِّعرِ وأرقَاهَا فقالَ في نفسه: إن اصطناعَ شاعر مجيد كهذا الشاعر حليةٌ لا يَنبغي أن يفوقَنَا التحلِّي بها. ثم استَدْنَاهُ إليه وكانَ جالِسًا على كُرسِيِّهِ العالي جلسةَ العَظمةِ والكبرياءِ، وقال له: أتحبُّ أن تكونَ لي يا سيرانو؟ فامتَعَضَ الشاعرُ امتِعاضًا شَديدًا، ونظَرَ إليه نظرةً جامِدَةً قاسِيَةً، وقال له: لا، يا سيدي، ولا لأيِّ إنسان. قال: إنَّ صِهري الكاردينال يُعجَبُ بكَ جدًّا، وكثيرًا ما سمعتُه يُثني عليكَ وعَلى أدبكَ. وقد علمتُ أنك نظَمْتَ منذُ عهد قريب روايةً تمثيليةً جميلةً اسمها «أجريبين» لم تُوَفَّقْ إلى تَمثيلِها حتى اليوم. فلو أنكَ ذهبتَ بها إليه وقدَّمْتَها له لَعَرفَ لكَ فَضْلَكَ فيها، وأَحسَنَ جَزاءَكَ عليها. وربما نَوَّهَ بشأنها وشادَ بذِكرها، فاهتَمَّتِ الملاعِبُ بتَمثيلِها، وتمَّ لكَ ما ترجُوهُ لنفسِكَ منَ المجدِ والفَخار. والرجَلُ كما تعلمُ، شاعرٌ جليلٌ راسِخُ القَدَمِ في النقدِ الأدبي، وسينظُرُ في روايَتِكَ هذه نَظَرَ الناقِدِ البَصير. ولا

أحسَبُهُ يَضنُّ عليكَ بتهذيب ما يحتاجُ إلى التهذيب من أبياتِها، فتأتي آيةَ الآياتِ في حُسنِها وجَمالِها.

فاكفَهَرَّ وجهُ سِيرانو وتغَضَّن[1] جَبينُه، وقال له: ذلك مستحيلٌ يا سَيِّدي وإن دَمي ليَجمِدُ في عُروقي عندَما أتَخيَّلُ أن إنسانًا في العالم يحدِّث نفسَه بتَغييرِ حَرفٍ واحِدٍ في قصيدةٍ من قصَائدي.

فعجِبَ الكونت لأمرِهِ وقال له: ولكنَّكَ تَعلمُ من شأنِهِ أنه حينَ يَعجَبُ بيتٍ من الشعر يدفَعُ ثمنَهُ غالبًا. قال: ربما كان ذلك صَحيحًا. ولكنّه لا يستطيعُ أن يبذلَ فيه منَ الثمنِ مثلَ ما أبذُلُ. لأنني أسكُبُ في شِعري دَمَ قلبي حَارًّا، ودمُ القلب أغلَى ثَمَنًا مِنَ الفِضَّةِ والذَّهب. فقال: يظهر لي أنك أبيُّ النفس يا سيرانو. قال: نعم، يا سيدي، ما في ذلكَ شَكٌّ. وإني أحمُدُ اللهَ على أنك قد شَعَرْتَ بذلك.

فاستشاطَ الكونتَ غَضبًا وقامَ من مجلِسه ساخِطًا. وهو يَعجبُ أشدَّ العَجَبَ لكبرياءِ هذا الرجُل الذي يرفُضَ قبولَ نِعمَةٍ تَسيلُ على مثلِها نفوسُ الشعراءِ والرِّوائيين جَميعًا.

وكانَ لبريه صديقُ سيرانو جالِسًا بجانبه، فأخَذَ يُعَنّفُهُ بعدَ انصرافِ الكونتِ، ويَلومُهُ على حمقِهِ ورُعونَتِه، ويَنْعَي عليه خُشونَتَهُ وغلظَتَه، ويقول له: إنكَ قد أضعتَ فرصةً كان جَديرًا بكَ أن تفْتَرِصَها حينَ لاحَتْ لكَ، فقد كنتَ في أشدِّ الحاجَةِ إلى مَنْ يرفَعُ لكَ شأنَ روايَتِكَ وينُوِّهُ بذِكرها، ويمسَحُ عن رأسِها غبارَ الخمولِ والضَّعَةِ، ويأخُذ بيدِكَ في طريقِ المجدِ الذي تحبُّهُ وتعشقُهُ. فماذا أنتَ صانعٌ بعد ذلك؟ فانتَفَضَ سيرانو غَيْظًا، واستوى في مكانِهِ جالِسًا، وألقَى على صديقِهِ نظرةً طويلةً هادِئَةً، وأنشأ يقولُ له بصَوتٍ قَويٍّ رنَّان:

ماذا تريدُ مني يا لبريه؟ أتريدُ أن أعتَمِدَ في حياتي على غَيري وأن أضعَ زِمامَ نفسي في يدِ عَظيمٍ من العظماءِ أو نَبيلٍ من النبلاءِ يَصطنِعُني ويُجنِّبني مؤونَةَ عَيشي ويحمِلُ عنِّي هُمومَ الحياةِ وأثقالَها، فيكونَ مَثَلي مَثَلَ شجرةِ «اللبلاب» لا عَمَلَ لها في حياتها سِوى أن تَلتَفَّ بأحَدِ الجذوعِ تلعقُ قشرتَهُ وتمتصُّ مادَّةَ حياتِهِ بَدَلًا من أن تَعتَمِدَ في حياتِها على نفسِها؟ ذلكَ ما لا يكُون.

---

(١) تغضن: تجعد.

أتريدُ أن أحمِلُ نفسي على عاتقي كما يحمِلُ الدَّلَّالُ سِلعَتَهُ وأدورُ بها في الأسواقِ مُناديًا عَليها: مَنْ منكُم، أيها الأغنياءُ والأثرياءُ والوزراءُ والعظماءُ وأصحابَ الجاهِ والسلطانِ، يبتاعُ نَفْسًا بذمَّتِها وضَميرها وعَواطِفِها ومَشاعِرها بلُقمَةِ عيشٍ وجُرعَةِ ماءٍ؟

أتريدُ أن أنصُبَ نفسي سُخريةً في الأنديةِ الخاصَّةِ والمجتمعاتِ العامَّةِ، ألعبُ كما يلعبُ القردُ، وأنطِقُ كما تَنطِقُ الببغاءُ، وأتلوَّنُ كما تَتَلوَّنُ الحرباءُ، رجاءَ أن أَجِدَ التفاتَةً من عَيْنَيْ أميرٍ، أو أرَى ابتِسامَةً على شَفَتَيْ وَزيرٍ؟

أتريدُ أن تستحيلَ قامتي إلى قَوْس من كثرةِ الانحناءِ، وأن تتهَدَّلَ أجفاني من كثرةِ الإطراقِ والإغضاءِ[1] وأن تجتمعَ فوقَ رُكبتي طبقةٌ سميكةٌ من كثرةِ السجودِ والجثيِ بين يَدي العُظماءِ؟

أتريدُ أن يكونَ لي لسانان: لسانٌ كاذبٌ أمدحُ به ذلك الذي اصطَنَعَني واجتَباني[2]، ولسانٌ أُعدِّدُ به عيوبَهُ وسيِّئَاتِه، وأن يكونَ لي وجهانِ: وجهٌ راضٍ عنه؛ لأنه يَذودُ[3] عني ويَحميني، وَوَجْهٌ ساخِطٌ عليه لأنه يَستعبِدُني ويَسترقُّني؟

أتريدُ أن أقضي حياتي كلَّها واقفًا وَسَطَ دائرةٍ واحدةٍ أثِبُ فيها وأظفرُ وأتطاوَلُ بعُنقي ليتوَهَّمَ الناسُ أني طويلٌ وما أنا بطويل، أو أتَّخِذَ لي بُوقًا ضَخْمًا أنفخُ فيه ليتوَهَّمَ السامعونَ أني جَهْوَرِيُّ الصوتِ وما أنا إلا نافخٌ في بُوقٍ؟

أتريدُ أن أُسَيِّر سفينةَ شِعري في العالَم بأذرُعِ العُظمَاءِ والكُبراءِ، بَدَلًا من المجاذيفِ التي أنحتُها بفأسي، وبشعُور «الدوقات» الغانياتِ بَدَلًا من الأشرعَةِ التي أنسجُها بيدِي، وبتنهُّداتِ الأميراتِ العاشقاتِ بدلًا من الرياحِ الجارِيَةِ التي يُسَخِّرُها اللهُ لي؟

أتريد أن أجعَلَ حيَاتِي الأدبيةَ تحتَ رحمةِ المقرِّظينَ[4] والناقِدينَ، والراضِينَ والساخِطينَ، فإن شاءُوا رَفَعُوني إلى علياءِ السماءِ، وإن شاءُوا هَوَوْا بي إلى أعماقِ الجحيم؟

ذلكَ ما يكونُ، الموتُ أهونُ عليَّ من ذلك.

أريدُ أن أعيشَ حُرًّا مُستقلًا لا أخشَى أحَدًا ولا أهابُ شيئًا، لا يَعنيني تهديدُ الجرائدِ التجاريَّةِ الساقِطَةِ، ولا يُفرحُني أن تنشرَ الصحفُ الكبيرةُ اسمي بالأحرفِ الضَّخْمَةِ في

(١) الإغضاء: السكوت.
(٢) اجتباني: اختارتي.
(٣) يذود: يدافع.
(٤) المقرظين: المادحين.

أكبر أنهارها، ولا أُبالي أَتداول الناسُ قَصائدي وتَدارَسُوها وَرَنَّتْ نَغَمَاتُها في أرجاءِ المسارح؟ أم بَقِيَتْ في كسر خِزانتي أقرأُها بنفسِي لنفسِي وأتغنَّى بها في ساعاتِ وحَشتي وخَلوتي.

أريدُ أن أعيشَ حُرًّا، أضحكُ كما أشاءُ وأبكي كما أريدُ، وأحتفِظُ بنَظَري سَليمًا وصَوْتي رَنَّانًا، وخُطواتي مُنتظِمَةً ورأسي مُرتَفِعًا، وقَوْلي صَريحًا، أنظمُ الشعرَ في الساعةِ التي أختارُها، وفي الشأن الذي أريدهُ. فإن أعجَبَني ما وَرَدَ عليَّ منه فذاك، وإلا تَرَكْتُهُ غيرَ آسف عليه وأخَذْتُ في نَظْم غَيرِهِ بَدَلًا من أن أتوسَّل إلى الطابعينَ أن يَنشُروهُ، والأدباءِ أن يُقرِّظُوهُ، والممثِّلينَ أن يُمثِّلوهُ، والعظماءِ أن يُنوِّهوا به ويَرفَعُوا من شأنِهِ.

أحبُّ أن لا أنظمَ من الشعر إلا ما يَجُود به خاطري، وأن لا أنظمَ إلا بالطريقَةِ التي أريدُها أنا، لا التي يريدُها الناس لي، وأن لا أُمتِّعَ نَظَري إلا بمنظَر الأزهار التي أغرِسُها بيدي في حَديقتي. فإن قَدَّرَ اللهُ لي منزلةً في الحياةِ فلن أكونَ مَدينًا بها لأحدٍ غيري، ولن يكونَ فخرُها عائدًا إلا عليَّ وَحدي، ولا أسمَحُ لأحدٍ من الناس كائنًا مَنْ كانَ أن يَرفَعَني، بل لابدَّ لي أن أرفَعَ نفسِي بنفسِي.

أُريدُ أن أعيشَ حُرًّا طَليقًا أُناضِلُ مَنْ أَشَاءُ، وأُجادِلُ مَنْ أَشاءُ، وأنتقِدُ مَنْ أشاءُ، وأن أقولَ كَلِمتي الخيرِ والشرِّ للأخيار والأشرار في وُجُوهِهم، لا مُتَمَلِّقًا أولئكَ، ولا خاشِيًا هؤلاءِ. إن العبدَ المقيَّدَ بقُيُودِ الإحسانِ والنِّعَم لا يمكنُ أن يكونَ حُرًّا طَليقًا. فَلْيَعْفِني الناسُ من أياديهم وصَنَائِعِهم لأني لا أُحِبُّ أن أكونَ عَبدًا لهم، ولا أسيرًا في أيديهم.

وآخرُ ما أقول لك إني أُفضِّلُ أن أعيشَ ممقوتًا مَرذولًا عندَ الناس على أن أعيشَ ذليلًا مَستعبدًا لهم، ولا أحبُّ أن أرتفعَ ارتفاعَ الزيزفونِ والسَّرْوِ إذا كانَتِ اليدُ التي تَرفَعُني غيرَ يَدي. وحَسبي من الرفعةِ والشرفِ أن أنالَ منها نَصيبي الذي قُسِمَ لي قدرَ ما تسمَحُ به قُوّتي ومَواهبي لا أزيدُ على ذلك شيئًا.

فقال له لبريه: عِشْ بنفسِك وَحيدًا كما شئتَ، ولكن لا تكُن عَدُوًّا للجميع.

قال: ربما أكونُ مغاليًا في ذلك. ولكنْ ما داعاني إلى المغالاةِ في المعاداةِ إلا مغالاتُكم معشرَ المتكلفِّينَ والمتعلِّمينَ في المصادَقةِ والموالاةِ، وتصنُّعُكم في اجتِذابِ الخِلّانِ والأصدقاءِ. وما بَغَّضَ إليَّ التوادَّ والتحابَّ إلا بُغضي لتلكَ الابتساماتِ الباردةِ

الثقيلةِ التي تنفرجُ عنها شفاهُكُم كلّما قابَلْتُم صَديقًا أو عَدُوًّا، شَريفًا أو وَضيعًا، كَريمًا أو لَئيمًا؛ حتى أصبحتُ لا أُحِبُّ شيئًا في العالَم حبِي لبُغض الناس إيَّايَ، ولا أكرَهُ شيئًا كُرْهي لحبِّهم لي وتودُّدِهم إليَّ.

هذا هو عَيبي الوحيدُ الذي لا أعرفُ لنفسي عَيبًا سِواهُ، ولكنَّه عَيبٌ يُعجبني جِدًّا ويلذُّ لي كَثيرًا. وإنك لا تستطيعُ أن تُدركَ مِقدارَ ما أجدُ من اللذَّةِ والغِبطَةِ في نفسي عندَما أسيرُ في طَريقي فأراهُ مملوءًا بنظراتِ البُغض، مُلتَهبًا بنيرانِ الحِقدِ، وأرى نفسي مُحاطًا بنطاقٍ مُحكَم من قلوب الساخِطينَ والناقمينَ.

أما الشتائمُ التي أسمعُها واللعناتُ التي تُصَوَّبُ إليَّ فهي أشبَهُ الأشياءِ عندي بذلك البَرَدِ المُتساقِطِ الذي يتناثَرُ من الجوِّ على ردائي ثم ينزلقُ عنه إلى الأرضِ فأدوسُه بقَدَمي.

إن الصداقةَ الباردَةَ المُتفَكِّكَةَ التي يَسعى وراءَها الناسُ أشبَهُ شيءٍ بالياقَةِ الإيطاليَّةِ اللينة التي تتَهَدَّلُ حولَ العُنُق فيتهدَّلُ العنقُ معها، فهي، وإن كانت ليِّنَةً مُريحة، إلا أنها رَخْوَةٌ مُهَلهَلَةٌ ليست لها مَسكَةٌ ولا قُوام.

أمَّا العداوةُ فهي الدرعُ الفولاذيَّةُ الصلبَةُ التي تَدورُ بالجسم فتحفظُ كيانَهُ وقوَّتَهُ، وتمنعُهُ عن أن يَضعفَ أو أن يخورَ، وكلُّ عَدُوٍّ جديدٍ هو حلقةٌ جديدةٌ في تلكَ الدرعِ القويةِ المتينةِ.

هذا هو المثلُ الذي ضربَه «أدمون روستان» للشُّعراءِ والأُدباءِ ليكونَ عِبرةً لهم وميدانًا لأقدارهم ومَنازلهم. ولقد قَضَى سيرانو بقيَّةَ أيامِهِ بعدَ ذلكَ مُحافظًا على مَبدَئِهِ لا يحتَمِلُ مِنَّةً لأحَدٍ، ولا يمدُّ يدَه بالسؤال لأحَدٍ، ولا يُعطي هوادَةً في حَقٍّ من الحقوقِ أو مَبدإٍ مِنَ المبادئ. ينتقدُ رجالَ الدين الذين يَتَّجرونَ بدينهم، والأشرافُ الذين يمالئونَ الظَلَمَةَ على ظُلمِهم وجَورهم. فعاشَ فقيرًا مُعدَمًا مُضطهَدًا حتى ماتَ موتَ المساكينِ المُعْوَزينَ، ولكنَّه عاش بعدَ ذلكَ في صفحاتِ التاريخِ عَيْشَ العظماءِ النابهين.

جوستاف لوبون وفتحي زغلول

إنَّ لِكتاب «روح الاجتماع» عِندي يَدًا لا أنساها لمؤلِّفه الدكتور جوستاف لوبون، ومُترجمِه العالم الفاضِل سعادة «أحمد فتحي زغلول باشا». فقد وَجَدَني ضَالًّا فَهداني، وحائِرًا فَرَفَع لي مِنارًا أحمرَ حتى عرفتُ السَّبيل.

كنت أَنقِم من هذا المجتمع المصريِّ شُئونًا ما كنتُ أنقِمُ مثلَها من غيره من المجتمعاتِ البَشَريَّة. وقد كنتُ أكادُ أعتقدُ أنه مجتمَعٌ شاذٌ غَريبٌ في أطوارِه وَصِفَاته. حتى قرأتُ الكتابَ الذي شَرَحَ طبيعَةَ المجتمعاتِ عامَّةً، شرقِيِّها وغربيِّها، وقَرَّرَ لها حُكمًا واحِدًا يختلفُ ولا يَتَخَلَّفُ. فعرفتُ أنْ لا فَرْقَ بينَ الشعب المصريِّ وغيرِهِ مِنَ الشعوب الأُخرى إلا كما يكونُ بينَ الشيءِ والشبيهِ بِهِ مِنَ الاتِّفَاقِ في الجَوْهَرِ والكيفيَّةِ والاختِلافِ في العَرَضِ والكميَّة.

كنتُ أعجَبُ للجَماعَةِ المؤلَّفَةِ مِن أَتباع الحزب الوَطَنِيِّ أَن أراها مائِلَةً إلى تصديق زُعماءِ ذلكَ الحزب في دَعواهُمُ القُدرَةَ على إزعاج الاحتلالِ الإنكليزيِّ من مَكانِهِ، ومُقاوَمَةِ قوَّتِهِ القاهِرَةِ بمقالاتٍ يُسطِّرونَها، أو خُطَبٍ يُنَمِّقُونها؛ وعَلى انتزاعِ الدستورِ من يَدِ صَاحَبِ الأمرِ فيه بصُراخ الشوارع، وهُتافِ المجامع؛ بَل إلى تَصديقِ كلِّ قائم بينَها، سواءُ أكانَ هِنديًا أو جَركسيًا أو بَربَريًا أو نُوريًا أو فَرنَسيًا أو إنكليزيًا، زاعِمًا أنه يخدُمُ الوطنيَّةَ المصريةَ بصدقٍ وإخلاص، كما صدَّقت بالأمس المستر بلانت الإنكليزيَّ في دَعواهُ أنهُ قَد نزلَ مِن حُبِّ الوَطن المصريِّ مَنزلَةَ مَنْ يُهدي النصائحَ والعِظاتِ إلى الخديوي السابق أكبر أصحاب الشأنِ في القضيَّةِ المصرية، ويُعلِّمُهُ كيف يكونُ وطنيًا؛ وكما صَدَّقت اليومَ المسيو ديروجا الفرنسيَّ والمسيو دراجيلا الإسباني، في دَعواهُما الغيرةَ عَلَيها، والاهتمامَ بشأنها وظهرَتْ في تَوْدِيعهما إلى مَنفاهُما بمظهر تتصبَّبُ لهُ الجباهُ عَرَقًا، وتَنْدَى له الوجُوهُ الكريمَةُ حَياءً وخَجَلًا. فلما قرأتُ في «روح الاجتماع» له: «ولما كانتِ الجماعةُ على الدوام مُحَلِّقَةً في حدودِ اللاشعور تتأثَّرُ

بالسهولةِ من جَميع المؤثِّراتِ، وذَاكَ إحساس قَويٌّ كإحساس الأشخاص الذين لا يُمكِنُهُم الاستعانَةُ بالعقل، ومجرَّدَةً من مَلَكَةِ النقدِ والتمييز كان مِن شأنها أن تكون سَريعَةَ التصديق سَهْلَةَ الاعتقاد»، عَرَفتُ أن تلكَ طبيعَةُ الجماعات، وأنَ ليس الذنبُ عَلَى المجتمع المصريِّ خاصَّةً بل على المجتَمَعاتِ الإنسانيَّةِ عامَّةً.

وكنتُ أعجَبُ للرجُل الذي لا بأسَ بلُبِّه، ولا ظُنَّةَ في فَهمِهِ وإدراكِهِ من محام بارع، أو طبيب حاذقٍ، أو عالِم مُحقِّق، أو باحِثٍ مُدَقِّق، أن أراهُ على جلالِهِ وعُظْمِهِ مُنتَصِبًا وَسَطَ أتباع الحزب الوطنيِّ يَضجُّ ضجيجَهم، ويصرخُ صُراخَهُم، ويقولُ بما يقُولونَ، ويفهمُ كما يَفهمونَ، ويتقلَّبُ في أكُفِّهم تقلُّبَ الكُرَة في أكُفِّ اللاعبين، ويُشارِكُهُم في تَصَوُّرِ ما لا يُتَصَوَّرُ، وتصديق ما لا يكونُ، حتى قرأتُ في «روح الاجتماع» قولَه أثناءَ الكلام على قابليَّةِ الجماعةِ للتَّصديق بالخيالاتِ الباطلة: «ولا يَنبغي في ردِّ ما تقدَّم الاحتجاجُ بمَنْ كانَ بينَ تلكِ الجماعاتِ من أهل العقل والذَكاءِ الوافِر، لأنه لا تأثيرَ لتلكَ الصِّفَةِ في مَوضُوعِنا، إذ العالِمُ والجاهِلُ سواءٌ في عَدَم القدرةِ على التمييزِ ما دَامُوا في الجماعة».

وقَوله في موضع آخر: «وأشدُّ الناس افتراقًا من حيثُ مداركُهم يَتَشابَهُونَ في الوجدانيَّاتِ وَالشَّهواتِ والمشاعر. وأعظمُ الرجالِ لا يَتَفاوتُونَ عن العامَّةِ في الأمور التي مَرجَعُها الشعورُ كالدِّين والآداب والميل والنُّفور وهكذا إلا نادِرًا. فقد يكونُ بينَ الرياضِيِّ الكبير وبينَ صانعِ حِذائِهِ بُعْدُ ما بينَ السماءِ والأرض من حيثُ العقلُ والذكاء، ولكنَّ الفرقَ بينَهما في الطباع مَعدُومٌ في الغالِب أو هو ضعيفٌ للغاية».

وقولَه في موضِع آخرَ: «يهبط بمجرَّدِ انضمامِهِ إلى الجماعَةِ عِدَّةَ درجاتٍ مِن سُلَّم المدنيةِ، ولعلَّه في نفسِه كانَ رجُلًا مُثقَّفَ العَقل، مُهذَّبَ الأخلاق، ولكنَّه في الجماعة ساذَجٌ تابعٌ للغَريزَة. ففيه اندفاعُ الرجلِ الفِطريِّ وَشِدَّتُه، وَفيهِ عُنفُهُ، وَفيهِ حماسَتُهُ وشَجاعَتُهُ، وَفيهِ من سُهولَةِ التأثُّر بالألفاظِ والصُّوَر مما لم يكُن يَتأثَّرُ بهِ وهو خارج الجماعة. ثم فيه الانقيادُ بذلكَ إلى فِعل ما يخالِفُ مَنافِعَهُ البديهيَّةَ ويناقِضُ طباعَةُ التي اشتهَرَتَ عَنه. وبالجملةِ فإنَّ الإنسانَ في الجماعَةِ أشبَهُ بحَبَّةٍ من رمالٍ تثيرُها الرياحُ ما هبَّت». هنالكَ هَدأَ خاطِري، وثَلَجَ صَدري. وأمكنني أن أقولَ إن أذكياءَنا ليسُوا بأغبياءَ، وعُلَمَاءَنا ليسوا بجُهلاءَ، ولكنهم انضمُّوا إلى الجماعةِ فنَزَلُوا منها مَنزِلَةَ أمثالِهِم مِن أمثالِها في كلِّ زَمانٍ ومَكان.

وكنتُ أعجَبُ لخضوعَ أتباع الحزب الوطنيِّ لرُؤسائِهم الذينَ يُؤذُونَهم ويمثِّلونَ بهم ويستَلِبُونَ أموالَهُم إن كانوا أغنياء، وقُواهُم إن كانوا أقوياء، ومُستقبَلَهم إن كانوا مُتعلِّمين، وحاضِرَهُم إن كانوا مُوَظَّفين، وعُقُولَهم إن لم يكُونوا شَيئًا من هَذا وَذاكَ. كما كنتُ أعجَبُ لانصرافِهم عَمَّن يأخُذُهُم باللين ويَرْفُقُ بهم، ويحنُو عَليهم، ويضَعُ يَدَه في أيديهم في مَزالِق الحوادِثِ مخافَةَ أن تزلَّ بهم أقدامُهم. فما زال عَجَبي حتى قرأتُ «روح الاجتماع» قولَه في حَديثِهِ عن الجماعة: «وهي صورةٌ من صُوَر الضعفِ ليسَ إلا. لذلك لم تَمِلْ إلى رؤسائِها الذين عُرفُوا باللين والرِّفقِ، بَل إلى الطُّغاةِ المستبدِّينَ الذين سَحَقُوها».

وكنت أعجَبُ لاهتِمامهم بمُطالَعَةِ المقالاتِ السياسيَّةِ التي تنشُرُها جرائِدُ حزبهم، وتأثُّرِهم بها على ما تشتَمِلُ عليه منَ الأدلَّةِ الفاسِدَةِ والمعاني السَّقيمَةِ، والأساليب البارِدَةِ، والبراهين المُلَفَّقَةِ التي يأنَفُ عقلُ العاقِلِ أن يمنَحَها حتى النظرةَ الأولى. وكنتُ أظنُّ أنَّ ذلك راجِعٌ إلى فَسادٍ ذاتيٍّ في أذواقِهم، أو ضُعفٍ غريزيٍّ في مَداركِهم، حتى وقفتُ على الحقيقةِ عندَ الاطلاع على قَوْلِ صاحب «روح الاجتماع»: «إن رابطَةَ الأفكار التي تقارنُها الجماعاتُ بعضِها ببعضٍ من حيثُ المشابَهَةُ أو التلازمُ ظاهريَّةٌ لا حَقيقيَّة. فهي تَتَسَلْسَلُ عندَها كما تتسلْسَلُ الأدِلَّةُ في ذِهن الرجُل الإسكيماويِّ الذي عَرَفَ بالتجربَةِ أن الثلجَ، وهو جسمٌ شفَّافٌ، يذوبُ في الفَم، فاستنتَجَ من ذلكَ أنَّ الزجاجَ، وهو شَفَّافٌ أيضًا، يجبُ أن يذوبَ في الفَم؛ وكالمُتَوَحِّش الذي يتصوَّرُ أن أكْلَ قلب العدوِّ الشجاع ينقُلُ شجاعَتَهُ إلى الآكلِ. والحاصِلُ أنَّ تعقُّلَ الجماعاتِ عبارَةٌ عن الجمع بينَ أشياءَ مُتخالِفَةٍ لا رابطَةَ بينَها إلا في الظاهر، والانتقالُ الفُجائِيِّ منَ الجزئيِّ إلى الكُلِّيِّ، ومن التَّخصيصِ إلى التَّعميم بلا تروٍّ. والأدِلَّةُ التي يقدِّمها إليها أولئكَ الذين عَرَفُوا كيفَ يَقُودُونها كلُّها من هذا الطراز؛ لأنها هيَ الأدلَّةُ التي تُؤَثِّرُ فيها بخلافِ سلسلة من الأدلةِ المنطقيَّةِ، فإنها لا تُدركُها بحالٍ. فالخطيبُ الخبيرُ بأحوال جماعَتِهِ يعرفُ طريقَةَ استحضار الصُّوَر التي تجذبُها، فإذا نَجحَ فذلكَ ما أراد. وَلَوْ أَلقيتْ خُطَبٌ في عِشرينَ مُجلَّدًا بعدَ ذلكَ ما كانَ لها من التأثير ما أحدَثَتْهُ تلكَ الكُلَيْماتُ التي دَخلَتْ في الرؤُوسِ المرادِ إقناعُها».

وكنتُ أعجبُ لإعراضِ المتعلِّمينَ مِنهُم عَن الحقائق التاريخيَّةِ والسياسيَّةِ والاجتماعيَّةِ المتَعَلِّقَةِ بذلكَ، فالمسألةِ المصريةِ وعلاقةِ الدول الأجنبيَّةِ بها عامَّةً،

والدولِ المحتَلَّةِ خاصَّةً، وتقدير الفرقِ بينَ قُوَّةِ الدولةِ الغاصِبَةِ وقوَّةِ الأمَّةِ المغصوبَة، وتنظيمِ حَلقَاتِ الوسَائلِ المُوصِلَةَ إلى سَعادَةِ مِصرَ واستقلالِها، وطيرانهم وراءَ الذينَ يَقولونَ لهم: «الجلاءُ على الأبواب»، و«الدستورُ قابَ قوسين أو أدنى»، و«قطَعْنا شَوطًا بعيدًا»، و«لم يبقَ إلا القَليل»، و«الدولةُ العثمانيةُ بدأَتْ تهتمُّ بشأنِنا»، و«الحكومةَ الألمانيةُ تساعدنا»، و«الحكومةُ الإنكليزيةُ ترتَعِدُ فرائصُها منا»، و«أوروبا جميعُها تحسبُ لنهضتِنا ألفَ حساب»، وأمثالَ ذلكَ مما هو أشبَهُ بخيالاتِ الأطباءِ الذين يُحاوِلُون تعزيةَ المَرْضَى والمُشرفين، وخرافاتِ المنجِّمِينَ الذين يَعبثونَ بعقولِ عَجَزَةِ الشيوخِ وجَهَلَةِ النساءِ. حتى قرأت في «روح الاجتماع» قوله: «سارتِ الفلسفةُ إلى الأمام شَوطًا بَعيدًا، ولكنَّها مع تقدُّمِنا لم تهيِّئ للجماعاتِ خَيالًا يَلَذُّها، والجماعاتُ لا غِنًى لها عن الأوهام. لذلك اندفَعَتْ وراءَ غَريزَتها، وذهبَتْ إلى تُجَّارِ البلاغَةِ الذين يبيعُونَها تجارَةً حاضِرَةً مَثَلُها كمَثَلِ الحَشَرَةِ التي تدرجُ حينَ يكونُ الضياءُ.. فما كانتِ الجماعاتُ في ظَمَأٍ إلى الحقيقةِ طولَ حياتها. وإذا تبدَّت أمامَها وكانتْ تُغضبها أعرَضَتْ ونأَتْ وراحَتْ تعبُدُ الأوهامَ التي تَرْضَى الإمرَةَ عليها لمَنْ أَضَلَّها. والويلُ منها لمَنْ هَدَاهَا». فعلمتُ أن تلك الجماعةَ ليستَ جاهلةً ولا قاصرَةً، ولكنَّها جماعة. ومِنَ الضروريِّ أن تكونَ كذلك.

وكنت أعجَبُ لتشيُّعِهم للدستورِ واحتِفالِهم بهِ، وإلحاحِهم في طَلَبِهِ إلحاحَ الفاهِمِ المُدرِكِ. وأنا أعلَمُ أن أكثرَهُم لا يفهمونَ منهُ إلا أنه القُوَّةُ، فلو عرفُوهُ حقَّ معرفَتِهِ لوَجَدُوا في أنفسِهم أن عَدَمَهُ خَيرٌ لهم مِن وُجُودِهِ الذي يقتَدِرُ به الشعبُ على أن يأكُلَ بعضَهُ بَعضًا بلا رَقَبةٍ ولا حَذَرٍ؛ لأنه عَدْلٌ ورَحمَةٌ، ولأنه يمنَعُ ظَلَمَةَ الآكلينَ أن يَجدوا ما يأكلونَ. فلم أقِفْ على سِرِّ تشيُّعِهم لهُ وهو في الحقيقةِ أبغَضُ الأشياءِ إليهم، حتى قرأتُ في ذلكَ الكتاب قولَه: «وكم مِن جماعةٍ تقدَّمت إلى الموتِ في سَبيلِ مُعتَقداتٍ وأفكارٍ وكلماتٍ كانت تكادُ لا تَفْقَهُ شَيئًا من مَعانِيها.. لأنَّ المصلحَةَ الذاتيةَ قلَّما تكونُ سَبَبًا قوِيًّا لحركاتِ الجموع».

وكنتُ أراهُم غالبينَ في مَشاعِرهم، مُتَطرِّفينَ في مُيولِهم. وأرَى أنَّهم إما أنَ يحبُّوا فيعبدوا، وإما أن يُبغِضُوا فيَقتلُوا، وأن الرجلَ عندَهم إما أن يكونَ إلهًا أو شيطانًا ولا ثالثَ لهما، وأنّ رضَاهُم عن رُؤساءِ حِزبِهم لا يقلُّ عن رضاهُم عن رُسُلِهم وأنبيائِهم الذين هَدَوْهم الصِّراطَ المستقيمَ فأكادُ أخصُّهُم بصِفَات الغَفلَةِ والبَلَهِ لولا أن كَشَفَ

لي «روح الاجتماع» سِرَّ المسألةِ في قوله: «غلُوَّ مشاعر الجماعةِ وبَساطَتُها يجعلانها لا تعرفُ الشكَّ ولا التردُّدَ. فهي كالنساءِ تذهَبُ فورًا إلى الحدِّ الأقصى. فالشبهَةُ متى بَدَتْ تنقلِبُ إلى بَديهي لا يقبَلُ البحثَ. والرجُلُ مُنفردًا قد لا يقرُّ على أمرٍ أو ينفُرُ منهُ نُفورًا لا يتعَدَّى مجرَّدَ الرغبةِ عنه. وأما الرجُلُ في الجماعةِ فإنهُ متَى نَفَرَ انقلَبُ نفورُه حِقدًا شَديدًا».

وقولَه في موضِعِ آخر: «كثيرًا ما سَمِعنا عن مَلهًى كان يُكثِرُ من تمثيلِ الرواياتِ المحزنَةِ، فكانَ الحرسُ يُحيطُ دائمًا بمُمَثِّلِ الخائنِ الأثيم عندَ خُروجِهِ خوفًا عليه من هياجِ المتفرِّجينَ الذين ثارَتْ نُفُوسُهم للانتِقامِ منهُ؛ لأنه ارتَكَبَ تلكَ الجرائمَ الوهميَّةَ. وهذا فيما أرَى من أكبرِ الأدِلَّةِ على حالةِ الجماعاتِ العقليَّةِ وبالأخصِّ على سُهولةِ التأثيرِ فيها. فَلِلْوَهْمِيِّ عليها من ذلكَ ما لِلْحَقيقِيِّ تقريبًا، وهي ميالة مَيلًا ظاهرًا إلى عَدَمِ التمييزِ بينهما».

وكنتُ أعتقِدُ أنَّ لا شيءَ يُؤَثِّرُ في نُفُوسِ الجماعاتِ غيرُ إخلاصِ الدُّعاةِ. ثم استَحال عليَّ التوفيقُ بينَ ما أعتَقِدُ وبينَ ما أعلَمُ من أطوارِ زعماءِ الحزبِ الوطنِّي ودَخائِلِ نُفُوسِهِم أنَّهم لا يطلبُونَ مما يعمَلُونَ في هذه الحياةِ غيرَ ما يطلُبُ كلُّ عامل فيها من لُقمَةٍ سَائِغَةٍ، وجرعَةٍ صافِيَةٍ، ومَرْكَب فارهٍ[1] ومُتَّكأ[2] وثير. حتَّى اهتَديْتُ إلى حَلِّ هذه العقدَةِ في قولِ صاحبِ «روح الاجتماع»: «وُجِدَ القُوَّادُ في الأُمَمِ على الدوام. غيرَ أنَّهم ليسُوا جَميعًا من أهلِ الاعتِقَادِ الصادِقِ الذي يصيرُ به المرءُ رَسُولًا في قَومِهِ. بَلْ هُم في الغالبِ سُوفسَطائيُّونَ لا يَسعَوْنَ إلا وراءَ مَنافِعِهم الذاتيَّةِ فيتمَلَّقُونَ ذوي المشاعِرِ السافِلَةِ؛ ليكتَسِبُوا رِضَاهم. وقد يكونُ النفوذُ الذي ينالونَه بهذهِ الوسائل كَبيرًا جِدًّا أنه سَرِيعُ الزَّوال».

وكنتُ أعتقِدُ أن أقدَرَ الناسِ على قِيادَةِ الجماعاتِ أذكاهُم قَلْبًا، وأوسَعُهم عقلًا، وأفصَحُهم لِسانًا، وأجرأُهم قَلَمًا. فلما رأيت أن قُوَّادَ الحزبِ الوطنيِّ ليس فيهم مَنْ يمتازُ عن أفرادِ الطبقةِ التي نَشأَ فيها بميزةٍ خاصَّةٍ من طلاقَةِ لسانٍ، أو بلاغَةِ قلمٍ، أو عِلمٍ واسعٍ، أو خُلُقٍ مُؤَثِّر، وقفتُ أمام هذه المُعضِلَةِ المُستَعصِيَةِ وقفَةَ الحائرِ المضطرب، حتَّى قرأتُ في «روح الاجتماع» قولَه: «ليسَ القوادُ غالبًا من أهلِ الرأي والحصَافَةِ، بَلْ هُم من أهلِ العَمَلِ والإقدامِ، وهم قليلُو التبصُّر. على أنه ليسَ في استِطاعَتِهم أن

(١) فاره: خفيف نشط حازق.

(٢) وثير: لين ناعم، يقال: ينام على فراش وثير.

يكونوا بُصَرَاءَ؛ لأن التأمُّلَ يؤدِّي غالبًا إلى الشَّكِّ ثم السكون. وهم يخرجونَ عادةً من بين ذوي الأعصاب المريضَةِ المتهوِّسِينَ الذين اضطرَبَتْ قُواهُم العقليةُ إلى النصفِ، وأمسَوْا على شَفا جُرُفِ الجنون، لا ينفَعُ الدليلُ على فسادِ ما اعتقدوا كيفَما كانَ معتَقَدُهم باطلًا ولا تُثنِيهم حُجة عن طَلَب ما قَصَدوا بالغًا منها الخَطلُ[1] ما بَلَغ، ولا يؤثِّرُ فيهم الاحتِقارُ ولا الاضطهاد. بل ذلك يزيدُهم تهوُّسًا وعِنادًا».

وقولَهُ في مَوضع آخَرَ: «وكان أكبرُ القوَّادِ من الأُمَم خُصوصًا قوَّادَ الثورةِ الفرنساوية من قِصَار العُقُول جدًا، وكان أكبرُهم تأثيرًا أشدَّهم قِصَرًا في العقل. فإنَّ الإنسانَ ليدهشُ مما يراهُ من التخبُّط عند مُطالَعَةِ رسائِل أعظمِهم قَدْرًا وهو روبسبيير. ومَنْ لم يَقْرأ غيرَها من ترجَمَةِ حَياتِه لا يجدُ ما يُعَلِّلُ به قوَّة ذلك المسيطِر الجبَّار... صِيَغٌ كُلِّيَّةٌ جاريَةٌ على كلِّ لسان، وشَقْشَقَةٌ[2] في الفصَاحَةِ محفوظَةٌ من كُتبُ التربيةِ والتعليم على الطريقَةِ اللاتينيَّةِ اجتَمَعتا في نفس خلوُها أكثرُ من انحطاطِها، نفس تكادُ لا تعرفُ من وَسَائِل الهجوم أو الدفاع إلا ما تَعَوَّدَهُ التلاميذُ من قولِ الواحِدِ منهم لزَميلِه: هل مِن مُبار؟ وليسَ هناكَ رأيٌ ولا تدبيرٌ ولا شارِدَةٌ عُنْفٌ مُمِلٌّ وشِدَّةٌ مُسئِمَةٌ، فإذا فَرغَ القارئ من تلكَ المطالَعَةِ المُمِلَّةِ شَعَرَ بالحاجَةِ إلى قَوْلِ «أف» كما كانَ يفعل الرجُلُ الظريفُ كاميل ديمولان».

وكنتُ أعجَبُ لبعض أتباع الحزب الوطنيِّ وبعض كُتَّاب جَرَائِده، كيفَ استَحالوا إلى جُناةٍ مُجرمينَ بعدَ أن كانوا أشرِفَاءَ أنقيَاءَ، وكيفَ هانَ عليهم أن يُجامِلُوا نفوسَهم بالإغضاءِ عما تَقْتَرِفُهُ من سَبِّ الأبرياءِ وهَتْكِ أعراض الأشرافِ والعَبِّ[3] في الدماءِ البشريَّةِ بصورَةٍ وحشيَّةٍ بعدَ أن كانوا يَتَرَفَّعونَ عن لِمَم[4] الذنوبَ وصَغائِر الدنايا. كما كنتُ أعجَبُ لهذا البائِس المسكين الذي كانَ أندَى الناس وَجهًا، وأكثرَهُم حَياءً وأدَبًا، كيفَ حَسُنَ في نظرِه منظَرُ جريمةِ القتل التي ارتكَبَها، ثم هَلَكَ في سَبيلِها فَضَرَبَ بجريمَتِه الوَطَنَ الذي يحسَبُ أنه يخدمهُ ضربَةً هيهاتَ أن يَبُل من بعدِها. ثم عرفتُ أن ذلكَ لازمٌ من لوازم الجماعاتِ عندَما قرأتُ قولَ صاحب «روح الاجتماع»: إن الفردَ يكتسبُ من وُجُودِهِ وَسَطَ الجمع قوةً كبيرةً تشجِّعُهُ على الاسترسالِ في أميالِهِ مما كانَ يُحجِمُ عنهُ مُنفردًا بالضرورة. ثم هُو لا يكبَحُ جماحَ نفسِه؛ لأنَّ الجماعَةَ لا تسألُ عن

(١) خطل في منطقه ورأيه: لم يفعل الصواب.
(٢) شقشقة: كلام في غير محله.
(٣) عب الشيء: شربه من غير تنفس.
(٤) لمم الأمور: صغائرها.

أفعالِها لشيُوعِها بينَ جميع الأفراد، فلا يشعُرُ الواحِدُ منهم بما قد يَجُرُّهُ العَمَلُ عليه من التَّبِعَةِ. وهذا الشعورُ هو الزاجِرُ للنفوسِ عما لا ينبغي».

وقوله في موضع آخرَ: «تصدرُ الجرائمُ عن الجماعاتِ غالبًا بسبب تحريض قويٍّ، ويعتقدُ الذين ارتكبُوها من أفرادِها أنهم قامُوا بواجِب كان مَفروضًا عَليهم. وهذا ليسَ شأنُ الجناةِ في الأحوالِ الاعتيادِيَّة».

وهنا يمكنني أن أستخلصَ مما تقدَّمَ الحقائقَ الآتية:

١- ليسَ إجماعُ واحِدٍ أو عشرةِ آلافٍ أو مائةِ ألفٍ متأثِّرينَ بشعورٍ واحدٍ مُستَمدِينَ قوَّةً واحِدةً على رأيٍ من الآراء، دليلًا على صِحَّةِ ذلكَ الرأي؛ لأنَّهُ رأيُ فردٍ واحِدٍ تأثَّرَ به الباقي تقليدًا أو عَدْوى. ورأيُ الواحِدِ مُتَرَجِّحٌ بين الخطأ والصَّواب.

٢- ليس انضمامُ جماعةٍ من أذكياءِ الناس وعُقلائِهم في حزبٍ من الأحزابِ أو جَمعيةٍ من الجمعيَّاتِ دليلًا على فَضْلِ ذلكَ الحزب أو شَرَفِ مقاصِدِه أو صِحَّةِ مَبادِئِه، لأنهم لا يجتازُونَ عَتَبَتَهُ إلا بعدَ أن يَخلَعُوا عُقولَهم ومَوَاهِبَهم مع أرديتِهم وعصيِّهم خارجَ بابِه.

٣- لا يُشترطُ في قيادَةِ الجموعِ أن يكونَ القائِدُ ذَكِيًّا أو عاقِلًا أو داهِيَةً أو مفكِّرًا أو فَصيحًا، بل يَكفيهِ من ذلكَ كلِّه شَيءٌ من العِلْم بأذواقِ أتباعِهِ وسُبُلِ الوصولِ إلى قُلوبِهم لا يزيدُ عن عِلم التاجر بأذواقِ زَبَائِنِهِ ورَغَباتِهم.

٤- ليس حُبُّ الجماعَةِ لبعضِ الناس وبُغضهم لآخرينَ دَليلًا على رفعَةِ مَنْ يحبُّون، وَضَعَةِ مَنْ يبغضُونَ. وليست جرائِمُهم التي يَقترفُونها باسم الشعور الذي يَشتركُونَ فيه دَليلًا على أنَّ مَنْ يقتلونَ يَستحِقُّ القتل، أو يشتُمُونَ يستَحِقُّ الشتَم، أو يحتَقِرونَ يَستَحِقُّ الاحتِقَارَ، بل كثيرًا ما تكونُ الحقيقةُ على العكس من ذلك عندَما يكونُ قائدُ تلكَ الجماعةِ من أشرارِ الناس وأدنيائِهم.

٥- لا يكونُ مُقتَدِرًا تمامَ الاقتِدار على قيادَةِ الجماعاتِ واستِوائِها أو مُقاوَمَتِها وَمُصارَعَتِها مَنْ يذهَبُ في كِتاباتِهِ أو خِطاباتِهِ مَذْهَبَ القياس الصَّحيح والبُرهانِ العقلي، ومَنْ يكونُ كثيرَ الاحتِراسِ من الكَذِبِ والتلفيقِ والسَّفْسَطَةِ والتضليلِ، أو طاهِرَ اللسانِ والقَلَم من السفَاهَةِ والشتم.

٦- لا سبيلَ للإنسان إلى الخلاص من خَطَلِ الجماعاتِ وضَلالِها مهما كانَ ذكِيًّا أو

مُفكّرًا إلا إذا حَبَسَ نفسَه عن الانضمام إليها، أو كانَ له من عَزيمَةِ الرأي وصَلابَةِ النفس ما يمكِنُهُ مِن تربيَةِ نفسِه على التجرُّدِ حتى يصيرَ طَبيعَةً لَهُ، فيُحضرُها شَاهِدًا كَغَائب ومُجتَمِعًا كمنفرد.

٧- لا يجوزُ للتلميذِ في أثناءِ الدراسةِ أن ينضَمَّ إلى حزب من الأحزاب أو جَمعيةٍ من الجمعياتِ بالفِعلِ أو القوَّة، إلا بعدَ أن يستَمِدَّ من العِلم قُوَّةً تساعِدُهُ على اكتِساب مَلَكَةِ التجرّدِ التي لابُدَّ لها من مُعالجَةِ اكتسابها للخَلاص من جُنونِ الجماعاتِ وتهوُّسِها إن اضطرَّ في مُستقبَلِ أمرِهِ إلى الانضمام إليها.

٨- جميعُ القُوى التي يتوسّلُ بها قائدُ الحِزب أو الجماعاتِ إلى التأثير على أتباعِهِ أو تكثير عَدَدِهم، ضعيفَةٌ بجانِب القوَّةِ التي يَستَمِدُّها من مُقَاوَمَةِ الحكومَةِ التي يعيشُ فيها له بالتهديدِ أو السجن أو التعذيب، فإنه يستفيدُ من ذلكَ عطفَ أتباعه عليه، وتَشَبُّثَهم بهِ ويُؤنِسُ بأحاديثِ نكبَتِهِ ونَوادِرِ رَزيئَتِهِ قلوبَهُم كلَّما أَلَمَّ بها المَلَلُ منهُ ومن وُعُودِهِ الكاذِبَةِ وأقوالِهِ المردَّدَة. فإن كان لتلكَ الحكومَةِ أَرَبٌ في القضاءِ عليه وعَلى أتباعِه، وكانت قادِرَةً على قَطْعَ الصِّلَةِ بينَه وبينَهم بقَفْلِ جَريدَتِهِ إن كان صَحافيًا، أو قطْع خطابَتِهِ إن كان خَطيبًا، فَلْتَفْعَلْ، وإلا فَلْتَترُكْه وَشَأنَهُ حتى يعتني بأمرِهم، وتنفَذَ بقيَّةُ القُوى التي يتوسَّلَ بها إليهم.

٩- ليسَت تلكَ الطبيعةُ المقرَّرَةُ للجماعاتِ المؤلَّفَةِ من البسَطَةِ والبَلَهِ وسُرْعَةِ الصِّدْقِ والاندفَاعِ والغلوِّ شَرًّا دَائِمًا، بل قد تكونُ خيرًا مُخلصًا إذا رَزَقَ الله تلكَ الجماعاتِ قُوّادًا دُهاةً مُقتَدِرينَ على الخداعَ الشريفِ يَسُوقُونها إلى سَعَادَةِ أُممهم وَهَنائِها، وحُرِّيَتِها واستِقلالِها.

١٠- ليسَ وجودُ التهوُّسِ والتحمُّس والغضب والتهوُّر في حزب من الأحزاب المصريَّةِ دَليلًا على تأَخُّر الأمَّةِ وانحِطاطِها انحطاطًا كَثيرًا، لأنها صفاتٌ عامَّةٌ في كلِّ الجموعِ الشرقيةِ والغربية، وإن كانَ خَطرُها عَلينا أكثرَ مِن خَطَرِها عَلى غيرِنا.

الاتحاد

أَلَمَّتْ بي في تلكَ الفترةِ الماضيَةِ كُربَةٌ من تلكَ الكُرَبِ التي لا تزالُ تَتَعَهَّدُني كما تَتَعَهَّدُ المحمومَ نوباتُهُ حِينًا بعدَ حين، كُربَةٌ ما كَفاهَا أنها أمسَكَتْ قَلَمي عَن الكتابَةِ وفِكري عن الحرَكَةِ حتى حالَت بَيني وبين مُطالَعَةِ الصُّحُفِ وإشرافٍ على الأُمَّةِ من نوافِذِها بُرهَةً منَ الزمانِ. ثم أدرَكَتْني رَحمَةُ اللهِ فاستَفَقْتُ فإذا صَخَبٌ ولَجَبٌ، وغَوغَاءٌ وضَوْضَاءٌ، وأصواتٌ مِلءَ الفضاءِ، وكِظَّةَ[1] الأرضِ والسماءِ، فما هُوَ إلا سُؤالُ السائِلِ وإجابَةُ المجيبِ حتى عرفتُ كلَّ شَيء.

عرفتُ أن الأمَّةَ الشرقِيَّةَ في موقفٍ مِن أحرَجِ مواقِفِها، ومسلَكٍ من أَضَلِّ مسالِكِها، وأنها بينَ ماضِغَي الأسدِ وفوق روقِ الظَّبْي، وأنَّ حوادِثَ الدهرِ وَعَادياتِ الأيامِ قد مَلَكَت عليها سَبيلَها والتَفَّتْ حولَها التِفَافَ الحيَّةِ بالعُنُقِ، وأحاطَتْ بها إحاطَةَ الجامِعَةِ باليَدِ، والقَيدِ بالرِّجْلِ. فمَثَلُها كَمَثَلِ رَجُلٍ أحاطَتِ النارُ بيتَه مِن كلِّ جانبٍ، وعَلقَتْ بسقُوفِه وجُدرانِهِ ونَوافِذه وأبوابِهِ، فما هُو بناجٍ إنَ أرادَ نجاةً، وَلا بباقٍ إن أرادَ حيَاةً مُدْلَهِمَّةً قد غابَت كَواكِبُها واستَسَرَّت نجومُها فوَقَفَ وقفَةَ الحائرِ المضطرب يسمَعُ العُواءَ والزئرَ، والضجيجَ والصَّفيرَ، فلا يعلَمُ، فيزدادُ ضَلالًا، أم يُحجِمُ فلا يجدُ مَجالًا، أم يقفُ فيصبحُ فريسَةَ المفترِس ولُقمَةَ المزدَرِدِ.

عرفتُ أن الأُمَّةَ الشرقيةَ أصبحَتْ لا تَدري ما تريدُ ولا ما يُرادُ بها، ولا تجدُ مَنْ يردُّ إليها رشدَها، ولا مَنْ يَمُدُّ يَدَه إليها ليأخُذَ بيدِها في هذا الظلامِ الحالِكِ والليلِ المُدلَهِمِّ[2].

كثُرَ رُؤساؤُها، وتعدَّدَتْ قادَتُها، وتَنَوَّعَت مَذاهِبُهُم واختَلَفَتْ طُرُقُهم، واستَحْكَمَتْ حَلقاتُ البأس بينَهم، فلم يتَّفقوا في شَأنٍ من شُئُونِ هذه الأمةِ على شيءٍ إلا عَلى وَضْعِ حَبْلٍ مَتين في عُنقِها قَدْ أخَذَ كلٌّ منهُم بطرَفٍ من جانبِهِ يجذبُه إليه جَذْبَةَ المُستَقْتِلِ

(١) كِظَّة: بمعنى ملء.

(٢) يقال: ليل مدلهم، شديد الظلام.

المُستَميت حتى بُحَّ صوتُها وضاقَ صَدرُها، وتعلَّقَتْ أنفاسُها، وجَحَظَتْ مُقلتاها، وجَفَّ رِيقُها وتحجَّر لِسانُها، وهُم ينظرونَ إليها نظرَةَ الدَّاعِر[1]، اللاعِبِ، ولا أحسَبُ أنهم تاركُوها حتّى يُفرِّقُوا بينَ الرأس والجَسَدِ فِراقًا لا لقاءَ من بعدِهِ إلى يومَ يُبعَثُونَ.

لو بُعثَ أرسطو واضِعُ علم المنطِق من قبره وأرادَ أن يَضَعَ لهذه الأمَّة حَدًّا تامًّا جامِعًا مانِعًا لما استطاعَ إلا أن يَضَعَ لها هذا الحدَّ «الأمَّةُ الشرقيةُ هي التي تُصَدِّقُ كلَّ ما يُقال»، ولقد عرفَ كلُّ أولئكَ اللاعبينَ بها والعابثينَ بمُيُولِها وأهوائِها مِنها هذا الخلقَ وتلكَ الطبيعةَ، وكانوا قُساةَ القلوب غِلاظَ الأكبادِ، فنَفَذوا من تلكَ الآذانِ اللَّيِّنَة إلى تلكَ القلوب الطيِّبَةِ فما بَلَغُوها حتى أخذُوا يَلعبُونَ بها لِعَبَ الصَّبِّي بكُرَتِهِ، ويَتَلَقَّفُونَها واحدًا بعدَ واحدٍ، فهي لا ترتفعُ حتَّى تتناوَلَها الصَّوالجةُ، ولا تستقِرُّ حتى تدفَعَها الأقدامُ، كلٌّ يزعَمُ أنه صديقُها، وكلٌّ يزعَمُ أنه يَدُلُّها على عَدُوِّها، واللهُ يعلَمُ أنهم أعداؤُها قبلَ العداءِ، وخُصومُها قبلَ أكثر الخُصَماء، وأنَّ السماءَ بصواعِقِها ورُجُومِها، والأرضَ بزلزالِها وبَرَاكِينها أعجَزُ من أن تبلغَ منها ما بَلَغُوه، أو تجني عَليها ما جَنَوهُ.

فيا أيها الرؤساءُ والزعماء..

أيَّ خير تطلبونَ لهذه الأمةِ بعدَ أن فرَّقتُمُوها شِيعًا، وصيَّرتُموها أحزابًا وقَسَّمْتُمُوها على أنفسِها، وقطَّعْتُم أوصالَها ووشَائِجَها[2]، وألقيتُمُ العَداوَةَ والبَغضاءَ بين الرجُل وولدِه، والرجُل وأخيه، والجار وجارِه، والصديق وصديقِه، حتى ركبَ كلُّ فردٍ من أفرادِها رأسَه ومَضَى لسبيلِه، وحتَّى تناكَرَتِ الوجوهُ، واستَوْحَشَتِ النفوس، وأصبحَت ساحةُ البلدِ كساحةِ الحربِ، لا تَرَى فيها إلا نابًا يقرَعُ نابًا، وعَينًا تنظرُ شَزرًا، وصَدرًا يَغلي حِقدًا، وقَلبًا يخفقُ خَوفًا وحَذَرًا.

كلُّ غرض تزعمونَ أنكم تَسعَوْنَ إليه لا بلاغ هذهِ الأمّةِ آمنيتَها منَ السعادَةِ والهناء، لا قيمةَ لهُ بعدَ ما أضعتُم عليها مِن أغراضِها إلا إذا كانَ الاتحادُ قائِدَها إليه وَدليلَها عليه.

ليسَ هذا التنافرُ بين أفرادِ الأمةِ والتفرُّق بين جَمعيَّاتها حالةً من الحالاتِ الطبيعيَّةِ التي لابُدَّ مِنها ولا مناصَ[3] عَنها، أو حادثَةً منَ الحوادِثِ السماويَّةِ التي تحتِملُها

(١) يقال: رجل داعر، وامرأة داعر، والدعارة الفجور والوقاحة.
(٢) الوشائج: العلائق والروابط.
(٣) لا مناص: لا غناء عنها ولا فكاك منها.

النفوسُ وتسكنُ إليها القُلوبُ وتُغضي عليها العُيونُ إجلالًا للسَّماء، ورَضاءً بالقضاء، وإنما هي صنعُ أيديكُم، وجِنايَةُ أقلامِكُم. ولو أنكُم تركتُم هذهِ الأمَة وشأنَها، وخَلَّيْتُم بينَها وبينَ فِطرتَها ما كان يخطُرُ لها ببالٍ أن تتعادَى وأن تتباغَضَ ولا كانَ يوجَدُ بين أفرادِها مَنْ تحدِّثُهُ نفسُه بمقاطعةِ أخيهِ في سَبيل صَحيفةٍ من الصُّحُفِ أو حِزبٍ مِنَ الأحزاب.

عَجزَ الاختلافُ الديني بين عُنصُرَي الأمَّةِ الشرقيةِ أن تُفرِّقَ بينَ أوصالِها وبينَ جامِعَتِها، وعَجزَ الاختِلافُ الجنسي أن يؤثِّرَ في جامعَتِها تأثيرَ أمثالِه مِنَ الجوامع الأُخرى، فكيفَ لا يَعجزُ الاختِلافُ الديني والجنسي لولا أنكُم كبرتُم ما صَغُرَ من هذا الاختِلافِ، وعظَّمْتُم منهُ ما حَقُرَ وألحَحْتُم عَليه إلحاحًا شَديدًا حتى حَوَّلتُمُوه إلى فتنةٍ شنعاء، وغارَةٍ شَعواء.

أنا لا أطلبُ منكُم رحمةً بهذهِ الأمةِ، ولا شفقةً عَليها، فإنَ قُلُوبًا مثلَ قلوبكُم التي تَنطوي عَلَيها جَوانِحُكُم أقسَى على أن يَنفُذَ فيها سيفُ الضارب، فَضلًا عن قَلَم الكاتِب وإنما أريدُ أن أُحَدِّثَ الأمةَ الشرقيَة بكلمةٍ لا أُريدُ منها أن تأخُذَها مني عَفوًا، ولا أن تُسَلِّم بها قبلَ إمعان نَظرها فيها وعَرْضِها على عَقلِها، فذلكَ ما لا أُحِبُّه لها بل ذلك ما أنقِمُهُ عَليها.

أيها الشرقيون..

إني لا أكتبُ إليكم كَلمتي هذه وليسَ على وجهِ الأرض، ولا تحتَ أديم السماء، أمةٌ أَحَبُّ إليَّ منكُم، وحسبُكُم ذلكَ الحبُّ أني أسمَعُ بالكارثَةِ تحلُّ بكُم والنازلَةِ تنالُ منكم، فيُشغِلني من أمركُم ما لايُشغِلُني من أمر نَفسي، وتَجودُ عَيني في سبيلِكُم على ما بها من جفَاءٍ وغلظَةٍ بما لا تجودُ بمثلِه في أحرَجِ مواقِفِها وأصعَبِ مواطِنِها.

بهذا القلم الذي يَستمِدُّ مِدادَهُ من هذا القلب المخلِص لكُم، أدعوكُم إلى الاتحادِ والائتِلافِ، وأن تَتَبايَعُوا بينَ يَدي اللهِ والوطن على الحبِّ والوُدِّ والصفاءِ والإخلاص بينَكُم، ولا تجعَلُوا لهؤلاءِ المُفسِدينَ مَنفذًا يَنفذُونَ مِنه إلى قلوبُكم. فإن طافَ بكُم طائفٌ من شيَاطِينهم، فأعْرِضُوا عَنه وامضُوا في سبيلِكُم، واحْذَروا أن تكُونوا تَبعةً لرئيس أو لُعبَةً في يَدِ زَعيم، ولكِنْ كلٌّ منكُم زعيمُ نفسِه، ومُسترشِدُ قلبه، فنفوسُكُم أرحَمُ بكُم، وقلوبُكُم أصدقُ في نصيحَتِكُم. فإن فعلتُم ذلكَ نَجَوْتُم من ذُلِّ الانقيادِ،

وسَلَكْتُم سَبيلَ الرشادِ، وأصبَحتُم وإذا أنتُم أمةٌ واحدةٌ تَرى رأيًا واحِدًا وتحسّ بإحساسٍ واحدٍ.

واعلَموا أن ما بينكُمُ اليومَ منَ الاختِلاف في الرأي والاضطراب في المذهَب إنما هُو وَهْمٌ منَ الأوْهَام الكاذبة، وخيالٌ من الخيالاتِ الباطِلَة. ولو رجعتُم إلى أنفسِكم وأصغَيْتُم إلى أصواتِ قُلوبكُم لتَبيّنَ لكُم أنَّهُ لا يوجَدُ فردٌ من أفرادِكم إلا وهو أحرَصُ من أخيهِ على حُبِّ الوطن وإرادَةِ الخير لَهُ.

سدَّد الله طريقَكُم، وأنارَ لكُم سَبيلَكُم، وأفاضَ عليكُم من رحمَتِهِ وإحسانِهِ ما يُفَرِّجُ كُربَتَكُم، ويَكشفُ غمَّتَكُم، والسلام.